



علي مولا

لطيفي أكدوغان



سارق

المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية

1100.9

ربيع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

دمشق أوتوستراد المرة ص.ب: ١٦٠٣٥ - برقياً طلاسدار

هاتف : ٦٦١٨٩٦١ - ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ تلکس : ٤١٢٠٥٠



ساز

سَارِفٌ
الْمُرَادُ الْبَاقِي فَهَذَا لِلْمُفْرَدِ الْعُزْبِ الْعُمَامَةِ

جميع الحقوق محفوظة لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى ١٩٩٥

لطيفي أكيدوغان

سيرة

المرأة التي هدرت للعب الطوريس العمانيّة

ترجمة
دار طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

تقديم ومراجعة الدكتور : محمد محفل

عنوان الكتاب باللغة التركية

LÜTFÜ AKDOĞAN

İMPARATORLUĞU
YIKAN KADIN

SARA

A | B | C | Ajansı
yayımları

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عندما عُهد إليّ في مراجعة وتحقيق هذا الكتاب ، المترجم عن اللغة التركية ، استرعى انتباهي العنوان : « سارة ، المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية » ، فنحن ، كطلاب تاريخ ، لا تستهيننا عناوين كهذه ... فمن هو العملاق الأوحده القادر على بعثرة إمبراطورية مترامية الأطراف ، كالدولة العثمانية؟! ... ولكن مؤلف هذا الكتاب ليس مؤرخاً - بالمعنى المتفق عليه - وهو الذي يقول في خاتمة كتابه : « ... ولا تنسوا ، هذا ليس مجرد سرد تاريخي وليس سرداً للأحداث ، وليس أيضاً رواية ... » وكاتبنا صحفي ، واسمه (لطفي أكدوغان) ، وُلِدَ في أنطاكية عام ١٩٣٠ ، قبل سلخ لواء أسكندرون عن الوطن الأم ، بحوالي عشر سنوات .

راح أكدوغان يمارس مهنة الصحافة اعتباراً من عام ١٩٥٠ ، وسرعان ما لمع نجمه لإتقانه اللغة العربية إضافةً إلى لغته الأم ، التركية ، وبذلك شكلت كتاباته نقطة وصل بين أبناء بلده والعالم العربي ، وكتب أول تحقيق صحفي عن العالم العربي عام ١٩٥٣ ، ثم ذاع صيته بعد أن نجح في تغطية وقائع العدوان الثلاثي على مصر ، عام ١٩٥٦ ، ومنذ ذلك الوقت اشتهر كمراسل حربي في العالم العربي (١٩٦٧ ، ١٩٧٣) وفي آسية (الهند ، كشمير ، أفغانستان ، الخ...) .

وعلاوةً على ذلك ، أقام أكدوغان علاقات ودّ وصداقة مع عديد من ملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية : الملك سعود وفيصل وأمراء الخليج وجمال عبد الناصر والقذافي الخ ... وقام أحياناً بدور الوسيط بين أطراف عربية متنازعة .

إنضمّ في عام ١٩٦٥ إلى (حزب العدالة) التركي وانتُخب لعدة مرّات نائباً في مجلس الشعب التركي وظلّ يحرّر زاويةً سياسية في صحيفة « الصباح

المجديد « التركية.

فلطيفي أكدوغان ، كما نلاحظ ، كاتب بارز وذو موهبة كما أنه يثير الاهتمام لنشاطاته واهتماماته المتنوعة ، والتصنيف الذي نحن بصددده يشهد على ذلك . ! لا يجب أن يظن القارئ أننا نشارك كاتبنا في الرأي بلا قيد ولا شرط ، وكما يقولون : « أعط ليصر ما لقيصر ولله ما لله . » .

وتنحصر ملاحظتنا أصلاً بمحقلين أساسيين : في الشكل وفي الموضوع . فالعنوان بعينه يثير مسألة ، فكيف يمكن لفرد ، من رجل أو امرأة (وإن كانت من أهل السحر) ، أن يدثر الإمبراطورية العثمانية ، مهما كان متقن الحيلة أو عظيم القدرة ، فيما لو أن الوضع العام للدولة العثمانية كان سليماً ، علينا أن لاننسى « مفتاح السر وجوهره » : « تركة الرجل المريض » ، اعتباراً من القرن الثامن عشر ، و« المسألة الشرقية » ، بعد اجتياح قوات محمد علي بلاد الشام ودخوله الأناضول وانتصار ابنه ابراهيم على قوات السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٣٢) في قونية ، قبل أن تجبر الدول الأوروبية حاكم مصر على التراجع (تموز ١٨٤٠) .

وهكذا ، أصبح سلاطين (آل عثمان) أسرى الصراع والتنافس على اقتسام تركة « الرجل المريض » ، بين مختلف الدول الأوروبية وروسية القيصرية ، فضعت قدرة الدولة وهزل سلطانها وتقلّصت رقعتها لتقتصر قبل الحرب العالمية الأولى على المشرق العربي وبعض أجزاء شبه الجزيرة العربية ، أما بالنسبة للأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية ، فلنا عودة إليها لاحقاً .

لأنود رمي الكلام على عواهنه ، ولكي لا يبدو عنوان الكتاب أجحياً ، بالنسبة للقارئ العربي العادي ، أبدينا بعض الملاحظات التاريخية ، في مقدمتنا هذه ، إضافة إلى الشروح الهامشية في متن الكتاب . قد يكون أكدوغان على حق بالنسبة للقارئ التركي ، أما بالنسبة لنا ، فنعتقد أننا نجازف بقارئنا فيما لو ألقينا العنوان عليه بدون توضيح مغزاه ، وكأننا نسلم

بمزاعم أولئك الذين أشاعوا أن الكاهن المشعوز (راسبوتين) كان العلة الفاعلة في زوال الإمبراطورية الروسية القيصرية .

ثم نأتي إلى الملاحظة الثانية حيث نجد أكدوغان يكرر كلمتي «موسوي» و «موسوية» مشيراً إلى «اليهودي» و «الديانة اليهودية» . وهنا أيضاً ، قد نجد عذراً للكاتب ، فكم هم أولئك الذين يظنون أن التوراة المتداولة حالياً هي من آثار موسى . لانبؤد أن نُغرق القارئ بالدراسات التوراتية والتلمودية ، فهذا ليس قصدنا ولا مجال لذلك هنا ، ومع ذلك نعتقد أنه لا بد من توضيح بعض النقاط ، كما يلي:

١ - التوراة المتداولة حالياً ليست من آثار موسى ، ولقد سَطَّرت على شكلها الحالي حوالي القرن العاشر للميلاد ، أي بعد ظهور النبي موسى المفترض بألفي وثلاثماية سنة تقريباً .

٢ - تضم التوراة الحالية ٣٦ سفرًا ، لا تقربها الفرقة السامرية «الموسوية» باستثناء الأسفار الخمسة الأولى : التكوين ، الخروج ، الأحمبار ، العدد ، تثنية الاشتراع . ويُجتم السفر الأخير بموت موسى (٣٤ ، ٥ - ٦) : «فمات هناك موسى عبدُ الرَّبِّ في أرض موآب بأمر الرب ، ودفنه في الوادي في أرض موآب تجاه بيت فغور ولم يعرف أحدُ قبره إلى يومنا هذا .» . وبذلك يمكننا القول إن السامريين - المقيمين حالياً بالقرب من نابلس - هم أقرب إلى واقع الأمر من اليهود الآخرين ، عندما يقولون : « كيف تنسبون أسفاراً لموسى مع أنها صُنِّفت بعد موته ؟ » . ونكترر قائلين ان مختلف أسفار التوراة الحالية لاعلاقة لها قطعاً بموسى وعصره . ومن الجدير بالملاحظة ما نجده في تراثنا العربي - الإسلامي حول هذا الموضوع ، ولندكر على سبيل المثال لا الحصر (ابن حزم الاندلسي ٩٩٤ - ١٠٦٤) ، فبالإضافة إلى كتابيه الشهيرين «طوق الحمامة» و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » له رسالة «الرد على ابن التغيريلة اليهودي^(١)» ، يفتد فيها ابن حزم مزاعم الأحبار

(١) حقق هذه الرسالة الدكتور احسان عباس ، نشر دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٠ .

اليهود بالنسبة للأسفار وعصر تصنيفها .

أما رسالة «بذل المجهود في إخماد اليهود»^(١) . فقد كتبها أحد أحبار اليهود بعد أن اعتنق الإسلام^(٢) ، ويقول فيها : « ... لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل ، ولم يثبتها فيهم ، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد لاوي ... » وهؤلاء الائمة الهارونيون الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قتلهم بخت نصر (هو الملك الكداني نبوخذ نصر ٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) على دم واحد ، يوم فتح بيت المقدس . « ولم يكن حفظ التوراة فرضاً ولا سنة بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة » وفي الرد من قال ، كيف نشأت التوراة المعروفة ، إذن ! يجيب السموأل بن عباس بقوله : « فلما رأى عزرا أن القوم قد أحرق هيكلمهم ، وزالت دولتهم ، وتفرق شملهم ورُفع كتبهم ، جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي في أيديهم . ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة . وزعموا أن النور إلى الآن يظهر على قبره عند البطائع بالعراق ، لأنه عمل لهم كتاباً يحفظ لهم دينهم .

فهذه التوراة التي في أيديهم على الحقيقة كتاب عزرا^(٣) » .

نستنتج من جميع ما ذكرناه ، أن تكرار كلمتي «موسوي» و«موسوية» إشارة إلى «يهودي» و«ديانة يهودية» - كما يتكرر في

(١) قدم الرسالة ونشرها : محمد أحمد الشامي ، مطبعة الفتالة الجديدة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) وهو (صموئيل بن يهوذا بن عباس المغربي) وبعد اعتناقه الإسلام عُرف باسم (السموأل بن يحيى بن عباس المغربي) . كان طبيباً واشتهر بعلم الرياضيات بالإضافة إلى تبحره في علوم الدين اليهودي والمسيحي والاسلامي .

(٣) المعروف بـ «عزرا الكاتب» ، لانعلم الكثير عن سيرته إلا ما نسجته الأساطير اللاحقة. لعب دوراً في عودة اليهود من بابل إلى فلسطين على أيام الملك الفارسي كورش حوالي (٤٦٠ ق.م) عمل على التفريق بين اليهود وغيرهم من الأمم ، قال عنه بعض المعاصرين «عزرا هو أول عنصر يفاشي في التاريخ» وإليه يشير القرآن الكريم في (سورة التوبة، ٣٠) باستنكار : « وقالت اليهود عزير ابن الله ... قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلم الله أنى يؤفكون » .

الكتاب - أمر غير ملائم ، بل ويتناقض كلياً مع نتائج مختلف الدراسات التوراتية المقارنة ، التي أقرّها الباحثون ، طبعاً باستثناء الصهاينة منهم والمتصينين . ولذلك ، كم يبدو مضحكاً قول مناحيم بيغن لرئيس الولايات المتحدة جيمي كارتر ، وهو يهديه التوراة ، بعد التوقيع مع السادات على معاهدة (كامب ديفيد) عام ١٩٧٩ : «سيدي الرئيس ، إن كنت مؤمناً حقاً فيجب أن تسلم بكل حرف جاء في هذا الكتاب .»

نستطيع القارئ عذراً لاسهبنا في التعليق على هذه النقطة أو تلك ... فعندما شرعنا في إنشاء هذه المقدمة ، كان علينا تفضيل إحدى الطريقتين : فإما أن نغني المقدمة بالملاحظات التاريخية ، لتتحول ، إذا صح القول ، إلى نور كشف يوضح بعض الجوانب والنقاط الغريبة على القارئ العادي (من مواقع وأسماء ومؤسسات الخ ...) ، أو أن نجعل في نهاية الكتاب ملاحق ملائمة ، يقلبها القارئ ، إذا لزم الحال ... وفي نهاية المطاف اخترنا النهج الأول ، مع إضافة شروح هامشية في المتن ، والحالة هذه نتحمل وحدنا مسؤولية الهوامش المرفقة في متن الكتاب .

ثم نأتي إلى «جمعية الاتحاد والترقي» المعروفة أيضاً باسم «تركية الفتاة» التي يتردد ذكرها في الكتاب مع أبرز زعمائها : أنور ، طلعت وجمال ، الذين ألقوا بلادهم في ورطة الحرب العالمية الأولى وأوقعوها في ما لا خلاص لها منه . وعندما يبدي أكدوغان رأيه في هؤلاء الرجال وفي أعمالهم ، نراه متردداً في الحكم عليهم ومحاول التماس الأعذار لهم ، معللاً سلوكهم تارةً بالجهل وعدم اليقظة أو بحسن النية والعفوية ، علماً أننا أمام جماعة لعبت دوراً خطيراً في هدم أسس الدولة العثمانية . لاندرى ! قد يكون لأكدوغان أسبابه المتعلقة بالأوضاع العامة في بلاده ومن المحتمل أنه تحاشى الاصطدام مع بعض الأوساط المنتفذة والمتحدّرة من زعماء الاتحاد والترقي .

في الواقع ، ماهي حقيقة «جمعية الاتحاد والترقي» ؟ ! وماهي أصولها وأهدافها ؟ ! وكيف ساست البلاد والعباد بعد أن أزاحت السلطان عبد الحميد

الثاني عن العرش عام ١٩٠٩ ، لصالح محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) ؟ !
سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة باختصار ، موضحين للقارئ نقاط
استدلال أساسية ، انطلاقاً من الأقدم إلى الأحدث :

١ - بعد سقوط الأندلس وخروج العرب منها عام ١٤٩٢ ، هاجر يهود
إسبانية ، فراراً من اضطهاد محاكم التفتيش ، وحلوا الشمال الإفريقي ، لاسيما
المغرب الأقصى ، مما يعطل وجود جالية يهودية كبيرة فيه حتى يومنا هذا ، كما
توجه البعض الآخر شرقاً للاستقرار في الدولة العثمانية ، فنقل السلاطين
القسم الأكبر منهم إلى مرفأ سلانيك المقدوني ، ثمالي غرب بلاد اليونان ،
الخاضع للعثمانيين .

٢ - في عصر السلطان العثماني (محمد الرابع ١٦٤٨ - ١٦٨٧) ظهر في
مدينة أزمير التركية شاب يهودي مغامر ، زعم أنه المسيح المنتظر ، وهو
(شبتاي زيوي)^(١) - الذي أطلق عليه مريدوه : (شبتاي بن لاوي) وكان
أبوه من التلموديين^(٢) المترمتين ، فعاث فساداً في الدولة .
وبعد أن أمرت السلطات بالقاء القبض على المشعوذ الدجال وراحت

(١) حول حركة شبتاي زيوي انظر كتاب الكاتب التلمودي الانكليزي :

Cecil Ruth , A Short History of the Jewish People , 1600 -- 1935, Macmillan ,
London 1936 ,

سيسيل روث ، موجز تاريخ الشعب اليهودي من عام ١٦٠٠ لعام ١٩٣٥ . وحتى عام ١٩٥٥ ، كانت
معلوماتنا حول هذا الموضوع محصورة بهذا المرحع ، إلى أن ظهرت الترجمة العربية عن التركية لكتاب
« الخطر المحيط بالإسلام أو الصهيونية وبروتوكولاتها » للجنرال التركي المتقاعد (جواد رفعت
اتلفان) ، ضابط الاستخبارات العثماني في جبهة فلسطين في الحرب العالمية الأولى .

(٢) تعني كلمة تلمود « التعليم » وخلف لنا أحبار اليهود تلمودين : البابلي والأورشليمي . ويتألف كل
منها من قسمين : « المشنا » و« المجرا » والمشنا « المثال الثاني » هي أحكام متعلقة بالشريعة والأحوال
المدنية وتعتمد على التقاليد المتوارثة ، أما « المجرا » فهي اجتهادات الربانيين عبر العصور . ويعطي
المترمتون اليهود دوراً كبيراً للتلمود مهملين بذلك التوراة .

تحاكيه ، أعلن اسلامه وتبعه مريدوه في ذلك ، علماً أنه استمرّ في نهجه القديم وراح يحترض أتباعه على التوغل في المجتمع العثماني الإسلامي ، لتوهين عزاءه ، وفك روابطه وغزوه باليهودية المتسرّعة العامة والحبة ، وانتبه إلى ذلك اليقظون من الأتراك فأطلقوا على أتباع شبتاي زيوي كلمة (دونغة) وهي كلمة تركية تعني (كاذباً في ما يزعم اعتقاده) . وراح الدونغة يعيشون بوجهين: يصلّون ويصومون ويحجون كالمسلمين ويقرّأون التوراة والتلمود ويقومون الطموس اليهودية ، وأسأؤهم في الخفاء عزرا وحاييم واستير ودבורا ، أما في المجتمع والوظيفة فأحمد ومحمد وحسين وخديجة وعائشة ...

٣ - يرى البعض أن أغلبية أعضاء «حزب الاتحاد والترقي» تعود بأصول أفرادها إلى الدونغة . ولكن كيف يمكننا أن نفرز الأتراك الاتحاديين «الدونغة» عن غيرهم ؟! وهنا نتذكر القول المأثور «تعرفهم من ثأرهم» و «إن غاب عنك أصله ذلك عليه فعله» . في مجال السياسة الخارجية واعتباراً من عام ١٩٠٨ ، حيث استلم الاتحاديون مقاليد الأمور ، بعد الانقلاب على عبد الحميد الثاني قبل خلعنه نهائياً عام ١٩٠٩ - وحتى عام ١٩١٤ ، اندلعت الحرب العالمية الأولى - فقدت الدولة العثمانية البوسنة والمهرسك وطرابلس الغرب (ليبيا) ، قبل توريطها في الحرب البلقانية فالحرب العالمية الأولى . كما أن الكلمة العليا في شؤون الدولة أصبحت لألمانيا وخبرائها ومستشاريها .

أما في مجال السياسة الداخلية فقد تميّز حكم الاتحاديين بما يلي :

١ - ازدياد نفوذ الدونغة الخفي والصهيوني العلني إلى درجة أن اليهود حصلوا في وزارة الانقلاب سنة ١٩١٣ على ثلاث حقائب وزارية ، إضافة إلى حقنية جاويد «الدونغة» الذي أصبح وزيراً للمالية ، وهذه الوزارات هي : أ - وزارة النافعة (الأشغال العامة) التي كانت من حصة (بساريا أفندي) ، رئيس تحرير جريدة «جئون ترك الشباب الأتراك» ، التي كانت تصدر في باريس تحت رعاية (مجلس الشرق الماسوني الفرنسي) ، قبل انتقال مجلس ادارتها إلى استنبول ، بعد عام ١٩٠٩ . وبساريا أفندي يهودي روماني

(الافلاق والبغدان)^(١) ظلّ - للمضي بهامه الصهيونية - من رعايا الدولة العثمانية ، على الرغم من انسلاخ بلاده عن جسم الدولة العثمانية .
ب - واستلم وزارة التجارة والزراعة (نسيم مازلياح) ، نائب أزمير ، في البرلمان العثماني سابقاً ، وهو من الصهاينة المرموقين .
ج - وكانت وزارة البوستة والتلغراف (البريد والبرق) من حصة (أوسقان أفندي) ، من الدوغة ، فمن موظف متواضع أصبح بقدرة قادر وزيراً .

وهكذا ، فمن أصل ثلاث عشرة حقبة وزارية نال اليهود مع الدوغة أربع حقائب ، في حين أن العرب لم ينالوا أية حقبة ، علماً أن اليهود في الدولة العثمانية قلة ضئيلة بينما العرب يشكلون نصف السكان العثمانيين وبلدانهم في المساحة أكبر من الأناضول ذاتها أضعافاً مضاعفة .
وكان الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) في وزارة عام ١٩١٣ ، (الأمير سعيد حليم باشا) من أسرة محمد علي ، حكام مصر ، وامتاز بضعف الشخصية وأمره طرداً وعكساً بيد العصبة التركية الطورانية ، فريسة الإمبريالية الألمانية والصهيونية العالمية .

٢ - بعد خلع عبد الحميد ، تقاعد رعايا الدولة العثمانية بعهد من الحرية والمساواة ، ولكن سرعان ما خاب أملهم عندما راح الاتحاديون يمارسون سياستهم المشؤومة (البطش ، والتترك) ، فراح الناس يحثون للماضي وقال أحد شعرائهم :

كان عبد الحميد في الأملس فرداً
فغدا اليوم ألف عبد الحميد

(١) كما ذكرت في الوثائق العثمانية وهي من الولايات الرومانية واسم رومانيا القديم (داقية) حكمها العثمانيون ابتداء من القرن الخامس عشر بواسطة ولاية يونانيين من أتباع الفانار (وهو حي في استنبول يقيم فيه البطريرك المسكوفي الارثوذكسي) ، ثم استقلت هذه الولايات وشكلت مع مولدافيا دولة رومانيا الحديثة اعتباراً من عام ١٨٥٦ م بمعاهدة باريس .

وهنا ، لآبة لنا من طرح السؤال التالي : ما هي حقيقة سياسة عبد الحميد الثاني الداخلية والخارجية ؟! وبخاصة ما له علاقة بفلسطين ؟!

من المعروف أن أعداء عبد الحميد قد نددوا بسياسته وأطلقوا عليه ألقاب : «الطاغية» «السلطان الأحمر» «المستبد» الخ ...

نحن لسنا في مجال الدفاع عن عبد الحميد والنيل من (جماعة الاتحاد والترقي) - وقد أطلق عليها بعض العرب بعد انفضاح أمرها - (جمعية الإلحاد والتدني) ... نحن طلاب تاريخ ونحاول فقط وضع النقاط على الحروف. ولذلك - كما سيلاحظ القارئ الكريم - قد نثقف مع الكاتب أكدوغان على بعض ما أورده في كتابه ونختلف معه في أمور أخرى .

من المسلم به ، إن الزعيم الصهيوني هرتسل قد أجرى ثلاث مقابلات مباشرة مع السلطان عبد الحميد إضافة لعلاقات غير مباشرة بواسطة عملائه وعلى رأسهم (فنلنسي) ، كل ذلك لأخذ وعد من السلطان يسمح لليهود بالاستيطان في فلسطين، ولكن عبد الحميد رفض طلبهم من أول وهلة ففي ردّه على العميل الصهيوني فنلنسي ، قال السلطان : « إذا كان هرتسل صديقك فانصحك بأن لايسير أبداً في هذا الموضوع ، إني لأستطيع أن أبيع ولو قدماً واحداً من أراضي الإمبراطورية، لأنها ليست ملكي ، بل ملك شعبي ، دع اليهود يحتفظون ببلاديهم ، فإذا ما جرى بعدي تقسيم الإمبراطورية ، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، لكن ما يجري تقسيمه آنذاك إنما هو جثتنا ، لأننا لن نسمح بتشريح جسدنا ونحن أحياء لأي غرض كان .» (يوميات هرتسل ، المجلد الأول ، صفحة ٣٧٨) فراح هرتسل يراوغ، فكتب رسالة إلى الصحفي الانكليزي الصهيوني (سيدني هوتيان) ليسألها إلى عبد الحميد بواسطة (أحمد مدحت أفندي) ، أحد المقربين من السلطان ، وجاء فيها :

بادئ ذي بدء ، يجب أن لا يؤخذ كتابي « دولة اليهود »^(١) على أنه

(١) أصدر هرتسل كتاب (دولة اليهود) عام ١٨٩٦ ، أي قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل (سويسرة) بعام واحد فقط .

التحديد الرسمي للمشروع . أنا أول من يعترف بأن فيه الكثير من النظريات... أما الآن فإننا نراعي ظروف الواقع ، ونرغب في أن نحسن التصرف سياسياً ... وإذا منحنا جلالة السلطان الشروط الضرورية لإسكان شعبنا في فلسطين ، فإننا نوفر للاقتصاد التركي التنظيم والازدهار بالتدريج ، وحالما يقبل الطرفان بهذا المبدأ ، فإنهما ينصرفان إلى النظر في تفاصيله . ومن السهل أن نرى أن الراغبين في إضعاف الإمبراطورية العثمانية وتفتيتها هم أعداء خطتنا ، وأعداؤنا أيضاً هم الذين يريدون امتصاص دماء تركية بقروضهم الشرهة : ذلك أن الحكومة العثمانية سوف تستعيد سيطرتها بواسطتنا على موارد البلاد وسوف تبعث البلاد من جديد . » (يوميات هرتسل ، المجلد الثاني ، صفحة ٥٠٩) .

رغم جميع هذه الاغراءات ظلّ عبد الحميد يرفض مطالب هرتسل ويرفض كذلك مقابلاته لعدة سنوات ، فراح يستعمل أسلوبه المفضل - الرشوة - يبيدونها بسخاء للوسطاء والعلماء من أتراك وغيرهم ، كما تفلح محاولاته في مقابلة السلطان وإقناعه . وأخيراً حظي بعد ثلاث سنوات من الجهود المستمرة بالمقابلة لابصفته رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية وإنما بصفته يهودياً لامعاً وصحافياً متنفذاً ، ورّقب المقابلة الأولى (فامبري) وهو مستشرق يهودي مجري وحذر هرتسل قائلاً : « إياك أن تحدث السلطان عن الصهيونية ... القدس مقدّسة لدى هؤلاء الناس مثل مكة .. » (يوميات هرتسل ، المجلد الثالث ، ص ١٠٦٣) . ولكن لا هذه المقابلة ، ولا المقابلاتين اللتين أجراهما من بعد (عام ١٩٠٠ ، ١٩٠١ ، ١٩٠٢) ، مع السلطان أسفرت عن أي نجاح ، فالسلطان عبد الحميد رفض منح حقوق غير محددة بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ، مقابل سداد المنظمة الصهيونية العالمية للدين العام للدولة العثمانية .

وقد نُقل إلى هرتسل جواب السلطان النهائي على مشروع (تمجير اليهود إلى فلسطين) في شهر آب ١٩٠٢ وجاء فيه : « يمكن لليهود أن يُقبلوا ، ويستقروا في الإمبراطورية العثمانية شرط أن لا يكونوا جميعاً في مكان واحد ،

بل يُفَرِّقُوا في أماكن تعيينها لهم الحكومة ، وشرط أن يُحدّد عددهم مسبقاً من الحكومة ، وسيعطون الجنسية العثمانية ، ويُطابّون بجميع الضرائب المدّية ، بما فيها الخدمة العسكرية ، كما سيكونون خاضعين لجميع قوانين البلاد ، كباقي رعايا الدولة العثمانية» (يوميات هرتسل ، المجلد الرابع ، صفحة ١٣٤٠) .
مات هرتسل عام ١٩٠٤ أي قبل أن يخلع رجال (الاتحاد والترقي) السلطان عبد الحميد الثاني بجمس سنوات .

مع استلام الاتحاديين مقاليد السلطة تغيّر الموقف الرسمي من الهجرة اليهودية ، بسبب الدور الذي لعبه الأتراك «الدوغة» في الانقلاب واستغلت الحركة الصهيونية التطور الجديد فأوفدت خيرة قادتها ومنهم (داود بن غوريون) و (اسحاق ليفي) إلى استنبول لتدعيم النشاط الصهيوني فيها . وبالفعل نجحت الصهيونية العالمية في زيادة عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين بدعم من الجهات الرسمية التركية ، مما دفع العرب إلى اتهام (جماعة تركية الفتاة) بأنهم على ارتباط مع اليهود والحركة الماسونية ، الذين يخططون لاقامة ملكة يهودية في فلسطين .

يُستنتج من أقوال أكدوغان أن جمال باشا وغيره من رجال الاتحاد والترقي كانوا رجال دولة لامعين كما أنهم كانوا يجهلون خفايا بعض الاتحاديين «الدوغة» ، وهنا نتذكّر قول شاعرنا :

إن كنت لا تدري ، فتلك مصيبة

أو كنت تدري فالمصيبة أعظم

ومن العجيب بل والمذهل في الأمر أن نجد بين أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) شخصيات يهودية صهيونية بارزة كالنائب في مجلس المبعوثان (عمانوئيل قره صو) وحاخام استنبول (حاييم نعوم) اللذين لعبا دوراً بارزاً في خلع السلطان عبد الحميد ، وراحا بعد ذلك يعلنان ماسونيتهما ، بل إن الحاخام (حاييم نعوم) كان الرئيس الفعلي لـ « مجلس الشرق الأكبر العثماني »

ومركزه استنبول ، وهو من المحافل الماسونية الكبرى في الشرق ، ولعب ومازال - بشعارات مختلفة - دوراً خطيراً في تاريخ تركية المعاصر . نقول من الغريب أن لا ينتبه اتحاديون - يبرر أكدوغان تصرفاتهم - إلى أشخاص كهؤلاء إلى أن فوجيء الجميع بوجودهما في الوفد الانكليزي المفاوض مع الأتراك عام ١٩١٩ (معاهدة مونديروس) ، في الوقت الذي كان لورانس يوقع بفيصل بن الحسين للتفاوض مع وايزمان في باريس ، علماً أن بعض المفكرين العرب (كـ رشيد رضا) ^(١) وغيره راحوا يفضحون مؤامرات الدوغة ، التي تجسدت بالاتحاد والترقي . فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد رشيد رضا يُعَدّد في مجلته (المنار ، عدد آب ١٩١٦) أقطاب الاتحاديين الدوغة أمثال : جاويد وعمانوئل قره صو وحاييم نعوم وجمال باشا وخالدة أديب والشاعر فاروق نافذ الخ ... لقد أدرك رشيد رضا وأقرانه خطر مؤامرات الدوغة التي تجسدت في (جمعية الاتحاد والترقي) ، وأخذوا يقيمون الدليل تلو الآخر على ازدواجيتهم : التركية الإسلامية / اليهودية الصهيونية .

نكّر قائلين : نحن لا ندافع عن عبد الحميد وطريقة حكمه ولا نجازف بالصاق التهم برجال « تركية الفتاة » و « الاتحاد والترقي » يقول بعضهم : يجب أن لا ننسى بأن عبد الحميد رغم رفضه لمطالب هر تسل ، قد سمح بنشوء أولى المستعمرات الصهيونية في فلسطين... هذا صحيح ، ولم تنشأ هذه المستعمرات على أراضي أميرية ، ولانودّ أن نفتح ملفّ الاقطاعيين السوريين واللبنانيين ، الذين باعوا هذه الأراضي للصهيانية وعملائهم . (الفولة قرب العفولة في مرج ابن عامر الخ ...) وهل علينا أن نذكر أسماء (آل سرقس ، وآل تويني ، وآل بطرس الخ ...) على رأس أولئك الذين لم يكتروا بمصالح الفلاحين وأهل الأرض الحقيقيين ، بل قدّموا مصالحهم الأنانية المشبعة على كل شيءٍ آخر . ونأتي الآن إلى قضية الشهداء ، الذين أعدّمهم جمال باشا

(١) رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) ، صحافي لبناني ولد في قلمون طرابلس ، صاحب مجلة المنار . تلميذ الامام محمد عبده . واصل نشر تفسير القرآن الذي بدأه أستاذه .

والثورة العربية الكبرى .

فمن المعروف أن جمال باشا قد أعدّ الجيش الرابع للهجوم على قناة السويس (شباط ١٩١٥)، معتمداً على نشوب ثورة في مصر حيث مشاعر الناس عامّة نحو الانكليز غير ودية، ولكن كما نعرف، فشل الهجوم وظلّت مصر ساكنة، فسحب جمال باشا القسم الأكبر من جيشه عائداً إلى دمشق. وقد لعبت شبكة التجسس الصهيونية والمثيرة باسم «نيلي» - وعلى رأسها سارة آرونسون - عشيقه جمال باشا بحسب رواية أكدوغان - ومركزها مستعمرة عتليت، جنوبي حيفا، نقول لعبت هذه الشبكة دوراً كبيراً في فشل حملة السويس، وذلك بتسريب خطط وأسرار الهجوم التركي للسلطات الإنكليزية في القاهرة. كانت الشبكة الصهيونية للتجسس على علاقة وثيقة بالانكليز وعملاتهم في مصر والحجاز، وعلى رأسهم «لورانس» - صديق العرب المزعوم -، لورانس هذا الذي لعب دوراً كبيراً في ثورة العرب على الأتراك، هو نفسه الذي أهدى كتابه إلى شخصية غامضة لم تكن معروفة، قبل معرفة بعض الوثائق السرية المتعلقة بالحرب العالمية الأولى ونتائجها: (تمكك الدولة العثمانية، سايكس - بيكو، وعد بلفور، الخ...). يبدأ لورانس اهداء كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» كالتالي:

«إلى س. آ.

لقد أَحَبَّبْتُكَ، ولذلك جذبتُ بيدي هذه المجموع من الناس مسطراً إرادتي بالنجوم عبر السماء، كي استحصل لك على الحرية، المنزل الجدير بك، منزل الأعمدة السبعة، لعل عينيك تشعان من أجلي عندما أجيء... لقد بدا لي الموت خادماً في الطريق إلى أن اقتربت ورأيت من تنتظرين. لقد تبسمت حين سبقتني إليك مدفوعاً بغيرته الحزينة، ليحملك ويلقي بك في سكينته...»
لم نكن نعرف الشخص المُشار إليه بحرفي س، آ قبل فترة من الزمان - قبل إفشاء الأسرار - وهنا نعود إلى عنوان كتاب لطفي أكدوغان:

س (سارة)

آ (آرونسون)

فمن له آذان فليسمع ! ومن له عيون فليشهد !

قبل فوات الأوان ... لورانس هذا هو صهيوني قبل أن يكون
انكليزياً... هو وجميع من كانوا على شاكلته ... نعم جذب «بيده هذه المجموع
من الناس» (العرب من قلب الجزيرة العربية) «كي استحصل لك على
الحرية» (وعد بلفور) ، المنزل الجدير بك منزل الأعمدة السبعة (الوطن
القومي الصهيوني فدولة إسرائيل) ولا ندري حقاً ! من هو الأحق من بني
يعرب الذي أطلق عليه لقب (لورانس العرب)؟ هكذا ! ...

نعم ! هنا نلتقي مع أكدوغان ... الجميع كانوا عيان البصر
والبصيرة... لقد وعدونا ... لقد وعدوا العرب بالاستقلال والحرية...
فكانت المشانق والضحايا ... لقد صعد شهداؤنا سلام المشنقة غير آبهين
بالموت، في سبيل أمتهم ... وثارت ثورة العرب وهُزِمَت القوات العثمانية ...
فجاءت المكافأة :

سايكس - بيكو ، وعد بلفور ، انذار غورو وميسلون وكما يقولون :
« والحبل على الجرار » ... في قراءة كتاب لطفي أكدوغان عبرة لمن يعتبر...
وأملنا الأوحـد ورجاؤنا الأكبر هو أن « لايعيد التاريخ نفسه » ...

الدكتور محمد محفل

دمشق في ٦ تشرين الثاني ١٩٩٤

عبرة من التاريخ القريب

يقول مونتسكيو الكاتب الفرنسي الشهير ، في كتابه «رسائل إيران»^(١) :
«كم هو سعيد ذلك الإنسان الذي يعتبر الحديث عن براعته ضرباً من الغرور» .
إلا أننا ، رغم ذلك ، نجد أنفسنا ملزمين بالحديث عن أحد المبدعين في
الفكر ، لطفي اكدوغان ، الذي يطوي وراءه خمساً وثلاثين عاماً من الشهرة ، في
مجالات الصحافة والفكر والأدب ، ولانعتقد أن ذلك ضرباً من الغرور، بل على
العكس ، فإن من واجبنا أن نعرف الأمة عليه .
لو أننا تساءلنا عن اسم صحيفة عاصرت أعوام الخمسينات وحتى
الثمانينات من القرن العشرين، لكان الجواب بلا شك ولا تردد «أخبار الشرق
الأوسط» .

أجل ، ففي بداية الخمسينات ، كان هذا الصحفي الناشئ يلعب دوراً مهماً
بتغطية الأحداث البارزة في لندن والدول العربية المجاورة ، رغم التقنية المتواضعة
التي كانت عليها الصحافة التركية .

ولفترة ليست ببعيدة ، لم تكن الأمور والأحداث والتطورات التي وقعت في
فترة الحرب العالمية الأولى ، واضحة للأذهان . وكانت أشبه بعلبة محكمة الإغلاق
لايُعلم أحد ما في داخلها ، خصوصاً بعد توسع النفوذ العثماني، وقبضه على زمام
التاريخ في المنطقة ، وبعد أن أصبحت الأمة التركية ، صاحبة الكلمة الأولى
والأخيرة مع بداية القرن العشرين .

(١) كاتب فرنسي (١٦٨٩ - ١٧٥٥) له عدة مؤلفات منها « رسائل فارسية » وكلمة إيران
جاءت بعد اسم « بلاد فارس » بعد الحرب العالمية الأولى . والكتاب هو عبارة عن تبادل
رسائل وهمي بين فارسيين زارا أوروبية وباريس وفيها نقد لعادات وطباع المجتمع الفرنسي .
ومونتسكيو هو من رواد الثورة .

فخلال خمسة وثلاثين عاماً ، طاف اكدوغان ، معظم الدول في منطقة الشرق الأوسط زد على ذلك أنه أمعن البحث والتقصي إلى أبعد الحدود فيها ، حيث قام في بادئ الأمر برحلة استطلاعية بهدف التعرف على تلك المناطق والدول ، ثم أفرغ كل ما تعلمه وجلبه معه في جعبته وقدمه إلى المجتمع التركي .

ولقد آن الأوان ، وبعد كل هذه المدة ، أن نقدم هذه الأمانة التاريخية إلى أهل الفكر والتاريخ ، تلك الأمانة التي عاشها لطفي أكدوغان في أوج الأعوام الساخنة من هذه الحقبة من تاريخ المنطقة .

والكتاب الذي بين أيديكم ، هو أحد أعمال لطفي اكدوغان الرائعة ذات الأمانة الصادقة ، إنه باختصار قصة وتاريخ الإمبراطورية العثمانية على الجبهة الجنوبية الشرقية .

اقرؤوا هذا الكتاب ، وإننا على يقين من أنه سينال إعجابكم ، ولسوف تشعرون بالحزن وبقليل من الأسى ، عند قراءتكم لهذه الوثيقة الدقيقة للكاتب لطفي أكدوغان ، لكنكم سوف تشكرونه من أعماقكم على أمانته وصدق كلمته .

مع تحياتنا

مؤسسة أ . ب . ث للنشر

من هو جمال باشا ؟ CEMAL PASA KIMDIR ?

ولد جمال باشا ، المعروف بجمال باشا الكبير ، عام ألف وثمانئة وواحد وسبعون . كان له الدور الرئيسي والفعال في ولادة حركة «الاتحاد والترقي» وكان أحد الباشوات الثلاثة في عهد الانقلاب الثاني حيث قدّم لهم وللتاريخ خدمات جلّي وكبيرة ومهمة .

كان الباشا الأول هو طلعت باشا وقد حصل على منصب الصدر الأعظم . أما أنور باشا فكان وزيراً للحربية ووكيل قائد الجيش للامبراطورية العثمانية . أما جمال باشا فعلاوة على توليه منصب وزير البحرية وقيادة الجيش الرابع فقد تولى زمام أمور الدولة العثمانية في المناطق الممتدة من جبال طوروس وحتى اليمن بصفته حاكماً عسكرياً مطلقاً لها .

الوضع في الشام وبيروت خلال الحرب العالمية الأولى

مع إطلالة سبع عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، كانت بيروت كعادتها في أيامها الموالي ، تبدو رائعة الجمال ، جذابة ومميزة .
إننا في مطلع ليلة شاعرية وهادئة ، تحط رحالها على أطراف الجبال الكثيفة المطلة على شاطئ البحر ملؤها أريج الصنوبر وعطر السهول .
السما الصافية يوسطها قمر ناصع البياض ليضيء هذه الطبيعة الخلابة . أضواء خافتة تارة ومتلاثلة تارة أخرى تظهر وتختفي في أرجاء السهل الأخضر ، وفي أسفل السهل ، حيث يبدأ الشاطئ ، سفن صغيرة وكبيرة كانت ترتاح على الشاطئ وتتايل مع موج البحر .
وفي الأفق تتمازج أنغام المواويل والليالي وتحضن الواحدة الأخرى في تناغم رائع وتختفي رويداً رويداً في العمق السحيق للسهل مبتعدة عنا ، ثم تعاود ذلك كأمواج البحر .

ولاية عثمانية

في تلك الأيام كان لبنان ولاية عثمانية مركزها بيروت وكانت الدولة العثمانية منذ عام خلا تتخبط في الدماء والنار وتعيش أهوال الحرب العالمية الأولى . وكان الحديث عن الحرب قد بدأ في أرجاء الولاية والإمبراطورية ، في حين أن بيروت ، بعيداً عن كل هذه الأجواء ، كانت تعيش في سلام ورخاء

ورغد ومرح وسرور .

كانت بيروت ، برّاً وبحراً ، في غمرة الأضواء المتلاثلة . تزداد إشعاعاً وحياءً . وها نحن في إحدى تلك الليالي العامرة ، الأكثر جمالاً وسحراً ولألاً .
أما المكان ، أو بالأحرى ، مسرح الأحداث التاريخية التي سنشهدا فهو مجلس عثماني نيابي مصغر ، هو منزل النائب اللبناني ميشيل سرسق الخاص ، المحاط بأنواع رائعة ومختلفة الألوان من الورود والأزهار الجميلة ، حيث الأشجار المتناسقة والمرج الأخضر يغطيه من كل جانب ويضفي عليه سحراً وجمالاً ويزيد رونق وجمال المنزل المؤلف من طابقين ريفيين .

ضيف رفيع المستوى

وكانت هذه الليلة التي يحياها ميشيل سرسق مميزة ، إذ تأتي ميزتها وأهميتها من سبب إقامتها . فالليلة يقيم السيد ميشيل حفلة عشاء ساهرة على شرف ضيفه الكبير جمال باشا .
نعم ، جمال باشا ذاته .. وزير بحرية الإمبراطورية العثمانية وقائد جيشها الرابع ، جمال باشا .. هذه الشخصية العثمانية التي لمعت وظهرت على الساحة السياسية في فترة وجيزة لما تحمله من صفات الجرأة والوطنية والشرف والاستقامة ، ناهيك عن أن جمال باشا كان له دور كبير وفعال في حل العديد من المشاكل التي اعترضت الإمبراطورية العثمانية .
ورغم أن جمال باشا من أنصار حاملي أفكار السلم وليس الحرب ، إلا أنه مع ذلك مستعد لإحراز النصر للإمبراطورية ، ولديه العزيمة والتصميم على إخراج وطرده الانكليز من مصر ، فهو قائد الجيش الرابع ووالي سوريا العمومية ، هذا المنصب الذي انتزعه من حيدر باشا بكل ثقة وسهولة ، كما لو أنه يركب القطار في رحلة استجمام .
كان ضيوف ميشيل سرسق قد قدموا منذ وقت طويل . والكل

ينتظر بفارغ الصبر قدوم هذه الضيف الكبير وفي مقدمتهم ميشيل سرق وعقيلته ليندا ، ونظراتهم ملؤها الشوق والترقب بفارغ الصبر لقدوم ضيفهم الكبير .

وبينما هم كذلك ، سمعت أصوات غريبة أشبه بأصوات محرك سيارة عند مدخل الحديقة لفتت انتباه المدعوين وأصحاب البيت والخدم وحركتهم من أماكنهم بشكل عفوي . حيث في تلك الأوقات والأزمنة لم يكن هناك سوى ثلاثة أو خمسة يملكون سيارات ، وجمال باشا واحد منهم ، مما أثار فضول وشغف المدعوين لرؤيته ورؤية السيارة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان سماع الضيوف لصوت محرك السيارة دليل ومؤشر واضح على قدوم ضيفهم .

لقد كانت التخمينات في محلها ، نعم .. القادم هو قائد الجيش الرابع والي سوريا العمومية ، وزير البحرية جمال باشا .

نزل الضيوف إلى الحديقة وهم في شوق لرؤية هذا الرجل ، رغم أن البعض منهم قد رأى طلعت باشا وأنور باشا فيما سبق .

اقتربت السيارة رويداً رويداً وتوقفت عند منتصف مدخل المنزل ونزل منها الحاكم الأنيق بلباقة تجمع بين قوته التي مكنته من السيطرة على المنطقة بأقل من ستة أشهر ، وبين هيبة الحاكم الصارم ذي القوة المطلقة فأثار مشاعر الناظرين جميعاً .

لقد كان لباسه العسكري ولحيته السوداء تعطي للناظرين انطباعاً عن شخصية بالغة وكبيرة في السن على صغر سنه ، رغم أن وجهه لم يكن يحمل أي أثر للارهاق أو التعب نظراً للمناصب والمسؤوليات التي كان يشغلها .

بحركة هادئة مع ابتسامة ، حيا الضيوف والناظرين ، وتقدم محاطاً بالمدعوين يخطى هادئة نحو الدرج حيث كان يقف في مقدمته صاحب الدعوة، وزوجته السيد ليندا التي سارعت بابتسامات مرجبة

بالتوجه إلى الضيف الكبير مستقبلة إياه قائلة :

- أهلاً وسهلاً بك ، لقد أتيت إلينا بالسرور والصفاء بقدموك يا
سعادة الباشا، مادة ذراعها له وتقدما معاً نحو الصالون ، وتابعت تقول :
إنني واثقة من أنكم سوف تسعدون جداً هذه الليلة وسوف تكونون ضيفنا
العزیز ، وأرجو أن ينال بيتنا المتواضع إعجابكم وأن يليق بمقامكم .
ورد عليها جمال باشا بابتسامة رضى وسرور وشكرها على كلامها .

يعيش جمال باشا ؟

وهكذا تقدم الجميع إلى الصالون ، وبقية تعالت الأصوات تلا ذلك
دوي تصفيق حار مرحب بقدمه وترددت هتافات عالية تقول بالعربية
والتركية :

يعيش جمال باشا !

يحيا جمال باشا !

كان بعض المدعوين مازالوا في الحديقة ، مما جعل الكثير منهم يحاول
وسط زحمة المتواجدين في الصالون ، الوصول إلى أقرب مسافة من الضيف
الكبير لمشاهدته عن كثب ورؤيته عن قرب . ومن بين هؤلاء المدعوين ،
فتيات ونسوة أحسن التزين ، حاولن جاهدات الوصول إلى مكان الضيف
الكبير لمشاهدته والتعرف عليه . وكانت غالبتهن تنتمي إلى عائلات مرموقة
بيروتية ، لذلك كنا نلاحظ لباسهن الرفيع المستوى وعطورهن المميزة التي
تلقت الانتباه ، وكان مزيج هذه العطورات الغالية الثمن الذي يفوح وسط حشد
السيدات والفتيات بفساتينهن النصف عارية ، يجلب الانتعاش إلى القلوب
ويبهجها .

كان الضيوف ، وكل حسب تقاليده وعاداته ، أوروبية منها وتركية
وعربية ، يتقدم أمام الضيف الكبير ويحييه ، وكان جمال باشا يرد عليهم

التحية وبيادهم نظراتهم الهادئة المليئة بالاعجاب عند تحية إحدى تلك
الحسنات اللواتي هاج قلبهن لرؤيته ووددن التقرب منه ورؤيته عن قرب .
لقد كانت الثُّرَيَّا التَّدليّة من السقف تعيد إلى الذاكرة ليالي فيينا
الحاملة في حين أن تنوع هوية المدعويين في منزل ميشيل سرسق كان يضيف على
الأجواء حساً غريباً وجميلاً ، فلقد كان قسم منهم تركياً وقسم آخر عربياً ،
وبعضهم يتبادل أطراف الحديث بالفرنسية ، أما جمال باشا فكان يستعين
ببعض العبارات الفرنسية ليستهل مهمة التفاهم والحديث مع المدعويين ،
خاصة وأنه يتكلم لغة تركية فصحي ، ذات لكنة استنبولية .
ووسط هذا الفرح والمهرج ، انتهزت السيدة ليندا الفرصة وقدمت لجمال
باشا كأساً من الكريستال النادر مملوءة بخمر فرنسي فاخر ، فأخذها جمال
باشا وشكرها بلطف واحترام، وقبل أن يرتشف منها جرعة ألقى على الحضور
كلمة صغيرة قال فيها :

سيداتي المحترمات ، سادتي ، أتقدم بالشكر للسيدة ليندا وزوجها
الذين أتاحا لي حضور هذه الأمسية الرائعة .
انكم تعلمون أن دولتنا قد دخلت الحرب منذ عام تقريباً ، وأود أن
أؤكد لكم بأن النصر بإذن الله هو حليف دولتنا . إن أنباء انتصار جيشنا
على كافة جبهات القتال ترد إلينا كل يوم ، إن دولتنا تتطلع إلى النصر
النهائي والحاسم ، واتفاقنا مع الألمان اليوم له أهميتان عظيمتان :
فعلاوة على الكفاءة والتقنية الحربية الألمانية ، تأتي جرأة وشجاعة
الجيش التركي لتكون مكملة لعوامل النصر . وقريباً ستظهر نتائج هذه
الاتفاقية إلى العالم كله ، وإحدى نتائج هذه الاتفاقية تقويم العالم ، لأننا بعد
أن نفوز بهذه الحرب ، سوف نقوم بإعداد منهج جديد في كل الولايات ،
وسوف تكون هناك سياسة جديدة لإمبراطوريتنا ، على أساس الحرية
والمدنية، والتقنية والرفاه وسوف تعمل الإمبراطورية كل ما يلزم لتنفيذ هذه

السياسة الجديدة في كافة أرجائها . فبعض الولايات التي خضعت لإمبراطوريتنا بحاجة لاصلاح داخلي وسوف تتم هذه الاصلاحات في فترة وجيزة بالتعاون مع القوى الوطنية في تلك الولايات . كما أخذت الإمبراطورية بعين الاعتبار ، حرية القوميات والأُمم الواقعة تحت سيطرتها ، وستقوم بوضع نظام فيدرالي فيما بينها لتضمن لهم عيشاً سالماً وهنيئاً .

وكلي ثقة بأنكم سوف تؤمنون بما أقوله لكم ، ومطلبي منكم أن تؤمنوا بصدق ما أقول .

لقد كان لهذا الخطاب القصير ، صدى طيباً على كل الحضور المتواجدين في الصالون ، إضافة إلى ما بدا على وجوههم من علامات الرضى والسرور ، فعلت الهتافات والتصفيق على أشدها ، كما شارك النواب الشبان الذين كانوا على مقربة منه ، والضباط الألمان الذين يشاركونه طاوله العشاء ذاتها ، في التعبير عن سرورهم ورضاهم مع المدعويين وعن امتنانهم وإعجابهم بكلمته القصيرة تلك ، المليئة بالرجولة والثقة بالنفس اللتين يتحلى بها جمال باشا .

العشاء جاهز يساعد الباشا

بعد إلقائه لهذه الكلمة القصيرة ، ارتشف جمال باشا بعض الجرعات من كأسه ، ثم توجه إلى مجلسه المخصص له وسط الصالون على أريكة ضخمة يتأمل المدعويين ، لم يكن يلتفت بمنة ويسرة بل كان يكتفي بالإجابة بصوت خافت على تساؤلات بعض المدعويين محافظاً على هدوئه ووقاره في كل تصرفاته وحديثه .

مرت عشر دقائق على هذه الحال ، كانت النظرات كلها متجهة إليه مملوءة بالحب والإعجاب حيث حاول تجاهلها . إلا أنه شعر بعرقه يتصبب تحت سترته العسكرية ، وفجأة وبمركبة هادئة ، ضرب بكلتا يديه على طرفي الأريكة

التي كان يجلس عليها ونهض واقفاً وقال بنكهة مرحة للسيدة ليندا :
«أعتقد أننا جعنا كلنا ، متى ستقدمون لنا الأكل ؟»
في حقيقة الأمر ، كانت السيدة ليندا تنتظر هذا السؤال . فقالت :
« العشاء جاهز ياسعادة الباشا ، رهن اشارتكم » .
وهكذا توجه الجميع إلى غرفة الطعام .

زعيم مفكر

في الحقيقة ، كانت مائدة العشاء معدة بشكل يلفت النظر بالعناية الواضحة بها . فبالإضافة إلى المأكولات على الطريقة الفرنسية ، كانت هناك أطباق عربية مليئة بالتوابل تملأ المائدة . وكانت أغطية المائدة القماشية ناصعة البياض أشبه بلون الثلج ، والكؤوس تلمع ببريق شديد ، ناهيك عن الملاعق والشوك البراق التي كانت تزين المائدة . وعشرات الخدم والحاديات يطوفون حول المائدة لتأمين متطلبات المدعوين ، والمشروبات الفاخرة على مختلف أنواعها موزعة على المائدة بشكل ملفت للنظر . وكان عطر الورد القادم من الحديقة إلى الصالون عبر النوافذ والأبواب المفتوحة ينعش القلوب.

وأثناء الطعام ، قام الباشا بتناول بعض العرق المشهور في لبنان «عرق زحلة» ومع مرور الوقت ، شعر قائد الجيش الرابع بنشوة الخمر ، ووقع تحت تأثير العرق الذي ارتشفه ، وشعر حامل الرأس المفكر ، المليء بالأمور العظيمة ، بشيء من الدوار ، فنهض وخرج إلى الشرفة ملتسماً الهواء النقي علاناً لرأسه.

كانت أغصان شجرة المانوليا تغطي الشرفة ، فأخذ الباشا ، عاقداً يديه خلفه ، يتجول في أرجاء الشرفة بمفرده ، دون أن يشاركه أحد من المدعوين بناءً على توصية من صاحب المنزل .

كانت النسبات القادمة من جهة البحر قد ازدادت حرارة ، بينما كان الباشا يتجول ويعيد إلى ذاكرته أحداث اليوم التالي وبرامجه ، فهو مسافر غداً إلى الشام ، ثم إلى القدس ، ثم يعود بعد أن يجري بعض الأمور في المدينتين . فجمال باشا لم يكن مجرد والٍ فحسب ، بل كان مسؤولاً في الدولة والحكم .

وكان اهتمامه ، علاوة على الأمور العسكرية ، يشمل أمور الناس والشعوب التي تعيش على أراضي الإمبراطورية ، وينصب على أمنهم الغذائي والحياتي والمعيشي .

وبينما هو منهمك في كل تلك الأفكار والاهتمامات ، صدر فجأة من الحديقة أسفل الشرفة ، صوت نغمات لطيفة ، نغمات موسيقى عربية تعزف في الحديقة . فاقترب الباشا من حاجز الشرفة الأمامي ونظر إلى الأسفل . لقد كان هناك ساحة رقص صغيرة ، التم حولها المدعوون برفقة فرقة محترفة من العازفين ، الذين اتخذوا بجانب ساحة الرقص مكاناً لهم .

التفت جمال باشا إلى السيدة ليندا التي اقتربت منه وقال : « أتسمحين » ثم تابع يقول « لست أرغب في النزول إلى الحديقة ولكن إن أمكن أن ترسلي لي إلى هنا مقعداً فأكون لك شاكراً » .

وعلى الفور ، أسرع الخدم وحملوا أريكة ثقيلة من تلك التي كانت في الصالون وأحضروها إلى الشرفة . وجلس الباشا عليها ، وراح يسحب أنفاس سيجارته متأملاً البحر الذي شغله عن الحفل وعن الاحتفال الذي أقيم في الحديقة عند أسفل الشرفة ، وكان القمر موشحاً ببعض الغيوم البيضاء التي كانت تزيد روعة وجمالاً ، وعلى جانبه الجبل المليء بأشجار الصنوبر يمتد على مد النظر والبحر كالمرآة يعكس ضوء القمر المتلألئ ، وكأن ملايين المصابيح قد أضيئت على سطحه .

لقد كان سحر هذه الطبيعة التي أحاطت بجمال باشا وروعة منظرها قد

أنساه أصوات العازفين الذين تجمعوا تحت الشرفة . فتساءل بينه وبين نفسه ،
متأملاً ومردداً : ألا تستحق الحياة أن يعيشها الانسان خاصة عندما تكون
بهذه الروعة ولكن هل كل الناس محظوظون مثله وهو في هذا المكان الرائع
بالجمال والطبيعة ؟ تلك مسألة أخرى ، فالأسباب كثيرة والظروف مختلفة وكل
فئة من الناس لها نصيب في هذه الدنيا .

لكل شيء مشكلته

لعل حياة الباشا لا تخلو من مشكلة من تلك المشكلات . فحياته كلها
غنية بالعمل والنشاط ، أما على الصعيد المادي فلقد أُتيحت له كل
الامكانيات والفرص دون أية مصاعب ، غير أن المشكلة تكمن في العمر
والسنين التي تمر دون حساب . والمشكلة هي تلك المسؤوليات الكبيرة الملقاة
على عاتقه وتنغص عليه حياته رغم كل الامكانيات المتوفرة له ، إلا أن
الأعباء الثقيلة التي حملها على كاهله أنسته نفسه وقرر التضحية بكل شيء
من أجل بلوغ أهدافه السامية .

لو أن هذه الحرب تنتهي

تحت تأثير هذا السحر الجمالي الذي أحاط بالباشا ، بدأ يتمم بينه وبين
نفسه ويقول : آه ، لو تنتهي هذه الحرب على خير وسلام ! لو أنها تنتهي بنصر
مشرّف لدولتنا ! عندها أشرب مع أصدقائي كأساً ننسى به هذه
الايديولوجيات التي تعشش في رؤوسنا !

بعد أن ينتهي كل شيء ، أنا أيضاً ، مثل بقية المواطنين ، مثل أي
إنسان عادي ، سوف أتمكن من أن أعيش حياتي ببساطة وسعادة ...
الحرب ، وبإذن الله ، سوف تنتهي ولا بد ، أما أن يكون النصر
حليفنا فهذا شيء معقول ومنطقي ، ولم يكن ما يشغل بال جمال باشا ، بل

كان هناك ثمة أمر آخر يشغله ويقلقه .
في الحقيقة لم يكن هناك ما يقلق الباشا ويشغله فعلاً منذ
عدة أشهر، ويغلي ويشتعّل كالجر في داخله سوى « اهانة العرب له »
وخشيته منهم .
كان الباشا قلق جداً من خيانة العرب له ، ومعالجته هذا الأمر في
غاية الدقة والحساسية ، فليس من عادة الباشا أن يصارح عدوه بمخاوفه
وفي الوقت نفسه ، لا بد للباشا من انتظار نهاية الحرب بحذر شديد ، وإلى أن
يحين ذلك ، كان الباشا يدعو إلى الله من أعماقه ، بأن يحفظه من أن يطعنه
العرب في ظهره .

آخوف من العدو المكشوف

لم تكن مخاوف الباشا كبيرة في مواجهة أعدائه الفرنسيين والانكليز ،
لأنه كان قد كشفهم ويعرف كيف يتصرف معهم . أما الخوف الأكبر فكان
من تلك الحركة القومية التي أصبحت تموج في سوريا ولبنان والعراق
والحجاز ، وتحركات لشخصيات عربية تشير الشبهات والمخاوف ، وتعاون
البعض مع أعدائه الانكليز والفرنسيين .
غير أن هذه الأمسية الرائعة التي لاتعوض ، جعلت الباشا يحاول
ابعاد هذه الأفكار من رأسه ، لكي لايفسد متعة هذه الليلة الصافية وسط
هذه الطبيعة الخلابة .

« فلتكن هذه الليلة ، ليلة متعة لي » ، قال في نفسه ، ثم انحنى من
الشرفة ونظر إلى الحديقة من جديد . كانت هناك حسناء جميلة ، شابة ذات
عينين ساحرتين ترقص وسط الساحة في منتصف الحديقة . وكان جمالها ساحراً
وملفتاً ، وما زادها فتنة حركة يديها وسيقانها الرشيقتين .
لم تكن هذه الشابة الراقصة تشبه أيّاً من الراقصات اللواتي رآهن

الباشا في سوريا منذ توليه حكمها ، ومنذ زمن بعيد ، ورغم أنها كانت ترقص على الموسيقى العربية غير أنها لم تكن تشبهن قط .

كانت التفاتته ومراقبته الشغوفة للمراقصة قد أثار انتباه السيدة ليندا التي لم تكف عن مراقبته طوال الوقت ، فاقتربت منه ، وفي داخلها شيء من التوتر وقالت له : كيف وجدت ضيفتنا يا سعادة الباشا ؟
- من هي هذه المراقصة ؟

- إنها ليست راقصة ياسعادة الباشا ، لو جاز التعبير ، فإنها عالمة فضحك جمال باشا .

أنا لم أسمع ولم أعرف في حياتي أن الرقص والعلم يمكن أن يجتمعا في شخص واحد ولكن إذا تلاقيا يمكن أن يمنحا المرأة جمالاً أمتع .
- لو أذنت لي يا سعادة الباشا ، بتقديمها إليكم .
- أكون شاكراً لك .

وعلى الفور ابتعدت السيدة ليندا لتنفيذ ما طلبه الباشا وبينما كانت تتجه نحو مكان سارة كان الباشا يلاحق الفتاة الجميلة بنظراته التي استقرت عليها . لقد شاهد الباشا السيدة ليندا وهي تشير إلى الحسناء المراقصة بالقدوم إليها ، كما رأى استجابة الحسناء لها بكل سرور وعن طيب خاطر ، ولم تمض دقائق حتى وصلت صاحبة المنزل وبصحبته الفتاة الحسناء إلى الباشا وقدمتها له .

وحيث الفتاة القائدة التركي تحية ملؤها الخوف والحجل حتى كادت نظراتها لاتفارق الأرض الفاصلة بين مكان وقوفها ومكان جلوس الباشا .
« إن قبول سعادة الباشا صحبتي شرف كبير لي ، وإني لسعيدة جداً بذلك » .

فتابعت السيدة ليندا تقول :

سعادة الباشا ، اسمها سارة وهنت بقول بعض الجمل البروتوكولية ،

حين قاطعها الباشا ، الذي لم يجد في ذلك ضرورة وقال :
« هلا أحضرت للسيدة مقعداً » والعائلة الراقصة واقفة وقفة كلها
تهذيب ووقار واحترام .

« لو سمحتم يا سعادة الباشا وصححت لكم » إنها آنسة وليست
سيدة، انها الآنسة سارة آرونسون . وأضافت سارة تقول :
لو سمحتم يا سعادة الباشا ، لأكون شاكرة للمعروف ، ولحظي
السعيد، أن أقدم لكم نفسي « خادمتك سارة آرونسون » .

لقد سر الباشا من حسن لباقة الشابة الحسناء وطيب لسانها ،
علاوة على جمالها الفتيان ، فردد على الفور بصوت منخفض
« استغفر الله ... » مضيقاً إليها بعض الكلمات غير المفهومة .

عندها جلست سارة على المقعد الذي أحضره لها ، جلست جلسة
ملاكٍ رقيق لم يسبق للباشا أن رأى لها مثيلاً .

وتركت ليندا الضيفين على الشرفة وابتعدت بصمت إلى الحديقة ،
حيث أحد المطربين ، بطربوشه الطويل على رأسه ، يغني موالاً من موابيل
« يا ليل » .

لم تكن سارة تشبه أياً من الفتيات المدعوات ، من أهل المنطقة
فلقد كانت تصرفاتها ولباقتها تدل على أنها ليست واحدة منهن .

ودون أن تنتظر «رفع الكلفة» بينها وبين الباشا ، اقتربت سارة من
كتف الباشا كالقطة الوديدة قائلةً بصوت خافت وناعم :

آه يا سعادة الجنرال ، لم أكن أتوقع أو أحلم بأن أكون قريبة منك إلى
هذا الحد ، يا ليتك تعلم قدر سعادي بهذا . مؤكد أنك لست قائداً لحسب ،
ولكنك حاكم سوريا ولبنان ومؤسسها الحقيقي بل ، إن لم أغضبكم ، فأنتم
صاحبها ومالكها .

شاب مغلوب

ليس المهم استحسان الباشا لكلمات سارة هذه أو عدمه ، فالأمر أعمق بكثير من ذلك . كانت نظرات سارة الشاقبة والساحرة قد هيئت على الباشا ، فلم ينبس ببنت شفة ، ونظره ثابت على الفتاة الحسنة والتقت النظرات ، لقد كان الاثنان من ذوي الخبرة في المعارك وميادينها ، فبقي على هذه الحال مدة طويلة . وظلت سارة تنظر إلى الباشا بعيون ملؤها الثقة . وبعد ذلك نلاحظ وبوضوح خسارة الشاب المرموق في هذه الجولة الأولى . جمال باشا كان قد استسلم هذه النظرات الشاقبة الساحرة وأعلن خسارته للجولة الأولى .

ولم تكن سارة تعتمد على جاذبية نظراتها وعيونها فقط بل على قدها المكتنز وشفاهها الحمراء وبشرتها الطرية التي طغت عليها رائحة عطرها الخاص ، كانت سارة تمتلك كل تلك القدرات الجذابة .

وهكذا وقع جمال باشا ، أحد أكبر ثلاثة قواد للإمبراطورية العثمانية ، بكل تلك القدرات التي يملكها ، والعقل المفكر الذي يملكه ، أسيراً تحت رحمة جمال وروعة سارة ، التي سلبته كل تلك القوى وكل تلك القدرات بنظراتها . لقد كان الباشا يسأل نفسه ، من أين لتلك القدرات أن تسلب إرادته وعقله بالشكل الذي فعلته به .

إن رجلاً مثله ، يعيش الحرب ومشاكلها ، لا يمكن أن يكون حساساً لموقف كهذا وفي ليلة كهذه ، وللخروج من المأزق الذي وضعته فيه ، واظهار عدم تأثره بها وبمفاتها ، حاول الباشا التحدث مع سارة ، لكسر طوق الحصار عنه فسألها قائلاً : من أين أنت يا آنسة سارة ؟

- أنا ... أوه لاتسأل عن ذلك ياسعادة الباشا ؟

الحقيقة ، إن كان لا بد من الإجابة ، فأنا إنسانة بلا مأوى ، ولا مكان ، إنسانة تعيش الحظ لاتصلح لشيء ، كل الناس والأبناء لهم من

يعتني بهم ويدلهم . أما أنا . فأنا ابنة عائلة رماها الدهر من جانب إلى آخر ، ومن وادٍ إلى واد .

فليد الله بالخير إمبراطوريتنا ويطول أعمار الجنرالات أمثالكم ، الذين هم من الأصالة والانسانية بقدر كبير .

أما نحن البؤساء المساكين ، فلقد حظينا في عهدكم ، ببقعة صغيرة من أرض فلسطين وكان لنا الشرف في ذلك .

- حسناً ، ولكن قبل الآن أين كنتم ، ومن أين قدمتم إلى هنا ؟
فردت سارة مكن يلقي خطاباً وقالت :

ياسعادة الباشا لانقاش ولااعتراض على القدر في أننا ولدنا موسويين . لقد عشنا بادئ الأمر في روسيا ، ثم تعرضت ملتنا هناك إلى العديد من الاضطهادات فرحلنا إلى رومانيا ثم أرسلنا من جديد إلى انكلترا وبعدها بفترة ، وعندما سنحت لنا الفرصة ، أتينا إلى فلسطين .

الشكر أولاً لله ثم لكم ، لقد كنا سعداء الحظ بأن كتبت لنا الحياة على هذه البقعة من الأرض ، واننا ندعو دائماً بأن تخرج الإمبراطورية العثمانية مظفرة من هذه الحرب .

انشراح صدر

لقد كان جمال باشا مسروراً لسماح أن سارة من أصل يهودي ، رغم أن كونها يهودية قد أشار لديه بعض الانقباض ولكنه كان في نهاية الأمر راضياً في قرارة نفسه عن هويتها . وكونها من أسرة أوروبية تقطن في منطقة عربية زاد نفسه انشراحاً واطمئناناً .

إذ ليس من السهل أن يتعرف على مثل هذه الحسنة التي تملك كل هذه القدرات وهذا النسب وهذه العائلة في زمن الحرب بهذه المنطقة . ومن ناحية أخرى ، كان لديه احساس بقرب حدوث سوء ما له ، من معرفته

هذه، ولكنه كان يخفف من شكوكه وتفكيره في هذا الاتجاه ، بتذكره أنها من أصل يهودي ولم يكن يجد أي احتمال للسوء من هذا التعارف .

لقد سبق أن واجه الباشا اعداءً للإمبراطورية من مختلف الجنسيات والمثلل الخفية منها والعلنية ، بما فيها الحركات المعادية للإمبراطورية ، ولكنه لم يسبق له ولا في أي زمن أن سمع أو واجه عدواً موسوياً . لقد بدأت الحركة الموسوية مع بداية حركة الاتحاد والترقي ، غير أن جل اهتمامها انصب على الأمور المالية فحسب .

فالقادمون ، الموسويون اليهود ، كان اهتمامهم بالأموال المالية حصراً ، وقدموا دعماً واضحاً للإمبراطورية على هذا الصعيد ، علاوة على ذلك فأكثر الشخصيات في الدولة نفوذاً ، طلعت باشا ، الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية ، كان من أصل ماسوني عريق .

وجأة ، أيقظ الباشا من سهوته هذه ، صوت الحسنة الرقيق وهي تقول : لقد سهوتم كثيراً يا سعادة الباشا ، من يدري بأي أمور الحرب والدولة كنتم تفكرون ؟

لم يعط الباشا اجابة لسؤالها هذا ، ولكنه بادها سؤالاً بسؤال قائلاً : حسناً قولي لي . ما هو عملك يا آنسة سارة ؟ هل هناك مشكلات في عملك وحياتك ؟

- أنا أحب الطبيعة كثيراً يا سيدي ، ومنذ قدومي إلى فلسطين ، انشغلت كثيراً بالطبيعة ، إن شغفي بعلم الطبيعة كبير . لعلك تستغرب إن قلت لك أن النباتات الموجودة في شواطئ فلسطين لاتشبه أبداً نباتات شواطئ روسيا . إنها مختلفة جداً عنها ، وأغنى منها بكثير وفيها حياة متنوعة . إني أعمل مع استاذي أهارون . وهو عالم طبيعة كبير وله دراسات ومؤلفات في هذا الموضوع ، حتى أن بعض دور النشر قد استعانت بمؤلفاته وأدرجتها في صفحات موسوعاتها . مثلاً ، لقد كان استاذي أهارون أول من

اكتشف اللوز البري وعمل على زراعته في مختلف أرجاء العالم وإني حالياً بصدد اعداد دراسة جديدة حول هذا الموضوع وهذا سيحسن من أنواع النباتات المزروعة . وإذا توصلنا إلى نتائج حسنة فإن مردود ذلك سينعكس على الزراعة ووفرته في وطننا أيضاً .

قدر العلم

يهدف الاطالة في هذا الموضوع وجعل أسباب للحديث ، أفاضت الحسناء وبصوت رقيق ومميز بالحديث عن أمور كثيرة تتعلق بدراستها ، مما أشار مشاعر الباشا وأفقده سيطرته على تفكيره ، فظل مشدوداً لحديثها يراقبها ويعن النظر إليها ... إلا أن هناك أمراً مازال يشغل باله : فنذ قرابة عشرة دقائق كانت هذه العالمة ترقص في الحديقة وما من أحد يشك بكونها راقصة محترفة ، فهل يُعقل أن تكون صاحبة هذا الرقص الرائع ، عالمة بهذا القدر من الثقافة والمعرفة ؟

ولكي يبدد شكوكه ويعيد الاتزان إلى نفسه ، وجه الباشا سؤالاً آخر لسارة ، قائلاً :

الحق يقال ، إنه إلى جانب جمالك المادي جمال روحي باهر قد أعجبنى..
قولي لي إذاً ، إلى جانب معرفتك العلمية هذه ، هل توصلت مع أخيك العالم إلى اكتشاف شيء جديد ما ؟

سارة تزددان تأقلاً (تنفس الصعداء)

مع استمرار هذه المحادثة ، استطاعت سارة أن تنفس الصعداء بل تأخذ راحتها على أكل وجه ، فأجابت عن سؤاله ، وهي تمسح بلسانها شفاهها الحمراء وبحركة غنيج ودلال قالت :
سوف أحدثك عن اكتشافاتي ، على ألا تغضب مني .

- أغضب منك ؟ لم أغضب ؟ هيا قل لي ، لقد أثرت فضولي ،
فأجابت الصبية قائلةً :

يا سعادة الباشا ، أنا اكتشفتكم ، ألا يكفي هذا ؟ وهل هذا بشرف
قليلى لي ؟ حتى إنكم لستم كتلك المكتشفات التي تدرج في الموسوعات ، إنكم
أحدى المكتشفات التاريخية ، ولا يمكن للفت التاريخ أن تضمكم بين صفحاتها
لعظمة وعلو شأنكم . أنتم لستم مجرد وزير بحرية الإمبراطورية العثمانية ، ولا
حاكم الأراضي العربية ، ولا قائد الجيش الرابع إنكم أصحاب ذوق معنوي
ومادي ، ووقت ما تشاؤون أنتم قادرون على بسط إمبراطورية عظيمة على
كافة هذه المنطقة كما فعل في مصر محمد علي باشا . وسوف يرحب العالم بأسره
بهذه الإمبراطورية العظيمة . وإني واثقة مثل كل الآخرين ، من أن
باستطاعتكم تحقيق ذلك . إن الله قد أعطاكم أشكالاً عديدة من المزايا
والصفات ، ولقد اكتشفت فيكم القائد الجبار والمتمكن ، وفي الوقت نفسه ،
الإنسان المليء بالرحمة والرفقة والانسانية قولوا لي أرجوكم هل نال شرف مثل
الاكتشاف إنسان غيري يا سعادة الباشا .

دولة مستقلة

إثر سماع حديث سارة هذا ، كان جمال باشا قد امتلأ قلبه انتعاشاً
وسروراً ، غير أن شيئاً مجهولاً ظل يغص في قلبه وينغص عليه سروره ، حزن
دون مبرر ولا سبب . الحقيقة أن عبارات سارة وحديثها عن محمد علي باشا
وتأسيس إمبراطورية مستقلة على الأراضي العربية ليست بعبارات عادية ،
إن هذه العبارات والأفكار الصادرة عن فتاة مثل سارة ، تشير العجب لما
فيها من الغرابة .

كما أن للموضوع طرفاً آخر ، إن المسؤوليات الحربية الكبيرة كان
يقررها ويتحملها مناصفة أنور باشا وطلعت باشا ، دون الرجوع إلى جمال

باشا الذي لم يكن يكثرث حتى الآن لدور هذين الباشايين . وكانت مشاعر الحقد والحيرة منهما تروج في داخله طوال الوقت. وهذا الأمر لا يعرفه إلا المقربين من جمال باشا . علاوة على أن معظم المعارك على الجبهات المختلفة ، رغم أنها كانت تحقق انتصارات عديدة ، ولكن دون الوصول إلى النصر النهائي .

كان أنور باشا ، حليف الألمان الأول ، يتصرف ويتخذ القرارات الحربية بمفرده دون استشارة من حوله ، مما يؤدي به إلى ارتكاب أخطاء متكررة ، وكان طلعت باشا من جهة أخرى مغموراً بالتurf هم دائماً التذمر من جمال باشا ونقد سياسته وقراراته .

أما السلطان محمد رشاد ، ذو القلب الطيب المحب لوطنه من الصميم ، الذي فقد كل الأحاسيس الانسانية نتيجة قضائه في السجون عدة سنين طويلة ، هذا السلطان العجوز مازال يترأس حركة (الاتحاد والترقي) منذ أن ترك سريه الخشبي في السجن ، لذا لا أمل من هذا العجوز في أن يقوم بحركة جديدة ، ولا جدوى من انتظار مثل هذا الأمر منه .

أما جمال باشا ، ذلك القائد المحب لوطنه ، فلقد كان بعيداً عن كل هذا ، بل كان على العكس ، كثير التذمر من أوضاع هؤلاء الباشوات والسلطان العجوز . وكان جمال باشا يشكو هذا الأمر مراراً للمقربين إليه ، الذين لم يتورعوا عن نصحه باستلام زمام الأمور بمفرده ، وترأس حزب الترقي بنفسه ، حتى أنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيوصونه بتولي الحكم بمفرده .

فبعد أن تولى جمال باشا منصب الوالي على سوريا ، قام بعض أصدقائه والمقربين إليه بنصحه لاستلام الحكم بمفرده ، غير أنه لم يكن يكثرث لهذه النصائح من أصدقائه ولم يكن يعطيها الأهمية الكافية .

ولكن إقامة الدولة المستقلة في شبه الجزيرة العربية كانت فكرة جديدة عندما طرحت عليه من قبل سارة ! .

حادثة غير متوقعة

لم يكن هذا التفكير غريباً من نوعه . فاقطع جزء من الوطن لإنقاذه يعتبر ضرباً من الوطنية والحفاظة على مصلحة الوطن . وهذه الفكرة بالذات كانت تجول في مخيلة جمال باشا منذ زمن بعيد . إنه ، وحسب تصوره ، الرجل المثالي والحوّل بإنجاز مثل هذه المهمة الوطنية لإنقاذ البلاد ، غير أنه كان يعتبر نفسه مثالياً فقط وليس رجل الحدث . لقد كان يعتبر هذه الأحداث ، لا مكان لها ولا يضعها في الحسبان ، لذلك لم يكن يعطيها الأهمية الكافية في حياته العملية . إن مهمته الأساسية هي انقاذ الوطن من هذه الورطة ، والمهمة الملقة على عاتقه حالياً إعادة البلاد إلى استقرارها . هكذا كان يرى الحقائق ، ولم يكن يعتبر ماعداها سوى أشياء تثير غروره لأكثر . وهذا ما كان يجعله يسكت على كل هذه المسائل ولايتدخل بها . إن كلمات هذه الفتاة الموسوية الجميلة في هذه الأمسية الساحرة من ليالي لبنان الهادئة في ربوع بيروت الرائعة تجعل النفس تنشرح وتشعر بنشوة من السعادة لامثيل لها .

فند قليل ، وكانت نشوة عرق زحلة مازالت تتغلغل في عروقه ودماعه ، ورغبة منه في عدم أخذ كلام هذه الحسناء على محمل الجد ، أدار الباشا الحديث مرحاً وهزلاً فأخذ وجه الفتاة بين يديه ولكنه ما لبث أن تراجع قائلاً : ما أنت إلا ساحرة يا سارة .

عند سماعها هذا السؤال بدت كن أصابته صاعقة فأجابته قائلة : ولماذا أكون ساحرة ياسعادة الباشا ؟ هل تعديت حدودي من خلال محادثتي معكم أم ارتكبت خطأ بحكمكم ؟

أول رعشة حب جميلة

فطّيب جمال باشا خاطرها وقال لها :

- كلا ، كلا ، أي خطأ تقولين عنه ؟ على العكس إن حديثك هذا جعلني مسروراً جداً بل أنا محظوظ لسامع مثل هذا الحديث .
- آه ، أشكرك كثيراً يا سيدي الجنرال .
- أين تقيمين في بيروت ، هذه الليلة مثلاً أين ستكونين ؟
وكان رد الفتاة محيراً إذ قالت له :
- حيثما يأمرني سعادة الباشا بالبقاء ، أبقى ، وكما قلت لكم منذ قليل ، في أول لقائنا ، إن كنتم تقبلوني خادمة متواضعة لكم .
كان لهذا الرد أثر عميق في نفس الباشا ، حرك في عروقه نشوة عميقة ، حتى أن قلبه الذي تملؤه العظمة والقوة ، أصبح قلب عاشق مليء بالأحاسيس والمشاعر الرقيقة .
لم تكن الفتاة وهي تقول كلماتها تحملها على محمل الجد ، ولكنها كانت تقصد أن تجعله يشعر بأحاسيس مرهفة .
فنظر إليها الباشا نظرات ملؤها الرغبة والحب . وكانت السيدة ليندا بعيدة عنهما ولكنها لم تغفل عن سماع محادثة ضيفها ومدعوها . فناداها جمال باشا ، وتقدمت السيدة ليندا على رؤوس أصابع قدميها ووقفت أمامه .

رقيقة برقة الورد

- سيدة ليندا ، أشكرك جداً ، لقد حملتك عناء ومشقة استضافتي ، فتكرمت وأقمت هذه الحفلة بشكل رائع ، وفوق ذلك عرفتني بالآنسة سارة الرقيقة برقة الورد ، وإني جداً شاكراً لك هذا ، كانت سارة في تلك الأثناء ، وكأنها لم تكن تسمع ما يدور من حديث بين جمال باشا والسيدة ليندا ، ترقب بريق موج البحر الذي يتلألأ تحت ضوء القمر .
فانحنى جمال باشا واقترب من أذن السيدة ليندا صاحبة المنزل وقال لها :

- قولي لي بحق الله ، أين وجدت هذه الوردة الرقيقة .
- لقد تعرفت على ابن أختي ألفريد ، وهو الذي أحضرها إلى هذا
الحفل .

- ألفريد ... ؟ آه من ألفريد هذا ؟ ... هل هو هنا ؟ هلا ناديته لي
من فضلك ؟

فرافق الباشا السيدة ليندا متبادلاً معها حديثاً طريفاً . وبقيت
سارة في الشرفة مستسلمة لأحلامها ، كان الجنرال يريد معرفة المزيد عن
سارة ، وهذا ما دعاه لمرافقة السيدة ليندا إلى صالون المنزل حيث يسهر
المدعوون .

أحمرت وجنتا الشاب

ولم تمض دقيقتان حتى تم إحضار الشاب ألفريد إلى جمال باشا ، والذي
كان يتمتع بهذه الليلة الجميلة وسط الحديقة ، فعندما بلغوه بأن الباشا يود
رؤيته ، أسرع يصعد الدرج أربعاً أربعاً ، حتى وصل أمام الباشا وقال له :
- لقد طلبت رؤيتي يا سعادة الباشا .

فابتسم الباشا له ، ثم مسح حاجبيه ولحيته وقال له :
- ألفريد ، متى ستتخلي عن هذه الحركات الصبانية ، قل لي .
واحمرت وجنتا الشاب ، الذي ازداد خجلاً وحرماً .

- أنا آسف يا سعادة الباشا وأرجو أن لا أكون قد ارتكبت حماقة ما .
- كلا يا عزيزي ، لا توجد حماقة ولا غيرها ، أصلاً أنت لست الذي
يرتكب حماقات ، إنك شاب وسيم وهذا ما يجعل الفتيات يتهافتون عليك
ويتشوقون للتعرف عليك ، ولكنهن رغم ملاحظتهن لك ، لا يستطعن ادراكك
والحصول عليك .

- رعاك الله يا سعادة الباشا ، لو أنني جدلاً وافقت على ما ذكرته

بحق الفتيات بشأني ، فإنني أقبل منك وصفي بالشاب الذي .
- كلا ، لقد كنت ذكياً فعلاً يا ألفريد . ولكن لا أهمية لذلك ، قل لي
الآن ... هذه الفتاة الجميلة سارة ، أين وجدتتها ؟

استعراض المفاتن

وتبيّن للشباب كل شيء ، وعرف سبب استدعاء الباشا له ،
فالأمريتيعلق بسارة التي يبدو أنها استطاعت أن تأسره هو الآخر . قال في
نفسه : عل كل حال ما من انسان، عند رؤيته لهذه الفتاة ، التي هي عبارة
عن كتلة من المفاتن والجمال ، إلا ووقع في هواها وليس من السهل عليه بعد
ذلك ، أن يبتعد عنها . فقال للباشا :

- سعادة الباشا ، بادىء الأمر أود قول هذا لكم ، لاتوجد أية علاقة
جدية بيني وبين سارة ، فهي صديقة نور الدين بك .

- نور الدين بك ، حسناً ، من هو هذا النور الدين بك ؟

- نور الدين بك ، هو بك وباشا أيضاً يساعد الباشا .

- نعم ، تذكرت ، اشكرك على ذلك .

فصافه الشاب ، وابتعد عنه بلباقة واحترام .

فاقترب الباشا من السيدة ليندا ، التي كانت بانتظار أوامره ، وقال
لها : سيدتي ، رغم استتاعي بروعة الطبيعة وهذه الليلة الساحرة فإنني أود
التوجه إلى الكوخ الموجود في حديقته والنوم فيه ، ترى هل هذا ممكن .

- آه يا سعادة الباشا ، إنكم في غاية اللطف ، إنه لشرف عظيم لنا أن
نلبي لكم طلبكم ، لو سمحتم ، سأذهب لتهيئة الكوخ وجعله لائقاً لمقامكم .
- أشكرك جداً .

الجنرال في ذروة النشوة

لقد سبق لجمال باشا أن مكث عدة مرات في كوخ السيد ميشيل سرسق . فلم يكن يأوي إلى أي فندق عند وصوله إلى بيروت قادماً من الشام ، وكان ينتقل منه أحياناً إلى منزل عزمي بك مدير شرطة استنبول المشهور ومناصر الاتحاديين .

وبعد أن توارت السيدة ليندا عن الأنظار ، عاد جمال باشا إلى الشرفة ، ووقفت سارة على قدميها احتراماً ، عندما شاهدته قادماً .
- آنسة سارة ، هل تقبلين دعوتي لك بأن تكوني ضيفتي الليلة في كوخ الحديقة .

- إنه لشرف عظيم أن أُلبي طلبكم هذا يا سعادة الباشا .
كان شعر الباشا منكوشاً والتوتر واضحاً عليه وهو يهمس بصوت خافت :
- إني ذاهب الآن ، سوف يرافقك الخدم إلى هناك .

تسارع المسرات

نزل قائد الجيش الرابع الدرج برفقة حاشيته ، فتكلم معهم وأعطاهم أوامره . كانت الحديقة تعج بالمدعوين المستمتعين بليلتهم والكل قد بلغ نشوة الخمر ، فركب الباشا سيارته وابتعد عن المنزل وسط هتاف الضيوف وصيحاتهم :

يعيش جمال باشا ...

يعيش جمال باشا ...

يحيا جمال باشا ...

فرغ الباشا يده الحاملة لعصاه وحيا الحضور ، واتجه نحو الكوخ الذي لايبعد كثيراً عن المنزل .

كانت السيدة ليندا كعادتها دائماً ، قد أعدت الكوخ وجعلته في أحسن مظهر . فدخل الباشا إلى غرفة النوم ، وألقى نظرة عليها ثم خرج إلى الشرفة الصغيرة وأشار للخدم بيده أن يحضروا له كأساً من الخمر . كانت روحه تائمة وشبه مخدرة ، ومضى وهو يحتسي شرابه يرتب أفكاره : غداً سيجتمع مع أحد كبار الشخصيات الألمانية لبحث موضوع هام وضروري ، فالمساعي الأولية بشأن قناة السويس لم تكن قد أسفرت عن نتائج مرضية ولا بد من إعداد أمثل للمساعي القادمة ، إلى جانب كل هذه الاهتمامات ثمة أمور عديدة كانت تنتظر منه دراستها وإقرارها ...

عند استعراضه لكل هذه المواضيع ، شعر أنها أصبحت من الماضي ، واعدادته بذلك إلى الأيام الأولى للحرب والانتصارات التي تحققت ، ثم توالى أمامه الأحداث بخطى سريعة ، بدءاً من اندلاع الحرب العالمية، مروراً بتورط ومشاركة الإمبراطورية العثمانية في هذه الحرب وإعلان التمرد ، وكأنها شريط سينمائي يعرض أمامه ، ثم تداخلت أفكاره وذكرياته ، فتذكر طلعت باشا وأنور باشا اللذين ورطا الإمبراطورية في هذه الحرب دون اعلامه فاشتعلت نار الغيظ في نفسه .

ودارت في رأسه عدة تساؤلات دون أن يجد لها جواباً مقنعاً . ولكن ما حدث قد حدث وسوف أستمّر في تمثيل دور المشالي وأحتفظ بصداقتي لها حتى النهاية ، قالها في نفسه ، وقرر أن يضحي بمشاعره هذه لخدمة وانقاذ وطنه لفرط محبته له .

الكاس الفارغة

دفع الباشا كأسه الفارغ جانباً ، ووقف وقفة رجل مؤمن عند مقدمة الشرفة رافعاً كفيه إلى السماء وقال :
اللهم ، يا كريم ويا جبار ، احم وطننا من أعدائه ، وأخرجه سالماً

منتصراً من هذه الحرب ، الجهاد منا والنصر منك ...
وتوقف قليلاً ثم تابع يقول :
امنح يارب العالمين قليلاً من العقل لأنور وطلعت ...
الجهاد علينا والنصر من عندك ... فتردد في اكال دعائه لها ، حيث لم
يجد ضرورة لذلك ، وتابع بصوت منخفض دعاءه حتى انتهى منه .
كان الليل قد انتصف ، فدخل الغرفة وخلع سترته العسكرية
وأعطاهما للخدم ، متسائلاً
- من المفروض أن يأتي ضيفي ، هل قدم ضيفي ؟
- لقد حضر يا سعادة الباشا ودخل غرفة النوم .

عادة الخدم الصفار

لقد جرت العادة في مثل هذه الظروف ، في سوريا ولبنان أن يقول
الخدام الصغير للرجل الزبون ، « الماء جاهز » فيصبح مفهوماً لدى الرجل
السائل أن مضيفته جاهزة لاستقباله. استعاد جمال باشا هيئته ومشى بضعة
خطوات باتجاه غرفة النوم وفتح الباب . لقد كانت سارة ممتدة ، شبه
عارية، فوق السرير المزخرف والمغطى بغطاء مزين ناعم ، مستعدة كما وعدت
لتلبية كل أوامر سيدها الباشا .
لقد كان التوتر واضحاً على شفاه الشابة الجميلة ، أما القائد الرابط
الجأش ، فرغم قوته ، كان يشعر بشيء من الرجفة في يديه ، فأوى إلى الفراش
وأَمْضيا تلك الليلة سوياً .
في ذلك اليوم ، نهض الباشا باكراً ، وجلس مع سارة وجهاً لوجه
يتناولان القهوة الصباحية ، كانت سارة حزينة بعض الشيء ، تريد النظر في
عيون الباشا ، وكأنها تستجديه الشفقة والرحمة .
وبعد أن تأملها الباشا لفترة من الوقت سألها قائلاً :

- كم يوماً ستبقين في بيروت ؟
- المدة التي يسمح بها سعادة الباشا .
- سأعود إلى هنا في غضون ثلاثة أيام ...

سارة كانت تبكي

كانت سارة صامتة ، غير أنها لم تستطع أن تمنع دمعها من أن يسيل على وجنتيها ثم يسقط على غطاء الطاولة الأبيض .

- لم تبكين يا سارة ؟ سأل الباشا

فرفعت سارة رأسها قليلاً وأجابته قائلةً :

- لاشيء ، إني أبكي من شدة الفرح يا سعادة الباشا كنت أسمعهم يقولون إن الفرح الشديد يدفع إلى البكاء ، لكنني لم أصدقهم ، أما اليوم فأجد رغبة شديدة في البكاء من شدة الفرح ومن فرط سعادتي .

يوه ! قال الباشا ، أنا لأحب البكاء أبداً ، ربما لأنني رجل قاسٍ ،

لأعرف للبكاء معنى .

- كلا ، أجابت سارة معارضة كلامه ، أنت قاس ؟ كلا ... كلا ...

أنت أرق إنسان في هذه الدنيا ، إن لديك أحقَّ قلب يحمله إنسان . إنك رجل يحب وطنه كثيراً إنك رجل عسكري ممتاز .

لقد شنقت العديد من الرجال

تأملها الباشا قليلاً ثم قال لها بعد أن أخذ نفساً عميقاً ، وأمعن النظر بعينييه في زاوية الغرفة دون أن يحركهما :

« سارة ، لقد شنقت العديد من الرجال » .

فقاطعت سارة قائلةً :

إن من خانوك ، هم خونة الوطن ، ولا بد من شنقهم ، وهذا ليس

قسوة ولا عدم رحمة ، إنه وطنية مجد ذاته .
عند سماعه هذه الأقوال من سارة ، أبدى الباشا ارتياحه وطمأنينته .
لقد تعرض مؤخراً لانتقادات عديدة ، بعد أن شق في بيروت والشام بعض
الرجال من الخونة .
ولكن لا ... لا ... لقد كان محقاً في شنقهم . إنهم يستحقون ذلك لأنهم
كانوا خونة . وليس ما يدعوه للقلق بهذا الشأن هكذا كان يفكر الباشا في
نفسه . لقد كانوا عرباً ، ولكنهم كانوا مسلمين وما كان يجب عليهم أن يخونوا
الدولة العثمانية .

هل يمكن البقاء هنا ثلاثة أيام ؟

ونهض جمال باشا فجأة قائلاً :
- سوف نتحدث في هذا الموضوع لاحقاً ، إني ذاهب ولن أعود حتى
المساء إن كنتِ ترغبين الذهاب إلى أي مكان ، فيمكنك استخدام سيارتي
لإيصالك إلى المكان الذي ترغبين الذهاب إليه .
وكانت سارة قد نهضت أيضاً ، وسألته قائلة :
- إن كنت لأسبب ازعاجاً لسعادة الباشا ، هل يمكنني البقاء هنا
ثلاثة أيام ؟
- طبعاً - أجاب الباشا - إن كان لا يضايقك ، يمكنك البقاء ثم تابع
يقول سائلاً أياها :

لكن ، ألا ترغبين بالذهاب إلى أي مكان ؟
فأجابته قائلة : كلا ... يا سعادة الباشا . سوف أنتظركم وسط هذه
الجدران الأربعة .

- حسناً يا سارة ، أجاب الباشا ، إن كانت تلك هي رغبتك فأنتي في
بيتك ، تصرفي كما تشائين . وقبّل الباشا سارة من وجنتيها ثم ركب سيارته

ومضى مبتعداً عن الكوخ .

توجه جمال باشا مباشرة لحضور اجتماعه مع الشخصية الألمانية المهمة، في محادثات استمرت حتى المساء . ثم قام بإعداد برنامج رحلته إلى قناة السويس ووضع الخطط اللازمة للإمداد والتموين أثناء غزو بور سعيد وغزة وسيناء مع مطالعة الوثائق المتعلقة بكيفية إصدار الأوامر للقيادات المشتركة التركية والألمانية الموجودة في القدس وحيفا .

لقد كان ضرورياً دراسة وضع قناة السويس على ضوء الاتفاق الثلاثي الألماني - النمساوي - الإيطالي مع القادة في هذه البلاد وخاصة مع رئيس القادة الجنرال سيليندوف .

وكان أنور باشا ، يبحث الأمر نفسه مع المارشال الألماني ليمان فون ساندروز والمارشال فالكن .

وكان قد سبق للمارشال فان دير جولش أن بحث هذا الموضوع مع رئيس المجلس العثماني فوزي تشاقاق . ومع بداية هذه المباحثات كانت بلغاريا ورومانيا ، بناءً على الاتفاق المشترك المعقود بينهما ، تعدان لانزال ضربة مؤلمة للروس في أوكرانيا ، محققة خسائر فادحة بالأرواح والعتاد .

وفي هذه الأثناء ، كان جمال باشا يعمل ، بالتنسيق مع المجلس العثماني ، على تحقيق تنفيذ هذه الخطة وهذه الضربة على أرض الواقع .

فبعد ثلاثة أيام من اللقاءات والمباحثات المكثفة ، تم اتخاذ قرار بذهاب جمال باشا إلى القدس ، وطلب من كافة قواد الجيوش العودة إلى رأس أعمالهم ، وملازمة جيوشهم كل حسب منطقته .

خلال هذه الأيام الثلاثة كان جمال باشا يتردد ليلاً إلى الكوخ في حديقة منزل السيد سرسق ويقضي ليلته فيه بصحبة سارة التي كانت تنتظره بفارغ الصبر . وفي إحدى الليالي جلس جمال باشا وجهاً لوجه مع سارة يحتسي كأسه المليء بالشراب ، وبدون أن يعير انتباهاً لكلامه لفظ . عبارة

« هؤلاء الحمقى » وهو يتحدث عن الالمان وكأنه يريد التعبير عن استيائه من ورود كلمة الالمان على لسانه .

جراحة سارة

كانت لهذه الكلمة معانٍ كثيرة عند سارة ، إذ أنها كانت تعرف مسبقاً عدم ارتياح جمال باشا للالمان واشتمازه منهم . ولكن لفظ هذه الكلمة صراحة من قبل الباشا ، أعطى لسارة الجراحة في الحديث معه حول هذه النقطة بالذات فقالت له :

- سيدي الباشا ، لقد تحولتُ في كل أرجاء أوروبا . في انكلترا ، وفرنسا ، ومكثت مدة طويلة في ألمانيا . ولما كنت أتكلم الفرنسية والالمانية والايطالية والعبرية والعربية بشكل جيد جداً . فقد استطعت التعرف على هذه الشعوب عن كثب بفضل معرفتي بالتحدث بلغتهم . ولكنني ، والحق يقال ، لم أرَ أحق وأقبح وأكثر فظاظة من الشعب الالمانى . وأنكم بلا شك أعلم مني بذلك ، وتعرفونهم أكثر مني ، فلقد مكثتُ مدة لا بأس بها في مدينة برلين بالجامعة ، تعرفت وعملت مع عدد من الاساتذة والبروفسورية الالمان ، ولاحظت أن حتى علمهم غليظ وسمح فهم يؤمنون بأنه لا يوجد شعب على وجه الأرض ، سوى الشعب الالمانى .

جمال باشا يضحك باسى وحرقة

فهز جمال باشا رأسه وقال : صدقتِ يا سارة .

فتابعت سارة قائلة :

سعادة الباشا ، رغم علمي بأنني أتجاوز حدودي ولكنني سأقول لك شيئاً أرجو سماعه مني :

هل تعتقد بأنه ، بعد فوز الالمان في هذه الحرب ، ستسلم

الإمبراطورية العثمانية من شرهم ؟
إن قناعاتي هي أن الالمان ، بمجرد أن تلوح لهم بوادر الانتصار ،
فسيعضرون الدولة العثمانية أول ما يضرئون .
إن حلم الالمان هو إقامة إمبراطورية المانية من بحر الشمال وحتى المحيط
الهندي ، ولما كانت الإمبراطورية العثمانية موجودة في بعض أجزاء هذه المنطقة
فسيعاملها الالمان وكأنها إحدى مستعمراتهم .
ضحك جمال باشا ضحكة ملؤها الأسى والحُرقة :
- من أين لك كل هذه المعلومات يا سارة ، هل هذه المعلومات هي
جزء من علم النبات الذي تدرسينه ؟
فاحمر وجه سارة وقالت في نفسها ، هل يمكن أن يكون الباشا قد شك
في أمر ما صبي ، أم أنني تعديت حدودي وتماديت في كلامي ؟

لقد كانت لنا بليون أيضاً أحلامه

وجاء صوت جمال باشا ليهدى - من توتر أعصاب سارة ،
حين قال لها :
سارة يا صغيرتي ... إن جميع الشعوب وجميع القادة يعيشون في
أحلام كبيرة . فـنـابليون أيضاً كانت له أحلامه ، فلا عجب في الأمر . وفي
أيامنا هذه ، أعتقد أن الالمان وحدهم يحلمون ؟ أليست لنا أحلامنا
أيضاً ؟ إن حلم والينا أنور باشا يبدأ من بلاد البلقان وحتى آسيا الوسطى ،
وحلمه يغطي حتى الأراضي الألمانية .
فما بالك بالأحلام الانكليزية ؟ انكلترا التي لا تكاد ترى نور الشمس
تطمع وتحلم في أن تصل إلى بلاد الهند . أما حلم فرنسا فليس أقل من حلم
الانكليز . وكأنهم لم يكتفوا بأفريقيا والهند الصينية ، فهم الآن يحلمون بموطىء
قدم لهم في الشرق الأوسط ، في سوريا ولبنان تحديداً .

إنني أحاول جاهداً إفهام هؤلاء الحمقى العرب ، هؤلاء الجهّـل ، أن لاينخدعوا بمخططات الفرنسيين والانكليز ، فهؤلاء لايعملون من أجل استقلالهم بل يريدون استعمارهم واستغلالهم وجعلهم دى لهم .
كلهم وطنيون ، كلهم اصلاحيون والكل لا يفهمني .
لقد وعدتهم ، بأن أجري بعد انتهاء هذه الحرب ، اصلاحاً كبيراً لهم ، وسوف أمنحهم السلطات ولكن للأسف كل يوم أكتشف خيانة جديدة منهم ضد الإمبراطورية .

يجب عليهم أن يفهموني

قامت سارة بملء كأس جمال باشا ثم قالت له :
- لاتقلق يا سعادة الباشا ، فهذه أمور تزول بإذن الله المهم ، أنكم قائد ممتاز ، والعرب يرتعشون منكم ، حتى في غيابكم . فقال الباشا :
إن خوفهم مني ليس كافياً ، عليهم أن يطيعوني ويفهموني .
فأجابت سارة : سعادة الباشا ، أليس ممكناً أن يكون لأمير مكة الشريف حسين الذي يتمتع بطاعة العرب له ، ضلعٌ في موضوع خيانة العرب هذه ؟

- لأعتقد ذلك ، أجاب الباشا ، إذ أن التقدير الذي تمنحه الدولة العثمانية لمدينة مقدسة مثل مكة وأميرها ، يستبعد مثل هذا الاحتمال .
فالشريف حسين يبدي لنا دائماً الحب والاحترام .
كما أن ابنه فيصل موجود حالياً بالشام في ضيافتي . لأعتقد بأن يأتينا ضرر من جهتهم .

ما رأيكم بنا ؟

- ما رأيكم بالموسويين - يا سعادة الباشا ؟ سألت سارة .

- بعد اليوم عندما أذكر الموسويين ، فلن يأتي إلى ذهني سوى سارة .
- أشكرك يا سعادة الباشا ، لأبد انكم تقدرون وتوقنون مدى شوق واجتهاد الموسويين لكسب صداقة وثقة الإمبراطورية العثمانية .
- حقاً ، أجاب الباشا ، إنكم شعب تحبون العيش بمفردكم دون التدخل بأمور غيركم . ولكن لا يمكنني أن أنكر ان هناك من يدفعكم للتحرك .
فركتكم الصهيونية ورغبتها في انشاء دولة يهودية على أراضي الإمبراطورية العثمانية أمر يقلقني ، هل تعتقدين بأن هذا أمر مقبول ؟
ثم تمتم قائلاً : أناس يعيشون منذ آلاف السنين بدون وطن ولا دولة يريدون أن يأتوا ويقيموا دولة يهودية ! أليس هذا أيضاً حلمًا بحد ذاته ، ...
إن اليهود اليوم يقيمون في الأراضي العثمانية الشاسعة ويعيشون في كنفها ويعملون في التجارة ويكسبون أموالاً طائلة !
هل تعتقدين أنهم مستعدون للقدوم إلى فلسطين لبناء دولة لهم وترك تجارتهم هذه ؟ اليهودي ليس رجل حرب ، إنه رجل تجارة .
- إنك تقول الحق يا سعادة الباشا .
قاطع صبي محادثتهما في هذه الليلة الصافية والجميلة ، برسالة يحملها للباشا مفادها أن القائد كنعان بك يودّ مقابلته .
نزل الباشا إلى الطابق السفلي ، فياه كنعان بك الذي كان بانتظاره .
- خيراً إن شاء الله يا يوزباشي ، قال الباشا .
فأجابه : سيدي الباشا ، لقد جلبت لكم تقريراً عن سارة ، بناءً على أوامركم :
قبل يوم ، كان الباشا قد طلب من كنعان بك ، معلومات حول سارة . وبما أن التحقيقات قد انتهت ، فقد قام كنعان بك بإعداد التقرير خطياً للباشا .
هل هناك شيء مهم فيه ، يا يوزباشي ؟

- كلا يا سعادة الباشا ، ولكني أود أن ألفت نظركم إلى نقطتين فقط .
- وما هما ، سأل الباشا
- لقد كتبت لكم ذلك في تقريري ، يا سيدي الباشا .
- فأخذ الباشا المجلد المحتوم من كنعان بك ، ثم قال له :
- حسناً يا كنعان بك ، أشكرك كثيراً .
- ففيما كنعان بك الباشا ، ثم خرج بغطى موزونة إلى خارج الكوخ .
- وتوجه جمال باشا مباشرة إلى مكتبه وهناك فتح المجلد .

التقرير لصالح سارة

كان التقرير عن سارة بالشكل التالي :

سعادة جمال باشا

قائد الجيش الرابع

بناءً على أوامركم الشفهية ، فلقد أجرينا التحريات اللازمة عن سارة أرونسون وعائلتها ، والمعلومات المذكورة أدناه مأخوذة من دائرة الأحوال الشخصية والمدنية الحكومية .

والد سارة السيد جاك أرونسون قدم إلى منطقة زمارين في فلسطين واستقر فيها عام ١٨٨٩ .

للسيد جاك أرونسون خمسة أولاد يستحقون كل دعم وتقدير من الدولة العثمانية وهم : آهارون أرونسون ولد عام ١٨٨٦ و الكسي أرونسون ١٨٨٨ وسام أرونسون ١٨٩١ وسارة أرونسون ١٨٩٣ وريبيكا أرونسون ١٨٩٧ .

أكبرهم سنًا ، الشاب آهارون أرونسون ، هو عالم نبات ، ليس في فلسطين فحسب بل على الصعيد العالمي أيضاً . فهو أول مكتشف لوسائل زيادة انتاج الحبوب على اختلاف أنواعها . ويملك مختبراً واسعاً وكبيراً في منطقة عتليت في فلسطين .

إن عائلة أرونسون تتمتع باحترام وحب الكثير من العائلات ، مسلمة

كانت أو مسيحية أو يهودية . وحتى الساعة، لم تسجل لهم أية نقطة سيئة في سلوكهم العام ، سوى أنه مع اندلاع الحرب اختفى آهارون والكسي من البلاد، والأغلب أنهما رحلا إلى انكلترا ، حسب المعلومات التي بحوزتنا .

وظيفة في الجيش الانكليزي

قرأ جمال باشا التقرير في لحظات ولم يجد شيئاً ملفتاً للنظر أو مشيراً للريبة ، فاطمأن إلى أنه يمكنه الاعتماد على سارة ، ولا يمكن أن يصيبه أي ضرر منها . أصلاً هي لاتشبه فتاة مؤذية ، فهي آية الطيب ، آية الجمال ، آية البراءة .

وتذكر جمال باشا ما قاله كنعان بك، بأن هناك نقطتين أشار إليهما في تقريره ، لابد أنه كان يقصد موضوع أخوي سارة آهارون والكسي ، اللذين انضما للعمل في الجيش الانكليزي . لكن الأمر ليس بتلك الخطورة التي أعتقدها فالعديد من الشبان المسلمين انضموا للعمل في صفوف الجيش الانكليزي ، وليس دخول شابين موسويين إلى الجيش الانكليزي موضع اهتمام وجدل .

لدي سؤال لك

رمى جمال باشا التقرير على طاولة مكتبه ، ثم ذهب إلى غرفة الطعام حيث كانت سارة جالسة فقال لها :

« أرجو أن تعذريني ، لقد تركتك وحدك قليلاً .

- أرجوك يا سيدي الباشا ، فأنا لاأريد أن أكون مانعاً في طريق عملكم . أجابت سارة .

فقال الباشا : سارة ، لدي سؤال لك .

- تفضلوا يا سعادة الباشا ، أنا رهن اشارتكم .

- إن لك أخوين الكسي وآهارون ، أين هما الآن ؟

- إنها في انكلترا يا سعادة الباشا ، بالتحديد في مدينة لندن ،
فأهارون يتابع دراسته في الجامعة أما الكسي ، فهو مدرّس ويقوم حالياً
بدراسات وأبحاث حول الكتاب المقدس وحول الموسوية .

- هل ذهبا قبل الحرب ؟

- كلا يا سعادة الباشا ، فما أن اندلعت الحرب ، حتى رحلا من
البلاد . فلم يكن هناك أفضل من أن يتابعا دراستهما هناك . فهنا ، وبأية
حال ، بلاد حرب .

- حسناً ، لم ترافقيهما يا سارة ؟

- لقد قررت أن أستمّر بأبحائي هنا .

- حسناً جداً ، وهل أنت مرتاحة في أبحاثك هنا ؟

- الحقيقة أنني أتدبر أمري في المختبر الذي تركه أهارون في عتليت
ولكنني لأستطيع الادعاء بأنني مرتاحة في أبحائي .

- لماذا ؟ هل هناك عوائق مالية ؟

- لا ، لا ، أجابت سارة ، بالعكس ، إن الأموال اللازمة لاجراء

أبحائي موجودة بوفرة ، ولكن الأمر يتعلق بموضوع تحصيلي العالمي .

- وهل هناك ما نستطيع أن نفعله بهذا الصدد .

- سيدي الباشا ، لو تكرمتم بمنحي تصريحاً بالتجول في مناطق

محظورة ، لضرورة استمرار أبحائي ، كالسواحل والمناطق المهجورة ، لكي أتمكن
من إتمام دراستي وإقامة تجاربي ، أكون معترفة لكم بالجيل مدى العمر .

سوف تسخر كل التسهيلات

فأجاب الباشا بجدية واضحة :

- طبعاً يا سارة طبعاً ...

يجب أن يعلم الناس الذين يعيشون على هذه الأراضي أن لهم مطلق

الحرية في التجول فيها ، سوف أعمل على إزالة كل العقبات التي تعترض بحثك
العالمي .

- سلمت يا سيدي الباشا . وأنا بدوري سأقوم بتحويل هذه الأراضي
الجرداء إلى ساحة خضراء . وسيجني الناس محصولاً وافراً ويدعون لكم .
- حسناً يا سارة ، قبل سفري غداً إلى القدس ، سأقوم بترتيب ما
يلزم لك ، وسأعد لك كل الأوراق اللازمة لتسهيل عملك واستمرار أبحاثك .
- أشكر يا سعادة الباشا .

جمال باشا مسرور

وأَمْضِينَا تلك الليلة سوية . فلقد مضت ثلاث ليالٍ وجمال باشا برفقة
سارة مسروراً وسعيداً . وكانت سارة تشاركه هذه السعادة . فبجانب سارة ،
كان جمال باشا ينسى مآسي ومضايقات الحرب ، وحماسة الألمان ، وخيانة
العرب ، وانتقادات طلعت له وملاحقة وتدخل أنور في شؤونه .

فكيف يشكر سارة على كل ذلك ؟

فعلاوة على كل ما وجده فيها ، فهي لاتشبه أياً من الفتيات اللواتي
تعرف عليهن . فهي ذكية وشابة وجميلة وغير مؤذية إطلاقاً .
لقد كوّست نفسها للعلم ، إنها إنسانة معصومة .

لو أمكنه لاصطحبها معه غداً صباحاً إلى القدس ، ولكن للأسف ،
ففي مدينة القدس أمور كثيرة يجب القيام بها ، ومن المحتمل أن يقضي ليلته
على الجبهة . فلقد كان عليه أن يزور جبهة سيناء وحيفا وغزة ، وأن يتفقدوها
بكل دقة شبراً شبراً كما كان عليه أن يدرس كل الخطط العسكرية مع قواد
القوات في تلك الجبهات .

- سارة ، قال لها ، سوف يحضر كنعان بك لك كل الأوراق اللازمة
والضرورية لعملك . وأرجوك إذا لزمك أي أمر أن تعلميني بذلك . فيمكنك
مراجعة أي مركز عسكري وتطلعيني على أية عقبات تعترضك ، ويمكنك
العمل بحرية على كافة الأراضي العثمانية دون استثناء .

- سلمت يا سعادة الباشا ، سوف أرحل غداً إلى الشام .
- حسناً ، أجاب الباشا ، يمكنك مقابلة علي فؤاد باشا قائد المنطقة ،

وسوف أعلمه بقدمك ليقوم بمساعدتك وتقديم كافة التسهيلات لك.

الحظ حليف سارة

انحنت سارة أمام عظمة عطاء الباشا ، وشعرت بأنها صغيرة جداً أمامه ، فترقرقت عيناها ، وقبّلت يدي الباشا قائلة :
- سلمت يا سعادة الباشا ، سلمت ...

فسد الباشا شعر سارة للمرة الأخيرة وقبلها من خديها ، ثم رحل .
لقد كانت سارة في أيدٍ أمينة وساهرة . فقبل أن يركب قطاره متجهاً إلى مدينة القدس ، أصدر قائد الجيش الرابع ، وأمره بإعطاء سارة تصريحاً بالتجول في كافة الأراضي العثمانية ، أي سوريا ولبنان وفلسطين بكامل الحرية اللازمة ، فجهزت الأوراق اللازمة لذلك ومن ناحية أخرى قام الباشا بالاتصال مع علي فؤاد باشا وأعطاه التعليمات اللازمة للاستعداد لمقابلة سارة بشكل لائق ومفيد ووضع كل إمكانياته تحت تصرفها .

وفعلاً ، مع حلول ظهر ذلك اليوم ، قدم كنعان بك لزيارة سارة في منزلها حاملاً حقيبتة وبداخلها الأوراق اللازمة لمقابلتها قائلاً :
- آنسة ، بناءً على أوامر سعادة الباشا ، أحضرت لك الأوراق والتصاريج التي طلبتها . غير أنه لم يُذكر فيها أسماء مرافيك ومساعديك في تجوالك . لذلك أرجو التكرم بإملائها .

حب ورعاية أكبر من حب ورعاية الأم

حظيت سارة برعاية من كنعان بك تفوق رعاية والدتها التي ولدتها ، فقالت في نفسها :
كم هم أصفاء وأنقياء هؤلاء الأتراك ، هل يمكن للسوء أن يحصل على كل هذه المساعدة منهم ؟
ودون أن تظهر انفعالها هذا ، ابتسمت لليوزباشي وقالت : اشكرك يا سيد يوزباشي ...

وبعد أن غادر كنعان باشا الكوخ ، وكا اعتادت عند قدومها إلى مدينة بيروت ، توجهت إلى فندق دوتشهيهوف ، فلقد كانت نزيلة فيه قبل قدومها إلى سهرة السيد سرسق لتتزل في ضيافته .
كانت بعض حاجياتها ما زالت موجودة في الفندق الذي كان مقراً للنزلاء الالمان .

ففي كل مساء ، يأتي العديد منهم إليه ، لاحتساء البيرة ، والشامبانيا والويسكي . ويجمع الفقراء طويلاً أمام هذا الفندق ليلتقطوا بقايا ما يرميه الالمان من مأكولات عند خروجهم منه .
ففي هذه الأيام كانت المجاعات تسود البلاد . حتى في الجبهات العسكرية كان بعض الجنود يبحثون عما يأكلونه في كثير من الأحيان . حتى انهم كانوا يتقاسمون أحياناً لحم قط وكأنهم يتقاسمون لحم خروف .

الجوع للآتراك

كان الضباط الالمان ، في فندق دوتشهيهوف ، ينعمون بوفرة الخبز والمأكولات بقدر ما ينعمون بالمشروبات من ويسكي وغيره ، ولم يكونوا يشعرون بأية ضائقة من فقدانها ، وفوق ذلك ، فإنهم كانوا ينعمون حتى الصباح بصحبة الحسنات بليالٍ حاملة ، وبموسيقى ساحرة ، ورقصات ممتعة .
وكان الالمان لم يكونوا في حالة حرب ، فهم يأتون من مختلف الأرجاء ، يملؤون الفندق كل ليلة ويقيمون الحفلات والليالي الملاح بلا رقيب ولا حسيب .
لقد كان لسارة ، العديد من الضباط المعارف ، الذين تلتقي بهم في الفندق ، وتصاحبهم وتتسلى معهم .

فبعد أن جمعت حاجياتها من فندق دوتشهيهوف ، بمساعدة أحد أفراد الشرطة الذي خصصه كنعان بك لخدمتها ، توجهت إلى محطة القطار واشترت تذكرة إلى الشام .

كان في القطار العديد من المدنيين والعسكريين ، وتمكنت سارة من خلال هذا التجمع وخلال رحلتها هذه ، من الوقوف على الأوضاع العسكرية

والمدينة في شرق وغرب البلاد ، كما استطاعت أن تكشف معنويات الجنود وتحركاتهم على امتداد الأراضي العثمانية .

حارة اليهود

نزلت سارة في فندق فيكتوريا عند وصولها إلى الشام ، وكان الفندق مليئاً بأجمل الفتيات اليهوديات في العالم ، اللواتي كن يتسلين مع الضباط الأتراك والألمان ، وكأنهن يساهمن في رفع معنوياتهم بعد عودتهم من جبهات القتال .

وحقيقة الأمر أن هذا التجمع اليهودي لم يكن لولا توافد هؤلاء الضباط الألمان والأتراك إلى هذا الفندق .

من بين الحسنات اليهوديات العاملات في هذا الفندق ، حسناء ، كانت الألسن تتحدث عن جمالها الفتان اسمها سيمون ، لم تكذب تسمع بقدم سارة ، حتى أسرعت بزيارتها .

تبادلت الحسنات حديثاً مطولاً ثم درست الخطة التي تفكران في تنفيذها .

كان عشيق الأنسة سيمون ، ضابط شاب ، من المقربين لقائد الجيش الرابع ، جمال باشا .

المخططات بحوزتها

أطلعت سارة ، الأنسة سيمون ، على الوضع في بيروت ، وعلى كل ما علمت به في طريقها إلى الشام وهي في القطار ، من أحداث وتطورات . ثم سامتها خطط حملة قناة السويس التي استطاعت بمذاقة ومهارة فائقتين أن تحصل على نسخ منها والتي ينوي جمال باشا اقتراحها وتنفيذها بعد أخذ موافقة حكومته ، وعلى الفور ، أخذت سيمون هذه الخطة وأرسلتها إلى متجر المصور كامبياس ، في أول سوق الحميدية .

وفي اليوم نفسه ، كانت التقارير حول تحركات وخطط القوات الأتراك

وتحوي مسائل موت أو حياة ، قد وصلت إلى مركز حيفا في فلسطين ومنه إلى الانكليز .

في هذه الأثناء ، كان جمال باشا يجتمع مع كافة القواد في مدينة القدس ، ويتدارسون خطط حملة السويس بكل دقة وتفصيل ، في حين كانت قيادة الأركان الألمانية مجتمعة مع الضباط النمساويين ، يحرون محادثات مطولة . لقد كان جمال باشا يعتقد أنه بحملة عسكرية واحدة سيتمكن من قذف القوات الفرنسية والانكليزية بعيداً عن قناة السويس ، حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك في تطلعاته ، فلقد كان يفكر في احتلال مصر في وقت قريب بعد هذه الحملة . ذلك لأن سلطان الإمبراطورية العثمانية ، خليفة الاسلام والمسلمين السلطان محمد رشاد ، كان قد أعلن الجهاد للمسلمين . وكان جمال باشا يعتقد بأن المسلمين جميعاً سيلبون نداء الجهاد هذا .

وفي الوقت نفسه ، كان جمال باشا ، مثله مثل أنور وطلعت باشا ، ينتظر بفارغ الصبر قدوم اليوم الذي يهب فيه المسلمون من المشرق والمغرب من مصر ، ضد الانكليز والفرنسيين .

فبتحرك القوات العثمانية نحو قناة السويس وبقيام المسلمين بتلبية نداء الجهاد الذي أعلنه الخليفة محمد رشاد ، تصبح باعتقاد جمال باشا في مهيب الرج ، وينتهي أمرها في هذه البلاد .

كان جمال باشا يعيش هذا الأمل ويؤمن به ، ويدور به في عقله طوال اليوم ، في السر والعلن ، لذلك كان دائماً ملازماً للجندي التركي المحارب ومتابعاً لأمره عن كثب .

أما القوات المتواجدة على الجبهة الفلسطينية والقوات المتواجدة على الأطراف ، فقد تم اصدار الأوامر إليها بالتحرك نحو قناة السويس . لم تكن هناك أية قوة معادية في طريقهم إلى القناة ، وكأن العدو قد أزيل من الوجود أو اختفى ، إلى أن أشرق صباح اليوم التالي حيث بدأ القصف المدفعي يستهدفهم من حيث لا يدرون وكأنه سيل من مطر لا ينقطع . وقد أحاط بهم شبح الموت من كل جانب .

جمال باشا تعرض للخيانة

خلال ساعات قليلة ، تحولت كل تلك القوات والتكتلات العسكرية إلى رماد ، وزالت تماماً من الوجود .

لقد كانت القوات محاصرة وسط دائرة من اللهب والنيران الحارقة . ووقف قائد الجيش الرابع ، والضباط القادة الألمان ، مذهولين أمام ما شاهدوه ، لا يدرون ما يفعلون .

والقوات التركية التي كانت البارحة تحلم بالنصر ، باتت اليوم مهزومة ومندحرة . فالبارحة كانت بيروت والشام تحتفل بظفر القوات التركية ، واليوم مع وصول أنبا . المعارك في الصباح الباكر أصابت خيبة الأمل ليس فقط القادة في الجبهات ، في بيروت والشام والقدس بل في كل أرجاء الإمبراطورية ، وأزيلت معالم النصر والاستعدادات التي كانت قد أقيمت لها .

لقد كانت الضربة التي تلقتها قوات جمال باشا قاسية . فهؤلاء الذين كانوا يخططون لاجلاء المستعمرين عن القناة ، لم يضعوا في حسابهم خطط هذه القوات المعادية واحتمالات تحركاتها كما يجب .

لقد كانت سارة ، وراء هذه الضربة العسكرية القاسية التي تلقتها قوات الإمبراطورية العثمانية والتي راح ضحيتها الآلاف من الجنود إضافة إلى الخسارة الفادحة التي تكبدتها القوات الألمانية .

فقد تمكن قائد القوات الانكليزية ، الجنرال النبي بفضل الخطط التي أرسلتها له سارة ، من وضع خطة أدت إلى تلك الكارثة العسكرية في صفوف الجيوش العثمانية والألمانية ووقع هذه القوات في فخ القوات الانكليزية .

سارة جسدت الهزيمة

لقد أمر الجنرال النبي بالانسحاب أولاً لجر القوات التركية ، ثم قام بهجوم منسق بحري وجوي وري استطاع به أن يقسم ظهر هذه القوات .

أجل ، لقد كان جمال باشا قد أعد جيداً لسفره إلى القناة ، ولكنه لم يأخذ بالحسبان شبكة التجسس الانكليزية السرية ، فقد كان واثقاً من قذف

الانكليز من القناة ، ولقد أتى إلى القدس بهذا الهدف وكان النصر يتجسد أمامه بكل وضوح وجلاء . وقام آنذاك باجراء ترتيباته العسكرية بكل ثقة وإيمان بالنصر الأكيد .

حدث مستحيل

في حقيقة الأمر ، لم يتخذ جمال باشا ترتيبات واجراءات عسكرية متكاملة مع الالمان ولم تكن الأمور منسقة معهم تماماً ، وكانت الجبهة الداخلية تعيش تحت وطأة الجوع والقهر ، فلم يكن بالامكان تهيئة جبهة داخلية قوية في مثل هذه الظروف .

ومع ذلك كان جمال باشا واثقاً من النصر حسب اعتقاده في سلامة وجاهزية قواته والقوات الالمانية ، كما كان واثقاً بأنه سيأتي على نهاية الإمبراطورية الانكليزية .

محملاً بكل هذه المشاعر وهذه الأفكار ، عاد جمال باشا إلى مقره في الشام .

قوى خفية أثناء الحرب العالمية الأولى

قبل بدء الحرب العالمية الأولى بكثير ، كانت الإمبراطورية العثمانية تديرها قوى خفية ، تلمي عليها ما يجب عليها أن تفعله وتتخذ عنها القرارات الحاسمة . غير أن هذه القوى مع الأسف ، لم تكن تحقق تطورهاً ولا تقدماً للإمبراطورية . بل بالعكس ، فلقد تعالت في أرجاء الإمبراطورية ، الدعوات إلى انقاذها ، بعد أن انكشفت هذه القوى ولم تعد سراً على الناس . احدى تلك القوى الخفية ، التي كانت سبباً في هلاك الإمبراطورية هي الصهيونية .

فمنذ المؤتمر الصهيوني الأول ، أي منذ عام ١٨٩١^(١) وفي شهر آب بالذات ، تم تأسيس هذه القوى . ومنذ هذا التاريخ بدأت الصهيونية تظهر على الساحة السياسية وتظهر معها نتائج تحركاتها . من تلك النتائج ، مساندتها للدول الأوروبية في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، ذلك الرجل المريض ، وتسخير امكانياتها لهذا الهدف . بغية تحقيق هذا الهدف ، فكر الموسويون في امكانية إنشاء دولة لهم في مدينة القدس ، وكان لابد من هدم الإمبراطورية العثمانية ، لكي يتمكنوا من تحقيق هذا الحلم .

(١) التاريخ ليس كما جاء أعلاه . فالمؤتمر الصهيوني الأول عُقد في مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧ .

وهكذا تضامن أغنياء العالم من كل جهة وبلد وبينهم اليهود واتحدوا لكي يسيطروا بنفوذهم على الدولة العثمانية ، وليحققوا حلمهم الذي كان يراودهم منذ فترة لاتقل عن قرنين .

وهكذا اتفقت الصهيونية والماسونية على هدم أركان الإمبراطورية من الداخل لتجسيد حلم اليهود الأزلي - فبادىء ذي بدء ، لعبت الصهيونية دوراً مهماً في تشكيل حركة الاتحاد والترقي أيام السلطان عبد الحميد ، وقدمت مساعدات مادية كبيرة للحركة . لاشك أن الهدف كان جلياً وراء دعم الصهيونية لهذه الحركة ، ألا وهو تحقيق إنشاء دولة موسوية في القدس بمساعدتهم .

ومع الأسف ، لم ينتبه مؤسسو حركة الاتحاد والترقي آنذاك إلى الخطر الكامن وراء مساعدة الصهاينة لهم ، ودعمهم المادي المستمر لحركتهم ، ولم يعلموا هدفهم إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن باتوا دى بين أيديهم .

لقد بدأ استيطان اليهود في فلسطين مع بداية عام ١٨٤٢ إثر فرمان أصدره السلطان عبد الحميد " أعطى لليهود الصلاحية بتسمية رئيسهم المتواجد في القدس بلقب رئيس الحاخامات ، بذلك استطاع اليهود ، وفي ظل الإمبراطورية ، أن يبدأوا بتحقيق الخطوة الأولى نحو بناء كيان يهودي لهم في فلسطين .

جمع الذهب

بعد صدور هذا الفرمان ، قام أحد الموسويين المدعو السيد موسىيس مونتيفيوري ، بحث اليهود على امتلاك الأراضي والتشيث بها ، فقام بإقناع

(١) وهو السلطان عبد الحميد الأول (١٨٢٣ - ١٨٦١) أعلن « الخط الشريف كوخانة » ، نص المساواة بين أفراد الرعية. تعاون مع الدول الأوروبية على محمد علي عندما اجتاحت قواته بلاد الشام .

العديد من أصحاب الملايين خارج فلسطين لدعوتهم : وبذلك استطاع أن يجمع ملايين القطع الذهبية لتحقيق هذا الهدف . فبدأ بالترويج والدعوة لحب الوطن في كافة أرجاء العالم طالباً من أغنياء العالم اليهود أن يظهروا حبهم للوطن هذا ، بشرائهم للأراضي والتمسك بها في القدس وفلسطين .

وطرح عام ١٨٥٥ فكرة انشاء مدارس ومشافي في سفح جبل داوود . وهكذا ومنذ ذلك التاريخ بدأت عدة منشآت ترى النور في تلك المنطقة ، سجل عليها اسم مونتيفيوري .

لقد شجع قيام هذه المنشآت والأبنية تحت اسم مونتيفيوري يهود العالم، خاصة الأغنياء منهم، على القدوم، واستثمار أموالهم في انشاء واعمار مناطق ومحلات تجارية في هذا المشروع .

وفي وقت قصير ، قامت عائلة روتشيلد المشهورة بإدارة البنوك بالمساهمة بهذه الحركة العمرانية القائمة في مدينة القدس ، وبعد ذلك بفترة ، قام البارون روتشيلد بدراسة أوضاع الموسويين الاقتصادية والسياسية على ضوء الواقع ، وبدأ بالمشاركة الفعلية لحل مشكلاتهم . فقد قدم الموسويين أفضل الشروط الممكنة للاستثمار لدعم تواجدهم ودعم حركتهم العمرانية في هذه المنطقة .

ولذا أصبح شغل التجار اليهود الشاغل في القدس وحيفاً ويافاً وصفاً شراء الأراضي في هذه المدن وفي المناطق الزراعية كزمارين والبطاح وتقوى والحديرة لإقامة مستوطنات عليها .

في خدمة الدعوة

وهكذا رأت المستوطنة الصهيونية الأولى النور في فلسطين ، حيث بدأ سكانها يهتمون بالتجارة والزراعة ، وألفوا فيما بينهم جماعة استطاعت بفضل التعاون فيما بينها ، التغلب على الأزمات المادية والمعنوية التي كانت

تعتزضهم.

بدأ الموسويون بعد عام ١٨٨٢ ، يتجمعون في مناطق خاصة بهم ،
نخص بالذكر الموسويين القادمين من روسيا ورومانيا .
ومن ناحية أخرى ، بدأت تظهر في الأفق أسماء شخصيات موسوية
روسية لم تكن قد سمعنا بها مثل ليفونتيت^(١) وفاينبرغ ووايزمان ، حيث قام
هؤلاء الثلاثة بتشكيل جمعية موسوية ، هدفها لم شمل الموسويين في كافة
أنحاء العالم وإنشاء وطن لهم في فلسطين .

وهكذا ، وبعد فترة ، ثم توطين عشرة أسر قادمة من رومانيا في
منطقة السامرة في فلسطين ، تمشيًا مع قرار الجمعية الموسوية ، في بادئ
الأمر كان الاستيطان شاقًا ويتعرض لمشاكل عديدة ، أهمها أن الأراضي التي
تم منحها للمستوطنين تفتقر للماء وتقع في مناطق حارة جدًا . غير أنه ،
يومًا بعد يوم زادت المساعدات التي ترسلها الجمعيات والمؤسسات الموسوية
لهم ، مما جعلهم يتغلبون على هذه الصعاب بسهولة .

وكان والد سارة آرونسون ، السيد جاك آرونسون من بين هؤلاء
المستوطنين ، حيث قدم إلى فلسطين عام ١٨٨٩ واستوطن في مدينة زمارين
بمساعدة ومؤازرة هذه المؤسسات الموسوية وخاصة بمساعدة عائلة البارون
روتشيلد .

وفي حين كان الموسويون يدعون ملتهم إلى القدوم والاستيطان في
فلسطين كانت هناك فئة موسوية أخرى تقوم بمحاولات سياسية مع الدولة
العثمانية .

فلقد تجرأ بعضهم ، بما أن الساحة خالية لهم ، على التقرب من السلطان عبد

(١) هو سلمان داود ليفونتيت ، جاء إلى فلسطين عام ١٨٨٢ ، مرسلًا من قبل الصهاينة
الروس ، أشرف على تنسيق عمليات الاستيطان الأولى .

الحميد وطلب حمايته .

وفعلًا ، قام مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتسل^(١) بزيارة السلطان عبد الحميد ، برفقة عضو المجلس النيابي العثماني عمانوئيل قره صو مستفيداً من الوضع الاقتصادي والمادي السيئ ، الذي تعيش فيه الإمبراطورية ، ومستغلاً إياه ، فقال للسلطان^(٢) :

« لو أن السلطان يتكرم ويمنحنا فلسطين ، فإننا على استعداد لدعم الوضع المادي للإمبراطورية ، ونكون صلة وصل بينكم وبين المدينة القائمة في أوروبا ونكون محافظين عليها ، كل ذلك تحت حمايتكم وكنفكم » .

الوطن قبيح بالمال

وألقى السلطان عبد الحميد ، نظرة جافة على ضيفه ومرافقه كبير النواب عمانوئيل ثم توجه إلى مترجمه الذي كان يقف بجانبه وقال له :

« قل له أن الوطن لا يباع بالمال » .

ثم تابع قوله غاضباً :

« أيها الكلاب ، أمن أجل هذا التخريف قدمتم إلى هنا ؟ ألا تعرفون أن وطننا لا يباع بالمال ؟

(١) يمكننا الاطلاع على بعض مجريات المحادثات بين هرتسل والسلطان عبد الحميد الثاني

(١٨٧٦ - ١٩٠٩) بالرجوع إلى « يوميات » هرتسل ، المجلد الأول ، ص ٣٧٨ - ٣٨٥ والمجلد الثاني ص ٥٠٩ - ٥٥٢ والمجلد الثالث ص ١٠٦٣ وكذلك المجلد الرابع ص ١٣٤٠) .

(٢) صدرت اليوميات الكاملة لهرتسل باللغة الانكليزية عن الأصل الألماني ، بخمسة مجلدات ، في نيويورك ، عام ١٩٦٠ ، وتعتبر أول طبعة كاملة لليوميات بأية لغة على الاطلاق . وكانت قد نُشرت عام ١٩٢٣ ، لأول مرة بلغتها الأصلية ، الألمانية ، وقد حذف الناشرون الصهاينة بعض محتوياتها لأسباب تتعلق بأمن حركتهم .

اللجنة عليكم وعلى أموالكم ، اخرجوا من هنا أيها الكلاب ، ولاتدعوني أراكم ثانية » .

ودُهِش الرجلان لكلام السلطان ولما سمعاه منه ، غير أن الخدم لم يتأخروا من طردهما خارجاً .

بعد هذه الحادثة ، لم يعد هرتزل يفكر بمقابلة السلطان ثانية مطلقاً ، في حين أن النائب عمانوئيل ساورته شكوك بأنه عاجلاً أم آجلاً سيفقد رأسه ، أو سيُشنق .

وهكذا بدأت المؤسسات والجمعيات الصهيونية في كافة أرجاء العالم ، بشن حرب اعلامية عدوانية ضد السلطان عبد الحميد .

السلطان الأحمر

السلطان الأحمر ، السلطان القاتل ، السلطان المستبد السلطان المتخلف ، بهذه الألقاب شرعت الحركة الصهيونية بشن معركتها الاعلامية ضد السلطان عبد الحميد وقامت بترويج إشاعات بحق السلطان وبحق حكومته .

وقد ذهببت الحركة الصهيونية إلى أبعد من ذلك ، فبعد أن اعتبرته عدوها الأكبر ، قررت الحركة الصهيونية خلع السلطان عن كرسيه .

والأمر الأكثر سخرية هو أن مجلس النواب أوكل للنائب عمانوئيل مهمة نقل قرار الحركة الصهيونية إلى السلطان عبد الحميد بنفسه .

لقد كان السلطان عبد الحميد حزيناً متأثراً لما حدث ، حتى أنه كان يفكر بالتخلي عن السلطنة ، ولكن ذلك يحقق مآرب الصهاينة . كما أنه من ناحية أخرى ، وبعد اتهام النائب عمانوئيل بالخيانة ، لم يكن سهلاً أن يرضى السلطان عبد الحميد بأن يغدو خائناً مثل النائب عمانوئيل سبباً في سقوطه من منصبه ، فلن يغفر التاريخ له ذلك ، بل سيبقى وصمة عار على جبين

التاريخ العثماني لو تحقق .

وفي كلمته أمام هيئة النواب ، قال السلطان عبد الحميد :
« ليس أمامي سوى المشول لارادة الشعب ، ولكن ماذا يفعل
الموسوي بيننا أو ما شأنه بيننا ؟ فنذ عهد محمد (ﷺ) لم تشهد الخلافة إلى
يومنا هذا ، حقارة من هذا النوع .

إن من أنزلي عن عرشي هو أنتم ، وإحضارك لهذا الرجل إلى هذا
المكان هو الحقارة بعينها . فليساحكم الله » .

وبانتها كلمته هذه ، كان كل أعضاء الهيئة قد انتابهم شعور بالخلج
لفعلتهم ، وتمنّوا لو انشقت الأرض وابتلعتهم ورغم ذلك ، فقد تم بعد ذلك ،
ازاحة السلطان عبد الحميد عن منصبه وتعيين السلطان محمد رشاد بدلاً عنه .

الضحية الاولى

أجل ، لقد كان السلطان عبد الحميد أول ضحية نحرر الصهاينة
اختيارها . فلقد جعلوا الناس يعيشون ويؤمنون بفكرة أن السلطان عبد
الحميد كان مستبداً لا بد من الإطاحة به .

لقد استطاعت الحركة الصهيونية إقناع أركان الدولة وإعلامها
ببشاعة واستبداد حكم السلطان عبد الحميد ، وضرورة إبعاده عن الحكم ،
غير أن الحقيقة كانت غير ذلك ، فاسقاطه من منصبه جاء عقاباً على طرده
لرئيس الحاخامات ، هرتزل ، والنائب عمانوئيل ، غير أن هذا الأمر بقي سراً
ولم يعرفه أحد ، وهكذا فإن الحركة الصهيونية استطاعت أن تسجل أول
انتصار لها على الصعيد السياسي والأمني .

تحت شعارات الحرية والعدالة والمساواة والأخوة ، بدأ القادة الشبان
المنتخبين لحركة الاتحاد والترقي يدخلون باب السياسة من أبوابها الواسعة ،
وبدأوا بشغل مناصب ومسؤوليات حكومية عديدة في ظل الأوضاع

السائدة انذاك .

مهرات الرجل المريض

أثناء ذلك ، اتخذت الحركة الصهيونية قرارات هامة بشأن بقية الأمم والشعوب ، «بروتوكولات حكاء صهيون» التي جاء فيها ما يلي :

- ١ - افساد قيم واخلاقيات الشباب .
- ٢ - تدمير الأواصر العائلية .
- ٣ - النظر إلى الناس على أنهم من المرتبة الأدنى ويجب السيطرة عليهم .
- ٤ - إضعاف الصناعة، وتهجين الأخلاق والقيم ونشر الأدب الرخيص.
- ٥ - تدمير كافة مظاهر الإيمان ، ومحاربة القائمين على أمور الإيمان ، وتلفيق التهم الرخيصة لرجال الدين والعلماء .
- ٦ - إيجاد تقليعات تخطف الألباب وزيادة الرفاهية المصطنعة ، والعمل على جعل الناس ينفقون بشكل جنوني .
- ٧ - العمل على أن تمضي الأمم أوقاتها في اللهو واللعب وإبعادهم عن التفكير قدر المستطاع وتفرغهم من محتوهم الإنساني .
- ٨ - تسميم واجهاض الأفكار التقدمية، ونشر اللامسؤولية والانتكالية والأحقاد والدسائس بين صفوف المواطنين .
- ٩ - العمل على تسميم الأفكار وجعل الفوضى والمظاهر غير اللائقة هي الأساس في التعامل وزرع الحقد والنفور بين الأخ وأخيه .
- ١٠ - تدمير العلاقة القائمة بين التجار وأصحاب الأموال . أوجدوا الاضرابات ، وقوموا بابتزازهم .
- ١١ - هدم الثقة المتبادلة بين الطبقات .

- ١٢ - خلق أزمات صناعية وزراعية ، وبذلك يُسحق الفلاح ويعطل الإنتاج .
- ١٣ - منع أية أفكار علمية وتجميد الأبحاث ووضع العراقيل في وجه الناس الذين يريدون تطبيقها في الحياة العلمية .
- ١٤ - دعم غلاء المعيشة ، وزيادة الأجور .
- ١٥ - العمل على إحداث الاضطرابات في العلاقات بين الشعوب وزرع الكراهية والعدوانية بينهم .
- ١٦ - إيقاف عجلة التقدم والتحصيل العلمي في البلاد ودعم الجهلة من القوم .
- ١٧ - تغيير أنظمة الحكم وإفشاء أسرارها .
- ١٨ - العمل على إعطاء كافة الحكومات صبغة المستبد .
- ١٩ - هجر وإلغاء حرية السياسيين والاقتصاديين وإيجاد عوائق اقتصادية .
- ٢٠ - زعزعة الاستقرار المالي والعمل على الإكثار من الأزمات الاقتصادية .
- ٢١ - افتعال الحوادث ، وحصر الأموال في فئة قليلة من الناس وتعظيم الأنباء .
- ٢٢ - انتظار سقوط الحكومات وإلقاء الشعوب في الفقر والعوز والاغتراب .
- وهكذا، انشغلت الإمبراطورية العثمانية، علاوة على استمرارها بالحرب، في مجابهة تطبيق هذه البنود الاثنى والعشرين التي أقرتها الحركة الصهيونية^(١) .

(١) حول « بروتوكولات حكماء صهيون » انظر دراسة الأستاذ عجاج نويهض ، الصادرة عن دار طلاس بجزنين ، دمشق ، ١٩٨٤ .

لقد أثارت هذه القرارات المتخذة سرا من قبل الحركة الصهيونية بلبلة واضطراباً في العالم كله ، خاصة في رومانيا وروسيا ، وعلى إثر ذلك قررت الدول والحكومات قتل التجمعات اليهودية أو طردها من بلادها .

الصهيونية في المهد

لم تكن الإمبراطورية العثمانية ، عند بدءها الحرب ، قد أخذت أية أهمية لهذه الأقلية الموسوية ولا حتى لأعضائها الذين انتسبوا إلى حزب الاتحاد والترقي ، بل بالعكس فقد أقامت معهم علاقات على أرفع المستويات . غير أن القائمين على قيادة المراكز الإدارية الهامة في البلاد ، كانوا في الحقيقة شرفاء محبين لأوطانهم ، ولكنهم كانوا واقعين تحت سيطرة الخطط الماسونية والصهيونية لاتخاذ قرارات تضر بمصلحة الإمبراطورية والوطن . فلم يكن يهم القيادة العثمانية شيء من تلك الأمور ، إلا أنها كانت تشكو من بعض المشاكل والخلافات مع العرب والأرمن في مسكون ومطالبهم الإصلاحية، أما الصهيونية التي كانت تترقد في المهد فلم تكن تشكل خطراً على الإمبراطورية بفضل قناعها المحكم . وبعد أن تمكنت الصهيونية من بسط نفوذها داخل الإمبراطورية العثمانية ، تحالفت مع انكلترا .

انكلترا ، التي كانت قبل الحرب العالمية تخطط لمنح الموسويين مزايا ونفوذ على الأراضي العربية الإسلامية ، وخاصة المقدسة منها ، ففي حين أوكلت مهمة إغراء العرب إلى فرنسا ، لجلهم على العصيان وطرد الأتراك من بلادهم ، كانت انكلترا تحيك شبكة تجسس موسوية داخل الإمبراطورية .

مسكن ومقر قيادة

بعيداً عن كل هذه الحقائق التي كانت غير معروفة من قبله ، كان

جمال باشا يخطط لحملة ثانية، بعد فشله الذريع في حملته الأولى على قناة السويس .

فبعد رحلته تلك ، وعند عودته إلى الشام ، اصطحب جمال باشا فتاته سارة أرونسون من فندق فيكتوريا إلى حيث يقيم في فندق قصر الشام.

كان جمال باشا يشغل القسم الأكبر من الفندق ، حيث اتخذ مسكناً ومقرّاً لمتابعة أعماله ولقاءاته .

وشغل عدة صالات من الفندق للقاءات والاجتماعات مع القادة الألمان ، وفي الوقت نفسه ، كان قد شغل بعض الغرف أيضاً لحياته الخاصة اليومية .

وهكذا ، أحضر جمال باشا ، فتاته التي تعرف عليها في بيروت إلى مكان إقامته في فندق قصر الشام الذي اتخذ مسكناً ومقرّاً ومكتباً لإدارة اجتماعاته وأعماله .

ازدياد حالات الفئار

كان جمال باشا متأثراً جداً بالهزيمة التي مُني بها . فجلس يعين النظر ويدقق في كل أمر من أمور الإمبراطورية ويفكر في إيجاد حل لها .

فهناك مشكلة التمويل المالي ومسألة التعزيزات العسكرية التي لم تصل بعد ، ومن ناحية أخرى فهو مسؤول عن تأمين تموين الجيش بالعتاد والغذاء وهذه مسؤولية كبيرة بحد ذاتها .

وفي الواقع أن محصول الأراضي المزروعة ، لا يكفي لتغطية مؤونة هذه القوات ، وكان لا بد للبasha من الحصول على دعم وإمدادات غذائية من الدولة ومن خارج منطقة حكمه .

فإنه اندلاع الحرب ، توقفت عمليات الاحتلال والاستيلاء على الأراضي ولم يبق له سوى التوجه إلى السوق السوداء ، وإلى المحتكرين والمرابين

لدعم استمراره في قيادة جيوشه ، لذلك ترى أمثال هؤلاء يحيطون بالبasha منتشرين حوله .

وكان الشعب في أسوأ أحواله ، يفتقد إلى لقمة الخبز ، زد على ذلك أنه بعد الحملة الأولى على القناة ، كثرت حالات الفرار من صفوف الجيش . فهناك مجموعات عسكرية عربية قد اختفت تماماً من الوجود .

كان الجوع ، والحرب ، وقلة المادة ، والحر الشديد ، أهم العوامل التي دفعت القوات إلى التخلي عن واجبها والفرار من أرض المعارك والجبهات . ولم يبق في الجبهات إلا فتيان الأناضول ، غير أن هؤلاء أيضاً ، كانوا يتعرضون لتحريض الجنود العرب من المناطق المجاورة على الهرب والفرار من الجبهات القتالية .

أما المسلمون القادمون من اردهان ، وكارستان ، وجناق قلعة^(١) وباليكيسير وازمير وكل الأناضول ، فقد صمدوا يقاتلون العدو ، وأنباء استشهادهم تبعث السرور والرضا في قلوب القادة والشعب . وحقيقة الأمر ، أن هؤلاء الفتيان الأناضوليين ، هم الذين كانوا يرفعون من معنويات جمال باشا بقتالهم وإصرارهم على مواجهة العدو بإخلاص ووطنية .

فتيان الأناضول

ولكن فتيان الأناضول هؤلاء ، كانوا للأسف الشديد جوعاً وعراً ، يتكدسون فوق بعضهم البعض من شهيدٍ ومصاب ، متحملين حر النهار الشديد ، وبرد الليل القارص ، والذين سأموا من رصاص العدو ، تعرضوا لأمراض عديدة ، مثل الديزانتيريا والتيفوئيد ، أودت بحياة العديد منهم .

(١) حصن على ضفة الدردنيل الشرقية (تركية) ، صمد لحصار الحلفاء البحري في الحرب العالمية الأولى (شباط - نيسان ١٩١٥) ، حيث لعب مصطفى كمال دوراً كبيراً في ذلك .

عند تأمله هذا الوضع الحزن ، أخذ جمال باشا قلمه وكتب إلى رؤساء القبائل العربية رسائل يدعوهم فيها للحضور إلى الشام ، فوجّه دعوة للشريف حسين في مكة وابنه الأمير علي ، ولفيصل ، ولعبد الله ، ولابن رشيد السعودي .

كان جمال الباشا ينوي طلب المساعدة من رؤساء القبائل العرب هؤلاء ، لتأمين الدواء والغذاء للجيش التركي التي تترنخ تحت وطأة الهجوم والحاجة للإمدادات السريعة ، في الوقت نفسه ، كان ينوي مساعدة ومؤازرة سليمان بك العسكري الذي ، يحارب الانكليز بشجاعة وقوة في البصرة ، كما كان يود دعم الامام يحيى في اليمن حيث أمر القوات العثمانية بدعمه ومساندته .

والجدير بالذكر أن هؤلاء الرؤساء العرب كانوا قد وقفوا موقفًا إيجابيًا بجانب الباشا في حملته الأولى على القناة .

المساعدة العربية

كان أول المستجيبين لنداء جمال باشا ، الشريف حسين من مكة ، الذي أبدى مساندته للباشا في حملته الثانية على القناة ، ووافق على ارسال جنود إلى القناة ، طالبًا من الباشا تأمين المال والسلاح لهم .

على الفور ، قام الباشا بطلب تأمين مستلزمات جنود الشريف حسين من مال وسلاح ، فأرسل له ثمانين ألف قطعة ذهبية وخمسة عشر ألف قطعة سلاح . في حين أن الامام يحيى ، أبلغ جمال باشا أن انشغاله بأمور داخلية تمنعه من المشاركة في الحملة .

أما الأمير فيصل والأمير علي إبني الشريف حسين فقد قدما إلى الشام وزلا بضيافة الباشا لمدة طويلة . كما قدم أبناء رشيد السعودي وأعربوا عن محبتهم وولائهم للباشا .

وهكذا احتل جمال باشا مكانة مرموقة ، وحاز على محبة العرب ، فوقفوا جميعًا في مواجهة الانكليز والفرنسيين .

فمن ناحية ، كان يقوي جبهات القتال في غزة وسيناء وفلسطين ومن

ناحية أخرى كان يوطد العلاقات بينه وبين العرب، ويشاركهم أفراحهم وأعراسهم ومناسباتهم واحتفالاتهم الدينية .

أصبح جمال باشا رجل الأمة ، وزاد احتكاكه بالطبقات الفقيرة من الشعب مما زاد محبتهم له وللإمبراطورية العثمانية، فخيما وصل، كان جمال باشا يُستقبل بهتاف الشعب ، الذي كان ينتشر في الطرقات لرؤيته .

كان جمال باشا يحاول عدم اللجوء إلى الشدة أبداً، فرغم حاجة جيوشه إلى المؤونة ، كان يوزع الخبز والملبس على الشعب ، حتى أنه كان يقدم لهم المعونات المالية من أموال خزانة الدولة. ويعامل العرب بمنتهى اللطف والمحبة ويدفع قيمة المؤن التي يشتريها لجيوشه قطعاً نقدية ذهبية ، وكان يطبق هذا الأسلوب في التعامل في كل المناطق العربية بلا استثناء وليس فقط في سورية وفلسطين ولبنان مما ساعد على رفع شعبيته وعلى تحسين سمعة الإمبراطورية بين الناس بشكل كبير .

هناك من أقلقه هذا الأسلوب والمهمة المزدوجة

لقد أقلق حب العرب وولاؤهم للبasha سارة كثيراً . فكانت الجاسوسة الانكليزية ، تجلس كل مساء على رأس مائدة العشاء في فندق قصر الشام، التي تضم عدداً من النواب العرب المجتمعين مع البasha ، وتصفى بامعان وانتباه إلى كل ما كان يدور من حديث بينهم، وكان مما يزيد في قلقها أيضاً تلك الاتفاقيات والعهود التي كان البasha يعقدها مع المتنفذين ورؤساء القبائل العربية والتي كانت بمثابة ضربة قاسية لأحلامها ، لذلك فقد كان همها إثارة الفرقة بين العرب والأتراك لنزع الثقة بينهم ولتحرير العرب على التفكير في إقامة دولتهم المستقلة من جهة ومن جهة أخرى نقل كل ما تسمعه وتراه إلى الجاسوسة سيمون التي تقوم بدورها بتسريب هذه الأنباء والمعلومات إلى الانكليز بالسرعة الممكنة وبالأخص ما

كان هاماً منها والذي كان لا يستغرق زمن إيصاله إلى القيادة الانكليزية أكثر من ساعات قلائل .

الموسويون في خدمة الانكليز

ولوضع خدمات الموسويين بتصرف القوى المعادية للإمبراطورية ، قامت أجهزة الحيازات الانكليزية قبل الحرب العالمية بعام بتشكيل شبكة جاسوسية لتحقيق هذا الهدف ، فأنشأت شبكة من الجواسيس قوامها مئة امرأة وثلاثمئة رجل ، وارسلتهم إلى فلسطين ، كلهم من الموسويين .

والجدير بالذكر أنه ، في تلك الحقبة من الزمن ، كان هناك تقارب موسوي انكليزي على يد بعض الشخصيات الموسوية مثل ليشانت وفافينبرغ ووايز من البولوني الأصل الذين كانوا على اتصال دائم مع الحكومة الانكليزية .

إقناع الانكليز

وكانت المنظمة الصهيونية قد نجحت في عقد اجتماع مع رئيس الوزراء الانكليزي ، ثم مع وزير البحرية السير تشرشل في ذلك الوقت ، وأخيراً جرى لقاء مع وزير الدفاع طرح فيه موافقة الحكومة الانكليزية ، بإنشاء دولة موسوية على أراضي الإمبراطورية العثمانية .

وتم هذا التفاهم بحضور مدير الاستخبارات الانكليزية . وتقرر لتنفيذ إنشاء هذه الدولة ، إزالة الإمبراطورية العثمانية ، والسيطرة على مدينة القدس وفلسطين .

ومنذ ذلك الوقت ، ومنذ عهد الاتفاق ، بدأت الحكومة الانكليزية بتسخير ملايين القطع النقدية الذهبية ، لتوطيد وبناء شبكة جاسوسية على أراضي الإمبراطورية في فلسطين ، لتحقيق هدف الموسويين .

الأب أرونسون

كان الاتفاق على تشكيل الشبكة على النحو التالي :
بادىء الأمر ، تم البحث عن أناس يقيمون في فلسطين ، من أصل موسوي ، أرسلتهم الحركة الصهيونية وساعدتهم على العيش فيها ، والتفاهم معهم حول رغبتهم في مساعدة أجهزة الاستخبارات الانكليزية وإقناعهم بالانضمام إلى صفوفها .

وفي مقدمة هؤلاء عائلة أرونسون ، هذه العائلة التي تلقت الدعم والمساندة من قبل عائلة البارون (أدمون روتشيلد) ، وحازت على محبة وصداقة العرب والأتراك ، وعلى رأسها الأب أرونسون وأولاده الخمسة ، كانت خير خلية تبدأ منها الاستخبارات الانكليزية عملها في سبيل تحقيق انشاء دولة موسوية في فلسطين .

ففي بادىء الأمر ، تم انشاء مختبر للأبحاث النباتية في عتليت^(١) ، للعائلة سارة أرونسون ، وفي الوقت نفسه ، كان مقراً لقيادة الاستخبارات الانكليزية .

أما شقيقها الأكبر آهارون (آرون) ، الذي تتلمذ على يد عدة أساتذة خبراء في مجال التجسس والتنظيم السري ، في لندن ولمدة طويلة ، منذ عُيِّن

(١) في عام ١٩٠٣ ، أقام الصهاينة في ظاهر قرية عتليت العربية مستعمرة دعوها بنفس الاسم. تقع المستعمرة على الساحل الجنوبي حيفا ، بين رأس الكرمل والطنطورة ، على بعد (٢٠ كم) .

مساعداً خاصاً للآنسة سارة لإدارة هذه القيادة ، وكان في الوقت نفسه ،
المعاون الأول لوالده .

غير أنه مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، ذهب آهارون إلى انكلترا
ليعمل في قيادة جهاز الاستخبارات الانكليزية ، التي نُقلت فيما بعد إلى
مصر .

أما شقيقها الكسي ، فلقد انضم هو أيضاً إلى جهاز الاستخبارات
الانكليزية وعين فيها بصفة ضابط ، في حين رحل اخوهم ايزودور إلى النمسا ،
حليفة الدولة العثمانية .

وهكذا ، بقيت كل المسؤوليات في فلسطين على عاتق سارة . فكانت الجاسوسة
الرئيسية التي تعمل على الأراضي التركية والتي تقدم الخدمات الفعلية
للمخابرات الانكليزية .

تجدر الإشارة إلى أنه عندما تم تنظيم أسرة أرونسون للعمل مع أجهزة
الاستخبارات الانكليزية ، تقرر تسخير امكانيات سارة ، من جمال وذكاء
واشارة ، في فلسطين ، لاعتقاد القيادة الانكليزية بفعاليتها هناك ، كان
جمال سارة قادراً على جذب أي ضابط الماني أو تركي . علاوة على ذلك ،
اتقائها لعدة لغات ، مما مكنها أن تعمل في سوريا ولبنان وفلسطين دون
عائق .

قامت سارة ، أول الأمر ، بتأمين أشخاص موثوقين ليساعدوها في
وصول الرسائل والمعلومات إلى أهدافها ، ووقع اختيارها على ثلاثة أشخاص
من جنسيات مختلفة لأداء هذه المهمات ، فشكّلت منهم شبكة مصغرة كانت
ترأسها بنفسها .

وكما علمنا فإن قوام الشبكة كان مئة امرأة وثلاثمئة رجل ، إلا أنها
اختارت ثلاثة من بينهم ليكونوا على اتصال مباشر معها ويساعدوها في
مهمتها . هؤلاء كانوا الدكتور كوهين هانكن ، ابراهام اسرائيل ، وصاموئيل

سام ، وبالتالي قام هؤلاء الثلاثة بإنشاء شبكات خاصة بهم في القدس وسوريا ، والشام ، وبيروت ، وحلب ويافا وحيفا ، إلا أن هؤلاء العاملين في هذه الشبكة ، لم يكونوا يعرفون بعضهم البعض .

بعد عامين من اندلاع الحرب ، قدم إلى فلسطين الجاسوس الانكليزي الشهير لورانس ، واجتمع مطولاً مع سارة ، في مختبرها للأبحاث العلمية الزراعية (النباتية) وتحدا في ذلك الاجتماع عن شخصية الباشا . وعن المعلومات التي توصلت إليها سارة من خلال تواجدها مع الباشا ، وبالتالي ، قام لورانس بإرشادها ، وتزويدها بخبراته ، وأعطاهها التعليمات اللازمة لمتابعة مهمتها .

وقد سبق لسارة أن قامت قبل الحرب بعام واحد ، بزيارة إلى لبنان لتأسيس شبكة تجسس فيها ، وفي بيروت تعرفت على نور الدين بيم شقيق رئيس البلدية مختار بيم .

كان نور الدين شاباً يافعاً ، مثقفاً وجذاباً ، ولاهتمامه بالمؤلفات التاريخية ، وقليلاً بالآثار القديمة ، ذهب لزيارة عتليت ، حيث قابل هناك السيد أهارون وتعرف عليه .

وقام أهارون ، بدعوة السيد نور الدين إلى منزله حيث عرفه على اخته سارة ، فقامت علاقة وطيدة بينه وبينها وأعطاهها عنوانه في بيروت لزيارته .

وهكذا ، عند قدومها إلى بيروت ، بهدف تشكيل شبكة جاسوسية لها ، قامت أول الأمر ، بالبحث عن السيد نور الدين على العنوان الذي أعطاه إياه .

ومن خلال نور الدين وعلاقاته بكبار شخصيات البلد ، استطاعت سارة أن تقيم علاقات مع شخصيات بارزة ، من علماء مسلمين ومسيحيين على السواء ، واستطاعت ، وبفترة قصيرة ، التعرف على العديد من الأسر في

بيروت فكانت عائلة سرسق إحدى تلك العائلات التي تعرفت عليها وبنّت علاقات معها ، خاصة مع السيد الفريد والسيدة ليندا .

شكوك حول سارة

قدمت سارة ، بصحبة السيد نور الدين إلى سوريا وزارت الشام وحماة وحمص وحوران وجبل الدروز وغيرها من المناطق شبراً شبراً ، متذرعة بأبحاث النباتات والزراعة ، وأثناء تجوالها كانت تدون الملاحظات حول تلك المناطق ، جبلاً وسهولاً وودياناً . وتتحدث إلى الفلاحين وتدوّن أسماء شيوخهم ، وتتعرف على أفكارهم موجهة إليهم أسئلة سياسية ولبرهة ، شك نور الدين بتصرفات سارة ، فسألها قائلاً :

« أرى أن اهتمامك منصب على أمور غير أمور النباتات ، هل يمكنك أن تبرري لي ذلك ؟

ضحكت سارة ، وكقطة ملساء ، ارتمت على عنق نور الدين قائلة :
« حياتي ، إنني وبعد زيارتي لهذه المناطق قرية قرية ، إنما أرغب بتأليف كتاب حولها ، لذلك فأنا محتاجة لمعرفة كل شيء عن هذه المنطقة وغيرها ، وهذا هو قصدي من أسئلتني للفلاحين ». فصدقها مقتنعاً بجوابها .

اعتماد الباشا

بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٤ قامت سارة بتصوير معظم المناطق التي زارتها ، وتدوين معلومات عنها ، حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى توجهت سارة إلى رأس عملها ومهمتها الأساسية ، وتعرفت على جمال باشا في منزل السيدة ليندا سرسق واستطاعت نيل ثقته وجعله يعتمد عليها .
إلا أن هذا التقارب العربي العثماني أقلقها كثيراً ، وهي في مكان إقامتها مع الباشا في فندق قصر الشام .

وبدأت مخاوف الانكليز والفرنسيين والموسويين تشتد أمام هذا التفاهم المسلم العربي التركي خصوصاً وأن اعلان الخليفة للجهاد الأكبر واحتمال انضمام مسلمي الهند وشمال افريقيا إليهم كان يزيد من قلق ومخاوف الانكليز وحلفائهم. فتلبية المسلمين في تلك البلاد لنداء الجهاد الأكبر كافية لهدم الكيان الانكليزي والفرنسي .

وانصب الاهتمام الأكبر على زرع الشقاق بين هاتين الجهتين ولو تمكن الخليفة العثماني من إعلان هذا الجهاد ، فإذا يفعل الانكليز والفرنسيون في مواجهته ؟

وبعد هدم الإمبراطورية العثمانية ماذا سيحل بشبكة التجسس هذه ، وماذا سيحل بسارة ، وإلام ستنتهي كل هذه الأمور ؟
لقد خسر جمال باشا في حملته الأولى معركته أمام الانكليز والفرنسيين في قناة السويس ولكنه مازال يقاوم ويستعد للحرب ثانية ، والجندي التركي يقاوم رغم الشروط القاسية التي يمر بها .

ماذا صنع العرب ؟

مع قدوم حزب الاقتدار إلى الوجود وظهور حركة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ فقد أعلنت الدولة الثانية ، وباتت الحكومة تلبس ثياب الحرية الجديدة في ممارستها للحكم في البلاد .

لذلك بدأنا نشاهد ، على امتداد الأرض التركية في ظل الإمبراطورية العثمانية ، وعلى مختلف الأديان والشعوب التي تسكنها ، ظهور نداءات لنيل الحريات بشكل أو بآخر ، كما بدأنا نرى من يطالب بإجراء الإصلاحات في الحكومة والنظام .

وعلى ضوء ذلك ، ونتيجة له ، ظهرت عدة أحزاب وتجمعات في ساحة معركة الإصلاح هذه ، واحتدمت المناقشات بينها وقام العرب بعقد

مؤتمر باريس في الثامن عشر من حزيران عام ١٩١٣ ، بحثوا فيه مواضيع الإصلاحات التي يجب أن تتم في البلاد ، وقرروا مناقشة الأمر مع أعضاء جمعية الاتحاد والترقي . واستبق النواب العرب في مجلس النواب التركي الأمر ، وقاموا بدفع المواطنين في سوريا ولبنان والحجاز وبيروت ، إلى مطالبة الحكومة العثمانية بهذه الإصلاحات .

مؤتمر باريس^(١)

وفي هذه الأثناء ، انضم الشريف حسين إلى هذه الحركة ، باعتباره نائباً للحجاز .

كانت الإصلاحات تطالب بتنظيم الإدارة في الولايات ، واصلح المتصرفين ، وإنشاء الطرق ، وتأمين المستشفيات ، والماء وتأمين احتياجات المواطنين من خدمات .

غير أن عقد العرب لاجتماعهم هذا ، في مدينة باريس ، في بلد غريب عدو للإمبراطورية ، ومناقشتهم أمراً يتعلق بالحكومة التركية ، كان بنظر وزير الداخلية طلعت باشا ووزير الحربية أنور باشا ومحافظ استنبول جمال باشا ، أمراً خطيراً يجب معالجته ، لاسيما في احتال وجود بان قوى خفية أجنبية تقف وراء تحرك العرب هذا .

وعلى أثر ذلك ، عقد وزير الداخلية طلعت باشا مع مدير الأمن في

(١) عُقد المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣ ، وبحث المؤتمر حقوق العرب في الدولة العثمانية ، وقرّر عدة قرارات منها : حقوق العرب السياسية اعلان الإدارة المركزية ، اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، اشتراك العرب في الإدارة المركزية في استنبول الخ ... تظاهرت حكومة الاتحاد والترقي بالموافقة على مقرراته ، قبل أن يبطش جمال باشا بزعماء العرب ١٩١٥ - ١٩١٦ ، (المجلس العرفي في عاليه) .

استنبول ، عزمي بك ، اجتماعاً ، بحضور ممثلين عن الأمن وعن الحكومة .

شبكة الاستخبارات

تم في هذا الاجتماع اقرار إقامة شبكة استخبارات في قلب الدول العربية تكون مسؤولة أمام وزير الداخلية طلعت باشا . وجاء قرار وزير الداخلية حول انشاء هذه الشبكة، على النحو التالي:

- ١ - العمل على كشف تحركات العرب الفكرية والعملية .
- ٢ - التفاهم مع العرب الذين لهم علاقات مع عزيز علي وأصدقائه والاتفاق معهم على القيام بالتجسس على عزيز علي .
- ٣ - مراقبة الشخصيات التي تنادي بالإصلاحات خاصة اتصالاتهم مع السفارات الانكليزية والفرنسية .
- ٤ - مراقبة الشخصيات المنادية بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية والحد من نشاطهم .
- ٥ - فتح ملفات بحق النواب والرؤساء في حزب الاتحاد والترقي الذين يقومون بأعمال مخالفة لقرارات الاتحاد .
- ٦ - تأسيس فرع للاستخبارات في كل من الدول العربية على حده وجعل مركزها تحت إمرة القائم مقام نوري .
- ٧ - نشر النواب والضباط المناصرين والمؤيدين للأتراك، في كافة أرجاء الأراضي التركية .

الاجراءات المتخذة

وهكذا قامت الحكومة التركية ، قبل قيام الحرب العالمية ، بتعزيز موقفها السياسي والعسكري بالتقرب من الألمان والحصول على دعمهم ، ثم قامت مع قيام حركة الإصلاح في البلاد ، باتخاذ هذه الإجراءات الأمنية في

وجه من تسوّل له نفسه تقسيم الإمبراطورية وهدمها .
وفي الوقت نفسه ، جرت محاولات جادة لتوحيد المسلمين بشتى
الوسائل.

فقد قام أنور باشا بدعوة الرؤساء المسلمين إلى استنبول . كما قام
بالاتصال مع مسامي القفقاس ، وأفغانستان ، والهند ، وشمال افريقيا ،
مغدقاً عليهم الأموال والمساعدات الانسانية . وتم الأخذ بعين الاعتبار ،
عند تعيين جمال باشا والياً على سوريا أن يقوم هذا الأخير بجمع العرب حوله
وجعلهم تحت تصرفه بناءً على العلاقات الوطيدة التي يبنها معهم .
لم تكن هناك أية احتمالات لقيام عصيان داخلي في البلاد ، فهذا أمر
مفروغ منه ولاداعي لمناقشته لأنه لا يمكن حصوله . غير أن الأمر المهم الذي
أغفله أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا ، والعنصر الهام الذي لم يخطر
ببالهم هو : النشاط الصهيوني .

الحركة الصهيونية

لم يكن هذا العدو الثالث ، بعد العرب في الداخل والانكليز
والفرنسيين في الخارج ، في حسابات الأتراك ، ولا العالم كله .
حتى ذلك التاريخ ، لم يدرك الأتراك أن من يتخذ القرارات ويحدد
الاتجاهات السياسية في حزب الاتحاد والترقي ، ويدفع بالشخصيات إلى قمة
المناصب وينزل بها ، ويتحكم بأمور الحزب المادية والمعنوية هم الصهاينة ، فلم
تكن تلك الشخصيات تظهر هذا التأثير الصهيوني عليها .
ولم يكن في حسابان الدولة التركية ، هذه القوى الصهيونية الخفية التي
ستنزل بهم أكبر ضربة عسكرية عما قريب .

ومع دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى ، لم تأخذ
الحكومة التركية أية أهمية للموسويين على أراضيها سواء في استنبول أو في

فلسطين ولم يدخل في حساباتها أنها ستلقى ضرراً كبيراً من تواجد هذه الفئة على أراضيها .

في أحضان الجواسيس

وهكذا ، لم يكن جمال باشا يعلم أنه يحتضن كل ليلة شعباناً قاتلاً ، حتى أن هذه الفكرة برمتها لم تكن لتخطر على باله .
ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لكان مقبولاً ، فالضباط العائدون من الجبهة لقضاء اجازاتهم ، في بيروت أو الشام في فندق فيكتوريا أو الحي الموسوي ، يرمون كل ليلة في أحضان الموسويات الجاسوسات ، لكي ينسوا ويريموا عنهم تعب الحرب وهمومها .
حقاً ، كم هو حزين ومر ، مع دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى ، أن يرمي قادة وضباط الإمبراطورية في أحضان العمليات الموسويات ، اللواتي يعملن لحساب الحكومة الانكليزية ، ودمار هذه الإمبراطورية .

سارة وفيصل

كان الأمير فيصل ، ابن الحسين ، ينوي بالفعل مساعدة جمال باشا فكان يتدارس مع جميع رؤساء القبائل العربية الملتفين حول جمال باشا أمور التحضيرات للحملة الثانية على قناة السويس . وكانت سارة تتعقب هذه الأمور ساعة بعد ساعة ، وتراقب قوة جمال باشا العسكرية التي تزداد يوماً بعد يوم .

فقررت توجيه ضربة داخلية له ، وكان هذا في الحقيقة هدف الاستخبارات الانكليزية المتعاونة مع الموسويين ، فلقد آن الأوان لأن تظهر سارة على الساحة ثانية . فقررت على الفور ، مقابلة الأمير فيصل بن

الحسين الموجود في الشام ، والذي مازال بضيافة جمال باشا منذ وقت طويل .
بالمختصر ، كان جمال باشا صديقاً مزدوجاً . فطلبت سارة من رئيس
أركان الجيش الرابع الباشا علي فؤاد أن يتوسط لدى الأمير فيصل ليقبل
بأن تتعرف عليه .

الذنب لسارة

لم يقبل الأمير فيصل بادئ الأمر بوساطة الباشا علي فؤاد فقال له
الباشا : « يا سعادة الأمير ، إن الأنسة عالمة ، كما أنها صديقة قائد جيشنا
جمال باشا ، ومن المقربين إليه ، فلا أرى ما يمنعكم من استقبالها .
فرد عليه فيصل : إني أتفهم الوضع يا سيد ولكنكم تعرفون أن
مخالطة النساء محرمة علينا وعليكم تقدير ذلك .

فضحك علي فؤاد باشا قائلاً : يا سعادة الأمير ، دع هذا الذنب
للأنسة سارة ، فهي موسوية ، وليس على الفتيات الموسويات جناح من
مخالطة الرجال. لقد اعلمتني الأنسة سارة أنكم ستسرون جداً معرفتها ، على كل
حال أنا أدعوكم معاً لحضور حفلة تقيمها الحكومة ليلة غد .

كان الأمير في تلك الأيام يشك في كل من حوله ، فراح يفكر بما
سيحصل من وراء هذا اللقاء ، وكانت المخاوف قد دخلت قلبه .

وفي مساء اليوم التالي ، ذهبت سارة إلى منزل علي فؤاد باشا ، وكان
جمال باشا آنذاك موجوداً في بيروت ، فلم يحضر الوليمة في منزل علي فؤاد
باشا .

كان يجلس على المائدة ، بالإضافة إلى رئيس هيئة التفتيش في الجيش
الرابع عوني باشا ، وسليمان بك العسكري الذي قدم من بغداد إلى الشام ،
بعض الضباط الشبان من هيئة الأركان .

في تلك الليلة ، لم تمس يد الأمير فيصل أي كأس من المشروبات ، رغم

أنه كان يحتسي بعضها سراً من وقت لآخر^(١) كما لم يتكلم ، إلا حين كان يرد على الأسئلة الموجهة إليه باختصار وتواضع شديدين .

في حين كانت سارة ، وسط الضحكات العالية ، تسأل سليمان بك العسكري وعوني باشا ، أسئلة متعددة من بينها أسئلة ذات أهمية بالغة وطابع عسكري ، كان سليمان بك لا يرفع نظره عنها وكانت لاتغيب بنظرها عن الأمير فيصل لتراقب باستمرار رد فعله إزاء الأسئلة التي تطرحها والأجوبة التي تتلقاها .

فخ سارة

خرج المدعوون بعد الغداء ، إلى حديقة المنزل واجتمعوا حول بركتها . التي نجدها عادة في معظم البيوت الدمشقية تتوسط الحدائق المترامية حولها وانزوت سارة مع الأمير فيصل في أحد أركانها ، وبدأت معه حديثاً ، بلغة عربية جميلة قائلة : « لقد احضرت لكم سلاماً من والدكم » .

وفوجيء الأمير بهذا الكلام ، ترى ماذا تقصد هذه الفتاة الجميلة .

فقال لها : لم أفهم ما قلتيه يا آنسة ،

فتابعت سارة تقول : يا سعادة الأمير ، لقد حملني والدكم سلاماً لكم ويأمركم أن تتركوا الشام على الفور وتعودوا إلى مكة .

لم يفهم الأمير فيصل ما قالت سارة ، وراح يتأمل صديقة جمال باشا هذه ويحشى الوقوع في شباكها . ويفكر : هل من المحتمل أن يكون جمال باشا هو الذي أعد هذا الفخ له ؟

«يا سعادة الأمير إن والدكم يأمركم بالعودة في الحال إلى مكة» .

قالت سارة مكررة .

(١) على ذمة الكاتب .

فسألها الأمير : « كيف استطعت مقابلة والدي يا آنسة ؟ » .
وكان يعرف أن الاتصالات مع مكة تأخذ مدة طويلة من الزمن ،
فكيف لفتاة مثل سارة أن تقيم اتصالاً مع والده وبهذه السرعة .
وقالت سارة :
يا سعادة الأمير ، إن كنت ترغب في إرسال أي نبأ لوالدك فأنا جاهزة
لإرساله .

الانكليز أعداؤنا

صمت الأمير فيصل ، ثم قالت سارة فجأة :
« يا سعادة الأمير لقد اتصل ، والدكم الشريف حسين بالانكليز واقام
معهم علاقات ود وتفاهم . وسوف تصل إلى مكة في الأيام القليلة القادمة
بعثة انكليزية للتفاوض مع والدكم ومعكم . وإن حضور هذه البعثة إلى مكة
متوقف على جوابكم .
مرة أخرى لم يصدق الأمير فيصل ما يسمع : لاشك أنك تمزحين يا
آنسة ، فأنا ووالدي مواليين للحكومة العثمانية ، ونحن والمسلمون ملتفون حول
خليفتنا ولقد تعاهدنا على ذلك . إن الانكليز أعداؤنا ، فإذا يمكننا أن
ننتظر منهم ؟

فأجابت سارة : يا سعادة الأمير ، عليكم توقع مالا يخطر ببالكم من
الانكليز . ألا يسعى رؤساء القبائل العربية لتحقيق امبراطورية عربية على
الأراضي العربية ؟ أليس حلم العرب انشاء امبراطورية تمتد من جبال
طوروس وحتى بلاد اليمن ؟ إن الحكومة العثمانية آيلة للسقوط وهاهي الدول
الأجنبية تحلم باقتسامها ، فالروس يحلمون بالاستيلاء على البحر الأسود
ومنافذه ، وفرنسا تحلم بسوريا ولبنان ، ألستم على علم بكل هذا ؟ فبئس
سنوات قام تفاهم بينها وبين بعض السوريين واللبنانيين . والانكليز يريدون

الاستيلاء ، على كل المنطقة العربية ، من فلسطين مروراً بالسعودية ومكة والمدينة وجدة . ألا ترغبون في أن تكون هذه الأراضي تحت سيطرة أمة واحدة ! ألسنتم أولى الناس بسيادة هذه الأراضي باعتباركم أحفاد رسولكم محمد .

نحن موالون لجمال باشا

كان فيصل مندهشاً يكاد لا يصدق ما تقوله ، وما لبث أن عادت إليه المخاوف والشكوك فقال :

« كلا يا آنسة ، أنا سأدعم وسأساعد جمال باشا ، وسوف نقوم بإرسال ما لدينا من الجيوش إلى فلسطين ، لمساعدة ودعم قوات الباشا .

فضحكت سارة بصوت عالٍ وقالت للأمير : « يا الهي أيها الأمير ، أنا فقط أعلمكم بقرار والدكم . وأقول بأن عليكم الرحيل إلى مكة فوراً . وإن لم يحصل هذا ، فعلى الأغلب أنكم ستتأرجحون على أعواد المشانق التي يعدها جمال باشا . لاوقت لديكم ، أرجوكم عودوا إلى مكة ، أرجوكم .

فأجابها قائلاً : آنسة سارة ، لقد حيرتني ، كيف أتأكد من صحة كلامك وأنك فعلاً تحملين إلي رسالة من والدي ؟ أرجو المَعذرة ولكن كيف لي أن أصدق كلامك هذا ؟ أليس محتملاً أنك تخدعيني ؟

فأجابته سارة : هذا أمر يسير جداً يا سعادة الأمير . لو سمحتم ، بإمكانني أن آتيكم برسالة عليها ختم والدكم .

- وهل هذا ممكن حقاً ؟ سألها الأمير فيصل .

- طبعاً يا سعادة الأمير . وبأقصى سرعة ممكنة ، حاولوا أن تكونوا

على صلة مع جمال باشا ليكون أكثر ثقة بكم .

لأنهم ولا تقلقي بهذا الشأن يا آنسة !

عشيق أوديت

لم تشأ سارة إطالة الحديث مع الأمير ، فاصطحبته إلى جانب البركة حيث يقف سليمان بك ويتحدث بحماسة مع عوني باشا .
قالت سارة :

- ما الأمر أيها القائد ألم تستطع إقناعه ؟
- إقناع مَنْ يا آنسة ؟ وبماذا ؟ قال سليمان بك .
- ألم تستطع إقناع الباشا بالتعرف على السيدة أوديت ولقائها ؟
فضحك الباشاوات الذين كانوا ملتفين حولها .
كانت أوديت معروفة في تلك الأزمنة ، فهي سيدة متزوجة ، هربت من بيروت ، والتجأت إلى عوني باشا ، وأمطرت له دموعاً سخية ، لتقنعه بحبها له ، بعد أن التقت به في إحدى الولائم التي أقامها جمال باشا .
كانت السيدة أوديت متمية بالباشا ، تنتهز كل الفرص لتشرح له ذلك ، حتى أنه بدأ يشعر بالانزعاج وهاهي سارة الآن تسخر منه .
كان عوني باشا إنساناً مستقيماً ، وشريفاً وصاحب فضيلة .
ورغم أن معظم الباشاوات أقاموا علاقات مع الفتيات الموسويات ، إلا أن عوني باشا لم يتقرب إلى أي منهن . وتحاول سارة بالحديث عن أوديت والباشا ، أن تلفت انتباه الحاضرين إلى تعصب الباشا ، وتأكيد هذا الأمر أمام المدعويين .

ذهبت سارة إلى بيروت بعد لقائها بالأمير فيصل حيث التقت في اليوم التالي مع جمال باشا . وكان الباشا في تلك الليلة محتدداً . عاد الساعة ١٢ ليلاً إلى الكوخ وراح يحول في الصالون ذهاباً وإياباً ، وقد سيطر الغضب عليه . فتوجهت إليه سارة قائلة :

- ما الذي يزعجك إلى هذا الحد يا سعادة الباشا ، هل يمكنك أن تطلعي عليه ؟

فاجابها الباشا : إن السفن الفرنسية تجوب شواطئنا ، ذهاباً وإياباً
وتجري اتصالات مع بعض اللبنانيين الحقيرين .

إنهم يقولون للفرنسيين « نحن هنا مضطهدون والأتراك يقتلوننا » .
ويشتكون إلى الباب العالي علماً بأنني أساند المسيحيين في هذه البلاد أكثر
من المسلمين وأحبيهم .

إن المسيحيين هنا في رغد من العيش ، في حين أن المسلمين يموتون
جوعاً ، طبعاً لا أحد يرى هذه الأمور . وعلاوة على ذلك فالصحافة في
مصر تشن حملة دعائية مضادة بحقي ، سوف أضحى رؤوسهم كلهم .

- أنتم على حق يا سعادة الباشا ، يجب اعدام هؤلاء الاصلاحيين .
ومحركة ملؤها الغضب والثورة ضرب الباشا بعصاه على الطاولة
وصرخ بصوت غليظ :

سوف أعدمهم يا سارة ، سوف أعدمهم ، لن أدع خونة الوطن
يعيشون ، سوف أشق هؤلاء الكلاب أذنان الفرنسيين والانكليز . لا يمكن
لمثل هذه الأمور أن تستمر في وطني بل أنا لا أسمح بمحدثها أصلاً .

جمال باشا ينفتح للعب

استيقظ الباشا في صباح تلك الليلة باكراً وأرسل إلى الضابط
المسؤول بالأوامر التالية :

اجروا اتصالات فورية مع الالمان ، ليرسلوا إلى ساحل بيروت غواصة
أو غواصتين . لم نعد نحتمل تجوال السفن الفرنسية والانكليزية على امتداد
هذا الساحل . قدوم الغواصات إلى ساحل بيروت سوف يرفع من معنويات
الشعب . أبلغوا أوامري هذه إلى القيادة الالمانية .

وأثناء تناوله فنجان قهوته الصباحية أطلع جمال باشا سارة على
خطته : إن قدوم هذه الغواصات سوف يحسن من معنويات المواطنين ويزرع

الذعر في قلوب الخونة . ولن يستطيعوا بعد اليوم الاتصال بالسفن الفرنسية وسوف نسمع قريباً نبأ إعادة فتح خطوط الملاحة البحرية ، وتزول المجاعة من البلاد .

- إنها لفكرة رائعة ذكية يا سعادة الباشا ، لن تجرؤ السفن الفرنسية والانكليزية بعد اليوم على التجول قرب السواحل اللبنانية .

رفع المعنويات

لم يغادر جمال باشا الكوخ في ذلك اليوم ، وكان الضباط يأتون ويذهبون ويأخذون تعليماتهم من الباشا . وفي الوقت نفسه ، كان الباشا يجري اتصالاته مع القدس والمدينة والشام ويعطي أوامره للقائمين على قيادة تلك المدن .

وكان الضباط الالمان والنساويون يحملون أوامر جمال باشا إلى قياداتهم ويعيدون إليه أجوبتهم واقتراحاتهم ومشورتهم .

لم يوافق الالمان بادیء الأمر ، على ارسال غواصة إلى ساحل بيروت ، ولكن بعد اصرار الباشا الشديد وافق الالمان على تنفيذ طلبه .

ومع دخول الغواصة الالمانية السواحل اللبنانية ، قامت القيادة التركية والالمانية بإعداد مراسم احتفال خاصة لها ، حيث كان المواطنون قد اندفعوا إلى الساحل لمشاهدتها .

كان وصول الغواصة إلى بيروت حدثاً هاماً حقاً ، من شأنه رفع معنويات المواطنين ، إذ أنهم ، وبدخول الغواصة إلى ساحلهم ، شعروا بارتياح كبير وانبعث أمل انفراج أزمته في قلوبهم فدخلوا الغواصة إلى ساحلهم يعني لهم إعادة فتح الملاحة في تلك المنطقة وزوال الجوع من مجتمعهم . وهكذا لم نعد نسمع عن الخونة المتعاملين مع الفرنسيين ، وانقطعت صلاتهم وتوقفت الاتصالات التي كانوا يجرونها معهم .

لاشك، أن سارة ستكون من بين الذين سيزورون الغواصة البحرية
حتماً، فرافقت مجموعة من الطلاب والمحبين للامان وتوجهت إلى الغواصة، حيث
تم استقبالها بحفل رفيع المستوى، وفتحت زجاجات الشمبانيا على شرفها .

سارة تجمع المعلومات

استطاعت سارة ، بزيارتها هذه للغواصة الالمانية ، أن تجمع أكبر قدر
من المعلومات عنها ، حتى أن ما حصلت عليه من معلومات فاق ما كانت
تتوقع ، كانت سعيدة جداً في جولتها ذلك اليوم . وكانت ، بمعاونة أفراد
شبكة التجسس ، ترسل المعلومات التي تحصل عليها إلى السفن
الانكليزية، فقد كان الاتصال مع السفن الجاثية على بعد بضعة أميال أمراً
سهلاً في تلك الآونة .

كان ألكسي شقيق سارة من بين الضباط المسؤولين عن تلك السفن
الانكليزية ، وكان ينقل بدوره هذه المعلومات الوافدة من سارة ، إلى القيادة
العسكرية الانكليزية والجنرال اللنبي كما يمكننا أن نقول : إن سارة وشقيقها
كانا يقومان بأسرع وأهم اتصالات في ذلك العصر .

رسالة بالشفرة

بعد خمسة أيام ، وصلت رسالة إلى سارة طال انتظارها لها . كانت
مرسلة من أمير مكة الشريف حسين ، مكتوبة بالشفرة ، وموجهة لابنه
الأمير فيصل ، ورسالة أخرى تحمل أخبار الحدث الثاني الذي كانت سارة
بشوق لحدوثه إذ أبلغت بأن البحرية الانكليزية والفرنسية ، انطلقتاً من
سواحل اسكندرون ، بدأت تمطر نيران مدفعتها حتى سواحل فلسطين .

بعد أن كان وصول القوات الفرنسية والانكليزية إلى السواحل
السورية واللبنانية متوقعاً بين ليلة وأخرى .

لقد كان جمال باشا في حيرة كبيرة من أمره ، لايعرف ما يفعل أو

كيف يتصرف . الجيش في الجبهة جائع ، ومقاومته ضعيفة ، والقصف المدفعي طال كل السواحل ، زد على ذلك البرقيات المتضاربة التي ترد إليه من استنبول ، كل ذلك جعله يتخذ قرارات متعاكسة وارتجالية ، وقام باجراء تعيينات سريعة لتفادي الموقف .

كان في قرارة نفسه يخشى من فقدان سلامة الوطن ففي كل مرة يصدر فيها أوامر وتعليقات لصالح الوطن ، يحصل على نتائج سلبية غير مرضية .
فقرر جمال باشا ، جمع المسؤولين عن حركة الإصلاح في سوريا ولبنان ، والسياسيين والصحفيين منهم ودعوتهم إلى الجبهة في فلسطين .
ورغبة منه بإطلاع هؤلاء المسؤولين على واقع الأمور توجه إليهم بالخطاب التالي :

اخوتي المحترمين .

الحركات الإصلاحية حديثة العهد في بلادنا ، حتى في فترة ما قبل الحرب ، إن حزب الاتحاد والترقي ينادي بالحرية والمساواة والعدالة والتآخي ونحن أبناء الجمعية التي اسقطت المستبد السلطان عبد الحميد . غايتنا رفع راية الاسلام الواحدة ، وتجسيد الفكر الاسلامي الواحد على كافة الأراضي التركية .

إنكم اليوم تشاهدون أننا نقاتل العدو على كافة الجبهات . فلندع إلى الله عز وجل أن ينصر الدولة العثمانية في هذه الحرب ، وسوف تصلون إلى تحقيق اصلاحاتكم عبر هذا الطريق وهذا التفاهم . فكل من يثبت عليه تعاونه مع العدو سوف يقدم إلى المحكمة العرفية التي ستشكل في عاليه وسوف يحكم عليه بالإعدام دون تردد ، ودون هوادة .

سوء تفاهم

لم يكن لهذا الخطاب الذي ألقاه جمال باشا في الجبهة وقع طيب في صفوف مستحقيه من الاصلاحيين . فلقد قوبلت عباراته التهديدية ببرود وحذر شديدين .

وتوصل الاصلاحيون إلى القناعة التالية : « لقد دعانا جمال باشا لكي يهدنا »

وحقيقة الأمر ، أن جمال باشا ، كان يهدف من وراء زيارته ودعوته لهؤلاء المسؤولين والإصلاحيين ، إطلاعهم على قوته وواقع الجيش في الجبهة ليس إلّا ، وأما سبب التهديد الذي بدر منه في نهاية الحديث فكان يقصد به من يقيمون اتصالات وعلاقات مع الانكليز والفرنسيين . وعلى أثر ذلك ، وجد الإصلاحيون ضرورة التفاهم السريع مع الانكليز والفرنسيين خوفاً من تهديداته المبطنة .

الدولة الموسوية

بعد أن قام جمال باشا بزيارته للجبهة الفلسطينية برفقة الإصلاحيين وإطلاعهم على واقع الأمور ، عاد إلى بيروت . كانت سارة بانتظاره هناك . وفي تلك الأثناء ، كانت السيدة الشابة قد أجرت اتصالات ومقابلات مع الإصلاحيين الدروز والمسامين ، ورؤساء التجمع الأرمني ، واطلعت بمساعدة عملائها على الوضع الداخلي في لبنان . ولم تكن تتأخر عن إبلاغ الانكليز عبر تقاريرها عن الأوضاع الداخلية في البلاد وكل التحركات بعد أن أخذت دائرة الاحتجاج والغليان بالاتساع .

لقد كانت سارة تعمل لحساب الانكليز ، ولكنها في حقيقة الأمر ، كانت تعمل على إزالة الإمبراطورية العثمانية من فلسطين ، وتأسيس دولة موسوية مركزها القدس .

وكانت التجمعات الموسوية تعمل ، لا لكي تحصل على امتيازات ومكاسب مادية أو مالية ، بمواجهتها للأتراك والالمان في القدس والشام ، بل هدفها الأول والأخير هو « الدولة الموسوية » وهذا هو السبب الرئيسي لتعاونها مع الاستخبارات الانكليزية .

خبيثة أمل سارة

غير أن ثقة الموسويين بالانكليز لم تكن عميقة . لأن الانكليز كانوا يتفاهمون مع الدروز والعرب حول منحهم أراضي من الإمبراطورية العثمانية ، لقاء مساعدتهم لهم .

وكان هذا يقلق الصهاينة وخاصة سارة التي كانت تعتبر الأمر مشكلة كبيرة وخبيثة أمل بالنسبة لها ، فكانت تعتقد بأنه لا يجوز ترك هذه الأراضي للعرب لذلك كانت تفكر في وسيلة للسيطرة على العرب واحتلالهم .

وتعتقد أن التقسيم على نحوه الأفضل ، يجب أن يكون باعطاء فلسطين وضواحيها للموسويين ، مكة والمدينة وأطرافها للشريف حسين ، سوريا ولبنان للفرنسيين .

ولا يمكن تحقيق الحلم الذي يعيش في مخيلة الموسويين منذ ألفي سنة ، إلا بهذه الطريقة . كما تعتقد أنه يمكن التفاهم مع العرب على هذا التقسيم حيث أن هناك صلة قرابة بينهم وبين العرب .

وعلى كل حال ، ليس عند العرب ما يقتسمونه مع الموسويين . والملتان العربية والموسوية من أصل واحد ، فواحد قد اعتنق الاسلام والآخر بقي موسوياً .

المهم الآن العمل على إنشاء دولة موسوية . ولتحقيق ذلك ، لابد للموسويين من التعامل والتفاهم ، ليس فقط مع الانكليز ، بل مع العرب أيضاً .

هل فيصل رهينة ؟

بعد بقاء سارة بضعة أيام بصحبة جمال باشا في بيروت ، توجهت معه إلى الشام ، حيث كان الأمير فيصل ينتظر هناك . وكانت سارة ترى بينها وبين نفسها ، أن الأمير فيصل ، ليس مجرد ضيف زائر عند جمال باشا ، بل هو رهينة لديه . فلقد كانت الأحداث المتتالية تبعد جمال باشا عن الأمير فيصل وتزيد الهوة بينهما . ومن ناحية أخرى ، كانت الاتصالات والمشاورات بين الشريف حسين وأنور باشا في أوجها .

إضافة إلى الاتصالات بين أنور باشا وجمال باشا التي كانت تهدف إلى التنسيق بينها لزيادة وتعميق الارتباط مع الشريف حسين على الصعيد المعنوي على الأقل . وكان محتوى التقارير التي قدمها سليمان العسكري للباشا ، يدور حول هذه النقطة بالذات : التفاهم العربي التركي . كما أن هناك تقارير أخرى مختلفة وتتلخص كلها في موضوع واحد يدل على أن ثورة الشريف حسين المسلحة باتت قريبة الوقوع وعلى أثر ذلك ، كان جمال باشا يتريث ويترقب ما سيفعله الشريف حسين وابنه الأمير فيصل ، بصدده هذا التفاهم المرجو مع العرب .

سارة والاعتماد عليها

عند عودة سارة إلى الشام ، أقام عبد الرحمن باشا مأدبة غداء على شرف الأمير فيصل ، دعى إليها جمال باشا ، كما دعى أيضاً سارة . غير أن جمال باشا لانشغاله بأمر عديده ، لم يتمكن من حضور هذه الحفلة . فذهبت سارة بمفردها إلى الحفلة ، والتقت للمرة الثانية بالأمير فيصل في منزل عبد الرحمن باشا وبعد تناول الغداء ، انتهزت سارة الفرصة ، واقتربت من الأمير فيصل وأعطته الرسالة التي وصلت من والده ، فسر بها

من ناحية ، وساورته من ناحية أخرى مخاوف وشكوك كبيرة ، وسط أفكار
لا تجد لها رصيفاً ترسو فيه . حيث لم يكن يجرؤ على الاعتداد على سارة .
فهذه الفتاة اللعوب التي ترقص بين أيدي الباشا ، يمكنها أن تغدر به
هو أيضاً وتخونه ... في هذا الصراع الداخلي ، أخذ الأمير فيصل الرسالة
ووضعها في جيبه دون أن يقرأها فقالت له سارة : هذه الليلة لن أتحدث إليكم
مطولاً ، كل ما أريده هو أن تكون جاهزاً للرحيل . بعد تأكيدكم من أن هذه
الرسالة فعلاً من والدكم ، يمكنكم الاعتداد علي .
أرسلوا أحداً من طرفكم لعند السيد كومباس ، صاحب محل
التصوير في سوق الحميدية ، وختمت سارة كلامها بهذه الجملة .
وخرجت من منزل عبد الرحمن باشا وتوجهت مباشرة إلى فندق قصر
الشام حيث كان جمال باشا بانتظارها هناك ، وعند وصولها ، ابتعد الضباط
الذين كانوا يحيطون بالباشا وقالت سارة للباشا : لقد قابلت الأمير فيصل في
حفل غداء عبد الرحمن باشا ، وكان وجهه شاحباً ، ولم تكن ملاحظته تشير إلى
أنه صديق لكم ، أعتقد أنه يبحث عن أول فرصة للهرب .
فعقب جمال باشا على كلام سارة هذا قائلاً : أنا أيضاً ، في هذه الآونة
الأخيرة بدأت أشك بكل شيء وبكل من حولي ، هناك أمور غريبة وعديدة
تحدث في بيروت والشام والقدس ومكة ، ولا أعرف أيها صحيح وأيها زائف .
فالكل يرمي بالتهمة والافتراءات من حوله ، والكل يراقب غيره ويأتيني
بمعلومات عنه ، ونحن الآن في مرحلة حياة أو موت .
هدفنا الأول هو سحق أعدائنا على الجبهة ، كما علينا بقناعاتي لتحقيق
ذلك ، عدم اشارة البلبلة بتوقيفنا لبعض الشخصيات واعدائهم علينا
انتظار نتيجة هذه الحرب .

كان قُبد من اعطاء الوثيقة

قررت سارة على ضوء موقف الباشا ، تزويده بمعلومات من شأنها أن تؤدي إلى توقيف بعض الشخصيات العربية .

ولكي توصل للباشا معلومات تدفعه للقيام بتوقيف وإعدام بعض الشخصيات العربية . فلا بد من الاتصال بالقيادة الانكليزية وإطلاعهم على الأمر ، والعمل على احداث تصدع بين العرب والأترك لقسم ظهر هذا التفاهم القائم بينهما ، وكان عليها إيجاد حجج ومعلومات مقنعة بحق بعض الشخصيات العربية لدفع جمال باشا للتصرف إزاءها .

استيقظ جمال باشا باكراً ، في فندق قصر الشام الذي يقيم فيه ، وأثناء تناوله القهوة الصباحية ، دخل شاب يحمل مصنفاً سله للباشا . أخذ جمال باشا المصنف وقدمه لسارة التي كانت تجلس أمامه . وقال لها :

- اقري لريا سارة . كانت سارة بمثابة السكرتيرة ومديرة أعمال الباشا . وكانت مسرورة جداً لهذه الثقة المطلقة التي يعطيها الباشا لها . فاحتنت نحو الباشا مبتسمة وقالت : كما تأمرون يا سعادة الباشا .

أخذت سارة الملف المروّس بعبارة سري للغاية وشرعت بقراءة الأوراق الواحدة تلو الأخرى . ويا لهول ما كانت تحتويه هذه الأوراق !

طاهر باشا ، قائد الحجاز ، يطلب معونات مالية وامدادات تموينية . ويوصي بالحذر من تحركات العرب واتخاذ تدابير لازمة بهذا الشأن .

جمال باشا الصغير (المرسيني الأصل) يعلم الباشا بوقوعه تحت نيران العدو على الساحل الفلسطيني ، ويطلب من الباشا الاسراع بتنفيذ الحملة الثانية على القناة ، قبل أن تتمكن القوات الانكليزية من الدخول إلى الساحل الفلسطيني ، كما يشتكي من القادة الألمان وذلك بسبب الخلافات الموجودة بينها .

وفي برقية أخرى ، نبأ إنبهار الجبهة العراقية ، بالإضافة إلى كل هذا ،

هناك طلبات وشكاوى من ضباط وجنود الجيش الرابع .

سارة علمت بامور كثيرة

لقد كانت هذه الأنباء والمعلومات قيمة جداً ، حاولت سارة أثناء قراءتها لهذا الأوراق ، تدوينها قدر الامكان في ذاكرتها مبدية عدم اكتراثها أمام الباشا .

وبعد انتهائها من قراءة الملف ، وقفت سارة وأعطت الملف للباشا قائلة : « هل أنت مسؤول عن كل هذه الأمور ؟ لاشك أنكم سوف تخرجون من هذا المازق وسوف تحلون كل هذه المشاكل . إن شاء الله النصر لكم » .
بعد برهة ، نزل الباشا إلى الطابق السفلي ، ودخل إلى مكتبه . حيث كان هناك اجتماع معقود بين الضباط الالمان والأتراك ، تمت فيه مراجعة أمور الحملة العسكرية الثانية على القناة .

وبعد أن حصلت سارة على بعض المعلومات الاضافية حول عصيان بعض العرب للأتراك ، قامت بإرسال كافة المعلومات والتقارير إلى الانكليز ، محاولة ، بالتعاون معهم ، العمل على توسيع هوة الخلاف بين الأتراك والعرب .
أما الأمير فيصل ، فقد ظل أشبه برهينة ، في ضيافة جمال باشا بالشام .

سوف نترك هؤلاء الثلاثة . جمال باشا وسارة والأمير فيصل ، لبرهة في الشام ، لنلقي نظرة على روسيا ، إلى موسكو حيث تُتخذ في أيامنا هذه قرارات هامة بشأن جمال باشا .

الروس أيضاً يريدون إسقاط الإمبراطورية

خلال الحرب العالمية الأولى ، كانت لروسيا مطاعم في أن تستولي على مدينة استنبول ، لذلك كان الروس يخططون ومنذ فترة طويلة لإسقاط الحكم العثماني ، وكان لابد ، لتحقيق ذلك ، من اللجوء إلى وسيلة تمكنهم من إسقاط هذه الإمبراطورية ، ووجدوا ضالّتهم المنشودة في جمال باشا ، أحد أقوى الباشاوات في حزب الاتحاد والترقي، علاوة على توليه منصب وزير البحرية وقائد الجيش الرابع ، الذي كان على خلاف دائم مع طلعت باشا وأنور باشا . وكان جمال باشا قد وطّد علاقات حميمة بينه وبين الأمراء ورؤساء القبائل العربية ، مما يحوّله ، عندما يرغب بذلك ، أن يصبح سلطاناً بمساعدة ومؤازرة هؤلاء العرب .

ومن خلال هذه التكهّنات وهذه الشفرة ، بدأ الروس تحركاتهم واتصالاتهم بكل من فرنسا وإيطاليا للوصول إلى جمال باشا ، واصطياده من خلال طعم يرسلوه عبر قنواتهم الخاصة عارضين عليه امتيازات ومغريات وتأيينه ، إذا قام بالعصيان على حكومته وإعلان استقلاله ليكون سلطاناً على العرب .

العصيان وشروطه

- ١ - اعلان جمال باشا سلطاناً على البلاد وهذه السلطنة سوف تؤول إلى أبنائه من بعده .
- ٢ - يمتد سلطانه على البلدان التالية : سوريا ، فلسطين ، العراق ، عربستان ، كيليكيا ، أرمينيا ، كردستان وسوف تعترف الدول الكبرى بشرعية واستقلال الدولة التركية هذه .
- ٣ - على جمال باشا أن يتعهد بإعلان العصيان على الحكومة مدعياً بأن السلطان واقع تحت سيطرة الالمان ويجب ازالته عن الحكومة.
- ٤ - ستقوم الدول الحليفة ، عند شروع الباشا بالسفر إلى استنبول لاسقاط الحكومة ، بتزويده بالسلح والأرزاق ، وسلح المدفعية .
- ٥ - بانهاء الحرب العالمية الأولى ، ستقوم الدول الحليفة ، بدعم الباشا مالياً على أن يوافق جمال باشا على تسليم مدينة استنبول والمضائق على الشواطئ التركية إلى الروس .
- ٦ - على جمال باشا أن يتعهد ، ومنذ الآن ، بحماية الأرمن ، وامدادهم بالطعام ومستلزمات حياتهم ، وأخذ التدابير اللازمة لتنفيذ ذلك، حتى نهاية الحرب العالمية القائمة حالياً .

الاضطرابات مفيدة

وقامت وزارة الخارجية الروسية ، بعد أخذ موافقة ودعم الحكومة الروسية على الشروط المذكورة أعلاه ، في الخامس والعشرين من تشرين الأول عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، بإرسال هذه المذكرة إلى حكومة باريس وروما بواسطة سفارتيهما في روسيا .

بالإضافة إلى ذلك ، قام وزير الخارجية الروسي ، سazanوف ، بإرسال هذا الخطاب ، لاحقاً للمذكرة ، إلى سفراء روسيا في مختلف البلدان ، حيث

جاء فيها ما يلي :

« يجب تسخير كافة ومختلف أنواع الاضطرابات الداخلية لمصلحتنا ،
ولإضعاف قوة الحكومة التركية ولهذا السبب ، يجب حمل الأرمن المخلصين
لنا ، على ضرورة الدخول في اتصالات مع جمال باشا بشكل سري .
وحتى في حال عدم تمكن جمال باشا . من طرد الألمان من البلاد فإن
إشارة البليلة في أركان الحكومة العثمانية مفيد لنا .
عليكم إطلاع وزراء خارجية الدول التي أنتم فيها على هذا الوضع
وبشكل سري وإرسال ردودكم بالسرعة الممكنة .»

كان وزير الخارجية الروسي سazanوف يرغب بخطابه هذا ، اعلام سفرائه
في باريس وروما بالوضع الراهن ، واعطاءهم التعليقات اللازمة ، لإطلاع
الدولتين الحليفتين لروسيا على نوايا وخطط الحكومة الروسية في ضوء الوضع
الراهن بالبلاد خلال الحرب القائمة .

وهكذا ، تلقى سazanوف ، في السادس والعشرين من شهر كانون الأول
عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ، البرقية التالية ، من سفارة بلاده في روما
جاء فيها :

« بناءً على افادة مسؤول من الجالية الوطنية الأرمنية ، يدعى
زافريف ، فإن اثنين من أعضائها ، أحدهما روسي الأصل والآخر انكليزي ،
سيتوجهان إلى مصر بدعم من شخصيات أرمنية قريبة الصلة بالحكومة ،
أعربا عن استعدادهما للدخول في مشاورات مع جمال باشا أرجو أخذ العلم
واعلامي بموافقتكم »

وجهة النظر الإيطالية

بعد مرور يومين من تلقيه لبرقية روما ، استلم وزير الخارجية الروسي
سazanوف من سفيره في روما البرقية التالية :

نتيجة للاتصالات التي أجريتها هنا ، مع شخص يُدعى سوينتو ، أرى أنكم ، إن كنتم واثقين من موافقة جمال باشا على شروط مذكرتكم ، بعيدو النظر وأن خطتكم سديدة ، هذا ما قاله لي أيضاً السيد سوينتو :
فهذا نحرّم الانكليز من تحقيق مطامعهم ، بدعّم من الألمان ، على الأراضي المصرية ، من هاتين البرقيتين نستنتج أن الحكومة الإيطالية موافقة على قيام جمال باشا بالعصيان ، واعطائه لقب ومنصب السلطان .
وبعد مرور فترة قصيرة ، تلقى سazanوف الرد التالي من سفيره في باريس أ . ب ايزفوليكى جاء فيها :

« أبلغت برقيتكم لسعادة بريان وزير الخارجية الفرنسية فأبدى اهتمامه الشديد للاجتماع الذي سيتم مع جمال باشا ، وأوصى بعدم إضاعة الوقت ، والشروع فوراً بتنفيذ المخطط ، وسيقوم بدوره بعرضه على مجلس الوزراء لإطلاعهم عليه . »

وبعد يومين من ورود تلك البرقية إلى سazanوف ، أعلن في باريس قرار مجلس الوزراء على النحو التالي ، والذي نقله سفير بلاده هناك :
« نتيجة لاجتماع المجلس ، والمداولة مع الوزير بريان ، والذي أطلعته على أهمية الاجتماع المرتقب مع جمال باشا ، ترى الحكومة الفرنسية أن هذا المخطط حسب تصورك وتحضيركم له ، لايتوافق مع وجهة نظرها ومخالف لسياستها في المنطقة . »

روسيا والمخافذ البحرية

على ضوء الخطة التي وضعها الروس ، بخصوص الأراضي التي سيسلمها جمال باشا لهم عند توليه السلطنة ، طالبت فرنسا بتسليمها سوريا وفلسطين وقسم من كيليكيا لقاء دعمها هذه الخطة ، التي ستمنح روسيا استنبول والشريط الساحلي بأكمله ، وطلب فرنسا هذا لم يكن يحظر

ببال ، وبات لابد من مراجعة الخطة وإعادة النظر فيها .
فالفرنسيون متمسكون بمطلبهم في الحصول على سوريا وفلسطين
وكيليكيا وانكلترا من ناحية أخرى تعارض أن تقوم دولة عربية كبرى . حتى
أنها دخلت في مناقشات حول هذا الموضوع مع الشريف حسين في مكة .
ولقد صرح بريان في رأيه لي بعدم ثقته بموافقة جمال باشا على تنفيذ هذا
الخطط .

وكان ردي أن الهدف من وراء هذه الخطة ، حتى في حال فشلها ، هو
نشر بلبلة في كيان الحكومة التركية وإضعافها ، وأن حكومتي لن تحمل
مصالح انكلترا وفرنسا في هذه المنطقة .

كما أن الهدف الأخير ، هو نسف أحلام الألمان في منطقة الشرق هذه ،
وذلك بمجرد ظهور عصيان داخلي في البلاد ، الأمر الذي يشكل الهدف الأول
والأخير والهام لحكومتي ، ذلك ما قلته لبريان .

« أما بريان فكان يرى ، بعد أن أطلعته على أهداف حكومتي من
هذه الخطة التي وضعتها ، أنه لا ضرر من مناقشة خطة وزير الخارجية
الروسي حول الاجتماع المرتقب مع جمال باشا ، ولكن بشرط أن لاتتخذ
الحكومة الروسية أية قرارات بشأن سوريا وفلسطين ، وأن تتعهد في الوقت
نفسه ، باعطاء الفرنسيين حق تقرير مصير هاتين المنطقتين . » .

وكتب وزير الخارجية الروسي سazanوف ، الرد التالي ، إلى سفير بلاده
في باريس في الثلاثين من كانون الأول من العام نفسه جاء فيه :
« أرجو أن تطمئنوا السيد بريان بأنني لأقبل الاجتهاد بحق أية دولة
ساعدتنا في زمن الحرب ، ولن تنسى روسيا الدول التي دعمتها وساعدتها في
هذه المرحلة .

إنني أرى ضرورة موافقة وزير الخارجية الفرنسية على هذه الخطة ، كما

أطلب منه ايضاحاً حول الشروط الفرنسية » .
وفي نفس اليوم ، استلم سazanوف الرد التالي من سفير بلاده في لندن
السيد أ. ب بنكندورف جاء فيه :
« لقد أعلمني وزير خارجية انكلترا السيد غري تأييده لإضعاف
المقاومة التركية بإثارة البلبلة والاضطرابات الداخلية ، غير أنه أبدى تخوفه
من عدم توفر الوسائط الكافية لإقناع جمال باشا بتنفيذ هذا المخطط . كما
أشار إلى نقطتين هامتين ، أولها تتعلق بالبصرة ، فالحكومة الانكليزية التي
تسيطر حالياً على هذه المنطقة ، لا ترى أن تلتزم بإعادتها للحكومة التركية
مستقبلاً بعد تنفيذ مخططنا ، والثانية تتعلق بالمناطق المقدسة في الحجاز
واستقلال عربستان ، فلا بد للعرب ، بعد الحصول على دولتهم ، من مراجعة
الحكومة الانكليزية لاتخاذ قرار بشأنها وقد تقدموا بطلب الاستقلال رسمياً
إلى الحكومة الانكليزية .

كما أن الحكومة الانكليزية ، ومن خلال تعهداتها واتفاقياتها مع
الحكومة الفرنسية بشأن سوريا ، لن ترضى بقيام دولة عربية في تلك المنطقة.
وسألته ، كيف يمكن تنبيه جمال باشا إلى مخطط العرب ؟
فأجابني قائلاً :

«عندما يرى جمال باشا أن العرب تحالفوا معنا وأصبحنا مجموعة
واحدة فسوف لا يستطيع عمل شي ، إلا أن يتأشى مع العرب وهكذا ستتعمق
هوة الكراهية بينها ولا داعي لأن نقوم بأي اجراء» .

وفي الأول من كانون الثاني عام ألف وتسعمائة وستة عشر ، أرسل
سفير روسيا في باريس ايزفولكي لوزير خارجيته سazanوف ، الرسالة التالية :
وصلتني برقيتكم ، واطلعت السيد بريان على محتوياتها ، الذي أكد لي
ثانية بأنه ، رغم قناعته بالدور الذي سيلعبه جمال باشا ، ورغم اعتقاده بأن
هذه الخطة قد تكون حقاً من قبل جمال باشا ، يصير على شرط اخضاع سوريا

وكيليكيا وفلسطين للحكومة الفرنسية ، بعد حصولنا على استنبول والشريط الساحلي ، لكي توافق حكومته على خطتنا بخصوص الاجتماع بجمال باشا .

« وخلاصة القول إن برقيتكم الأخيرة التي وجهتموها لبريان كان لها أثر بالغ ، واستطاعت أن تهدىء قليلاً من روعه وشكوكه . »
وفي العاشر من كانون الثاني من العام نفسه ، وصلت برقية عاجلة ، من سفير روسيا في لندن بنكندورف ، مفادها :

« لقد أعلمني السيد غري ، بما أنه ليس من الممكن إجراء محادثات مع العرب والأرمن في الوقت نفسه ، فإنه يرى تكليف الحكومة الفرنسية بتبني المحادثات الأرمنية من جانبها . وأعلمني أيضاً بأنه نظراً لاستحالة قيام محادثات بين الانكليز والعرب في عربستان والعراق ، والأرمن في سوريا وآسيا الصغرى ، فإنه يرى ضرورة ربط الحكومة الفرنسية بهذه المحادثات لضمان استمرارها وتحقيقها . »

وقال لي أيضاً : « إذا كان الأرمن يرغبون بإجراء محادثاتهم في مصر ، فإن بإمكان موفدهم زافريف مقابلة ممثلي الحكومة الفرنسية في القاهرة . من ناحية أخرى أعتقد أن المحادثات بين العرب وجمال باشا ستكون صعبة . »

انطاق

إثر تلقيه هذه البرقية ، قام سazanوف ، بتوجيه البرقية التالية على الفور إلى سفير بلاده في باريس جاء فيها :

« أنا أيضاً أدم فكرة تكليف الحكومة الفرنسية برعاية الاجتماع المرتقب بين الأرمن وجمال باشا . أرجو أن تتفاهم مع بريان حول هذه النقطة وتضعوا الترتيبات اللازمة . »

أما فيما يتعلق بمصير سوريا ، فإنني سأترك لفرنسا أمور إدارتها

حسب ما أراه ضرورياً ، أرجو اعلام بريان بذلك وأن تذكر له أنني لم أنس الأمر ، أرجو اعلامي بتفاصيل وقائع الاجتماع عند حصوله »

وهكذا ، في حين كانت الاتصالات جارية على قدم وساق بين روسيا وانكلترا وفرنسا وايطاليا ، حول احتمال اعلان جمال باشا للعصيان وتنصيب نفسه سلطاناً للبلاد ، كانت الهيئة الصهيونية في لندن ، على اطلاع وثيق بكافة مجريات الأمور ، من شبكة التجسس الانكليزية التي يعمل فيها الأخ الأكبر لسارة ، آهارون أرونسون ، الذي أوصى بالتدخل السريع لانقاذ حلم الموسويين المشرف على الزوال .

فقامت الهيئة الصهيونية بإجراء اتصالات مع وزير الخارجية الانكليزي من طرف ، وبدأت سارة من طرف آخر ، بالعمل على نشر روح الكراهية والعداء بين العرب والأتراك ، بإعطائها تعليقات للتحرك هنا وهناك وسط شبكتها الجاسوسية .

غير أن ، خطة اعلان جمال باشا للعصيان وتولييه منصب السلطان ، كانت قد نسفت أحلام الموسويين بانشاء دولة لهم في فلسطين من الوجود .

الدولة الموسوية

لأن الموسويين كانوا قد حصلوا من الانكليز على وعدٍ قاطع قبيل الحرب بإقامة دولة لهم على الأراضي الفلسطينية بعد إخراج العثمانيين منها . إلا أن الخطة الروسية ، ستترك هذه الأراضي لجمال باشا ، وسوف يستمر جمال باشا بالحكم والسيطرة على هذه الأراضي ، هل هذا شيء مقبول ؟

وغضب الصهاينة من مطالب الروس والفرنسيين والايطاليين هذه . ولما كانت الغاية تدمير الإمبراطورية العثمانية ، فما هو لزوم تنصيب جمال باشا سلطاناً للبلاد ؟ مع أن الصهاينة الموجودين في فلسطين والاستخبارات

الانكليزية، كفيّلون باحداث اضطرابات داخل الأراضي العثمانية وأن بإمكانهم حرق الإمبراطورية العثمانية من الداخل ومحو كل أثر تركي عليها .
ونتيجة لخطّة الروس هذه فقد احتدمت المناقشات في وزارة الخارجية الانكليزية مع ممثلي الصهيونية بينما كانت سارة في الشام بحالة من القلق الشديد وتحسب للموضوع ألف حساب .

جاسوسان

جاءت الآنسة سيمون ، في الصباح ، لزيارة سارة في مكان إقامتها بفندق قصر الشام ، متوترة بعض الشيء .
كانت أكبر شبكة جاسوسية في العالم تتجسد في هاتين المرأتين اللتين اقتربتتا من بعضها البعض ، وقبلت واحتضنت الواحدة منها الأخرى .
- أهلاً وسهلاً بك يا سيمون ، قالت سارة .
- وبك ياسارة ، أجابت سيمون .
- اجلسي لنرى ... خيراً إن شاء الله هل هناك أمر سميء ؟
- أجل ، سميء جداً . هناك رسالة لك من آهارون ، هل أستطيع إعطاؤها لك ؟ هل هناك أحد ؟
- كلا ، يمكنك أن تعطيني الرسالة ، فلا أحد يمرؤ على الدخول إلى هنا . فهنا مكتب جمال باشا الخاص ...
وأطلقت المرأتان ضحكاتها ... وأخرجت سيمون الرسالة من حقيبتها وأعطتها لسارة ويدها ترتجفان . وبعد أن اتكأت سارة على الأريكة ، فتحت الرسالة وبدأت بقراءتها :
اخوتي العزيزة ، سارة
إن ما قدمته كان موفقاً ، إلى حد أنه سلب عقولهم . إني أتوجه إليك برسالتي هذه لأنك أعظم فرد في أسرتنا ، ولأن الكتابة إليك هو شرف عظيم

لي وسرور لايوصف .

إنك تعرفين أن جذورنا العرقية والدينية في هذه الأراضي التي ورثناها عن أجدادنا ، وهجرتنا إلى هذا الوطن ، كان لها ثمن غال دفعه أجدادنا وآباؤنا.

إن كل الجاليات الموسوية على وجه الأرض ، وكل الخزائن الموسوية في هذا العالم قد وضعت وتُخزنت لهذه الغاية ، وصُرفت الملايين من القطع الذهبية لتحقيق هذا المأرب كما هيأنا للسلطان عبد الحميد الملايين أيضاً من القطع الذهبية التي رفضها بكبرياء وعنفوان لذلك حرصنا على عزله عن عرش الخلافة .

وغداً ، لو استطاع الأتراك أن يمتلكوا قوة ونفوذاً كبيرين ، فستكون عاقبتنا وخيمة أو لو أن سلطاناً مثل جمال باشا تولى الحكم ، فإن أحلامنا السعيدة تلك ستتهار ، وستنقلب هذه الديار المشمسة ، ظلمات لنا.

ولكن ، لاتستسلمي للقلق ولاتنصتي للوسواس . فنحن أصحاب الثروة وأصحاب النفوذ في هذا العالم ، لن نعود ثانية إلى تلك الظلمات .

عليك أن تفهمي الطلائع الصهيونية في فلسطين ، أن كل امرأة في هذا الوطن ، كل شاب ، كل رجل ، كل فتاة ، كل طفل ، عليهم العمل على اخراج هؤلاء الأتراك من البلاد .

فعلى الفتيات الشابات هدر شرفهنّ وعفتهم في سبيل هذا الوطن . وعلى الشبان بذل دمائهم من أجله ، والأغنياء عليهم أن يهبوا أموالهم وأملاكهم .

لن نسمح بعودة تلك الأيام السوداء ثانية التي دامت على مر العصور ، وسوف نعمل جاهدين من أجل انشاء مملكة داوود ومن أجل يهو . أما الانكليز الذين يعملون اليوم معنا ، سوف يقعون غداً تحت الضغوط الروسية والفرنسية والدول الحليفة ، وسوف ينكثون بعهدهم الذي

قطعه لنا ، نتيجة لذلك .

وفي حال عدم موافقة الباشا على خطة الروس بإعلانه العصيان وتولييه منصب السلطان ، وإذا تراجع الانكليز عن وعودهم لنا بنتيجة ضغط حلفائهم أو خوفهم من خسارة الحرب . فهل نحن قادرون على دفع جمال باشا إلى إعلان الاستقلال بالمنطقة ؟ وهل يقبل الروس بمثل هذا العرض ؟ لا يمكننا كشف ما تخبئه السياسة للمستقبل ولا معرفة أحداها مسبقاً ، فكل الاحتمالات واردة .

علينا أن لنعتمد على غيرنا في تنفيذ أمورنا ، بل علينا أن نعتمد على أنفسنا وقدراتنا ، علينا أن نجتهد ونعمل على نشر روح العداء بين العرب والأترك على كافة الأراضي العربية . علينا أن نجعل العرب والأترك يقفون وجهاً لوجه .

« بالمناسبة ، كلف الانكليز الشريف حسين بتولي أمور العرب ، عليك أنت ، أن تحاولي ارسال ابنه الأمير فيصل إلى جدّة ، فإن ثلاثة من الشخصيات البارزة من الخارجية الانكليزية سيوزرون جدّة في وقت قريب » .

أحرقت الرسالة

بعد أن انتهت سارة من قراءة الرسالة ، وضعت لفافة سيجارة في فمها ، وأضرمت النار في الرسالة بعود ثقاب ووسط لهيب النار انكشفت الرسالة على نفسها فأخذتها قبل أن تنطفئ ، وأشعلت بها سيجارتها .
محتويات الرسالة جعلت سارة تسكن قليلاً ، فأخذت سحبة من سيجارتها والتفتت إلى الأنسة سيمون قائلة :

ليس هناك ما يقلق في هذه الرسالة ، اسمعي يا سيمون ، لأعتقد أن جمال باشا ذلك المغرور ، الجريء الشريف ، يقبل بالامتثال لطلب الروس أو الفرنسيين وينفذ مطلبهم بإعلانه العصيان وتولييه منصب السلطان .
قد تحمل هذه الأوضاع جمال باشا على الانتحار ، ولكن أن يخون وطنه ، هذا أمر مستحيل .

صحيح أنه ليس على وفاق مع أنور باشا وطلعت باشا ، وهو يحاول
جاهداً تجنب الأذى الذي يُوجّه إليه من الحزب ، ولكن كل ذلك ليس كافياً
لدفع جمال باشا لخيانة وطنه .

أنتِ اعلم بذلك ... قالت سيمون .

وسحبت سارة نفساً آخرأً من سيجارتها ، ونفثت الدخان في الهواء ،
وراحت تتأمل الدوائر الدخانية المتصاعدة .

- أمامك الآن مهمات يا سيمون . أما أنا فسأرى فيصل وأقابلة . إن
فيصل هو في راحة يدي . إننا أقوى من الجيوش الانكليزية والفرنسية ،
لأتهمني لتلك الأمور .

أول أمر علينا انجازه ، هو إرسال الأمير فيصل إلى والده ، لتسهيل
عقد اتفاقهم مع الانكليز . يجب أن تتسلط على كل ضابط تركي فتاة
موسوية تقدم كل ليلة الخمر والتسلية ، فالضباط الأتراك مهوسون بمثل
هذه الأمور . فالنساء والخمر هما من المفقودات التي لا يجدونها في البرية ،
وهذان الأمران متوفران لدينا بشكل كبير .

فقاطعتها سيمون قائلة :

إن المجموعة في زمارين بانتظار أوامرك . وهناك كمية كبيرة من الخمر
في مستودعات ومعمل عتليت . لقد اتخذت التدابير كافة في الكُنس
والمزارع ، وجيش الفتيات الشابات رهن أوامرك .

- اعلم ذلك ، اعلم ذلك ، قالت سارة لسيمون

- هيا ، لاتتأخري أكثر من هذا ، اذهبي إلى المصور كومبياس في
سوق الحميدية ، فمن المتوقع قدوم أحد رجال الأمير فيصل ليترك لي خبراً
عنده . فجرد وصول هذا النبأ ، اطلبي من كومبياس أن يعلمني به فوراً .

قبلت سارة وجنتي سيمون وقالت : فلتكن عيونكم صاحبة ، متأهبة ،
وحذار أن ترتكبوا أي خطأ . إن مهمتنا هو أن نكون عاشقات . العشق

جميل أليس كذلك يا سيمون ؟ وضحكت المرأتان .
بعد ذهاب سيمون ، تمت سارة أغنية بصوت منخفض . فاليوم
هناك مهات عديدة يجب انجازها . وبدأت تفكر بما سوف تفعله وهي متجهة
إلى البانيو في الحمام .
عليها أولاً ، بادىء ذي بدء ، إرسال الأمير فيصل إلى جدة ، ثم
متابعة وترقب التعليمات من الاستخبارات الانكليزية .
كانت سارة قد طلبت لائحة بأسماء الأشخاص الذين يتعاملون مع السفير
الانكليزي والسفير الفرنسي ، ويحضرون حفلاتهم ، فلو أتت هذه القائمة
فالأمور ستستقيم .
عندها فقط سيظل الثلج على سفوح الجبال التي يشق بها جمال باشا .
وعندها فقط سوف نشهد نتائج العداء العربي التركي .
كانت سارة تخطط لدس هذه القائمة التي تحمل أسماء شخصيات عربية
تعاملت مع الانكليز والفرنسيين ، تحت أنظار جمال باشا وتضعها بمتناول يده
بشكل غير مباشر .
لاشك أن جمال باشا ، سوف يشور غضبه تجاه هذا الأمر عند معرفته
له . فإذا ثبتت خيانة بعضهم له ، فحدث ولا حرج ، فهل يتركهم جمال باشا
يعيشون ولو لثانية واحدة ؟
الله وحده يعلم عدد الذين سيتدلون على أعواد المشانق !

أفكار في البانيو

كانت سارة تعرف تماماً نفسية جمال باشا ، فكم من الأسرار كشفتها
لها تلك الليالي الساهرة ، فطبيعي أن تعرف سارة أكثر من أي انسان آخر
أهواء جمال باشا ، وتعرف ما يجب وما يكره .
كانت سارة تستحم في البانيو وتفكر ، إذا قام جمال باشا باعدام بعض

العرب ، فسوف يغضب عليه العرب ، عندها سيقوم كل طرف بقتل الطرف الآخر .

وقالت في نفسها : أجل يجب الشروع بتنفيذ هذا الأمر أولاً .
يجب أن نوقع هذه البغضاء بين العرب والأتراك المغرورين بأنفسهم .
« ولا حل إلا في رمي الأتراك وطردهم من هنا » كان هذا هو الأمر المسيطر على تفكيرها ، أثناء استحمامها في البانيو .
وما لبثت أن تغطت بالمنشفة وخرجت من البانيو إلى الصالون .
وجففت شعرها وتمددت على الأريكة . وكان الهواء حاراً وساخناً جداً .

جمال باشا آت

بعد فترة قصيرة ، رأت سارة الباب ينفتح ، وقبل أن تهتم بالنهوض كان جمال باشا قد دخل إلى الصالون ، فكعادته ، كان يدخل دون أن يقرع الباب ، فقال للمرأة الشابة :

- « أنا ذاهب يا سارة »

- وتوترت أعصاب سارة .

- إلى أين يا باشا ؟

- إني ذاهب إلى بيروت ، لقد حدث أمر هام هناك .

- هل يمكنني مرافقتك يا سعادة الباشا ؟

- كلا ، فإن عدم قدومك سيكون أفضل ، فهناك أمر هام علي انجازه .

- هل هناك أنباء سيئة يا سعادة الباشا ؟

- بقدر ما هي مهمة فهي سيئة ...

- يا الهي ... هل هي من النوع الذي يسبب الأذى للباشا لاسمح الله ؟

هل حصل شيء ما في الجيش ؟

- كلا ... كلا ...

- هل هو أمر سرّي أم أنني أستطيع أن أسأل عنه ؟

إن كلامك بهذه الجدية قد أثار قلقي وزرع الحزن في داخلي .
فقلّب الباشا نظره في الغرفة عدة مرات ، ثم قال بصوت خافت :
سارة ، إنك على علمٍ بكل مجريات الأمور .
إننا في بلادنا ، نعمل على رفاه كل الأجناس والشعوب على اختلاف
أنواعها وأديانها ، ونسعى لجمع المسلمين تحت راية الاسلام الواحدة ، غير أن
بعض الفئات ، محاولة الاستفادة من هذا الامتياز الذي منحتة الحكومة
التركية للمسلمين العرب ، تعمل على تخريب الوطن وتبيت خططاً تهديدية
بالتعاون مع أعدائه .

- يا إلهي - من هم هؤلاء الخونة يا سعادة الباشا ؟
لقد كانت سارة حقاً قلقة لمعرفة أولئك الخونة .
هل أمسك جمال باشا بطرف الخيط ياترى ؟ كانت سارة تفكر قلقة .
وتابع الباشا قائلاً :

البارحة مساءً ، في بيروت ، قامت قواتنا باقتحام مقر القنصلية
الفرنسية ، ووجدوا في خزانة مخفية في إحدى جدران القنصلية لائحة تضم أسماء
المتعاملين مع الفرنسيين من سوريا ولبنان ، حتى أنه ذكر في هذه اللائحة قيمة
المبالغ التي قبضها هؤلاء للعمل معهم .
لقد أصدرت أمراً باعتقال هؤلاء فرداً فرداً وسوف أحيلهم كلهم إلى
الحكمة العسكرية ، وإن لزم الأمر سوف أشنقهم .

ترتيبات سارة بلغت مرماها

وتنفست سارة الصعداء ، فالاستخبارات الانكليزية قد اعتمدت خطة
سارة ، وتم اخبار جمال باشا بأمر تلك اللائحة بواسطة القائمين على أعمال
السفارة الفرنسية ومجموعة بيروت الموسوية ، ونجحت بذلك مهمة سارة . التي
كانت في قمة سعادتها وارتياحها .

لأحد يدري كم من الأسماء كانت هناك مدرجة في تلك اللائحة التي وجدت في خزانة القنصلية الفرنسية السرية . يبدو أن جهاز الاستخبارات الانكليزية كان يعمل بنشاط وجدية تامين .

فلقد قامت فرنسا ، وبناءً على رغبتها ، بتسليم أسماء الذين كانوا يتعاملون معها ، نظراً لعدم فائدتهم لها ، وبالتعاون مع جهاز الاستخبارات الانكليزية قامت السفارة باعطاء هذه اللائحة للقوات التركية عند اقتحامها للقنصلية الفرنسية ببيروت ، تتضمن أسماء شخصيات قامت بالتعاون معها في سوريا ولبنان .

الهدف من وراء ذلك وضع العرب والأتراك في مجابهة مع بعضهما البعض ولتحقيق هذه الغاية ، كان لابد للفرنسيين أن يضحوا ببعض الذين عملوا معها وأدوا خدمات لها .
غير أن خروج هذه الوثيقة إلى الوجود ، أحدث بلبلة ومخاوف كبيرة في صفوف العرب .

سارة . سحبت جمال باشا إليها ولكن ..

على أثر تلقيه نبأ هذه الوثيقة ، قرر جمال باشا التوجه من الشام إلى بيروت في أول قطار يرحل إلى هناك .

- عند غيابكم سوف ينتابني شعور بالحزن يا سعادة الباشا .

- لا تقلقي ، فلن يطول غيابي سوف أُولي أمر التحقيق في هذه المشكلة إلى الإدارة العرفية .

- يالهم من سفلة ، أولئك الخونة يا سعادة الباشا .

هل يخون المرء الوطن الذي أطعمه قوته ؟

- إن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً ، ثم خرج من الغرفة غاضباً .

وانطلقت سارة إلى المرأة وقلها يقفز فرحاً . وتمتت :

- يا إلهي ، كم أنا سعيدة اليوم ...
لم تخرج سارة في ذلك اليوم من غرفتها حتى المساء . فقد تناولت
غداها في الغرفة ، لقد كانت تنتظر جواباً من سيمون أو خيراً من المصور
كومياس .

- ترى ، ما هو القرار الذي توصل إليه الأمير فيصل ؟
ماذا سيكون موقفها إزاء الرسالة التي وصلت من والده ؟
هل سيستمر الأمير في التخوف من سارة ؟ أم أنه سيعطيها ثقته
ويفتح لها قلبه ؟ لو أن هذا الرجل يبعد الشكوك من نفسه ، ويشغل عقله
قليلاً ، ولو يستمع إليه ...

ونزلت سارة إلى بهو الفندق لتناول العشاء . كان البهو مزدحماً
بالضباط الألمان والأتراك . ودخلت سارة إلى الصالون بغطى كلها عظمة
واختار ، وجلست على المائدة المخصصة لها . الليلة سوف تتناول العشاء
بفردتها ولم تبال بنظرات الضباط الشبان الحائرة حولها .
لكن الجميع يعلم أن سارة صديقة مقربة للبasha . وبناءً على هذه
الاعتبارات لم يكن أي من الضباط يجرؤ على الاقتراب منها أو ازعاجها .
عند غياب جمال باشا ، كان صديقه ، رئيس أركان الجيش الرابع علي
فؤاد باشا ، يحل محله ، فلقد أوصى جمال باشا سارة باللجوء إليه عند
احتياجها لأي أمر ، أثناء غيابه .

غير أن سارة لا ترغب بالجلوس مع أحد هذه الليلة . فالشيء الوحيد
الذي يدور في ذهنها كان الأمير فيصل .
احتست سارة كأساً من الشراب ، واشعلت سيجارة ، وبدأت تفكر
كيف ستتمكن هذه الليلة من رؤية الأمير فيصل .

لم يكن ممكناً التجول في أرجاء المدينة ليلاً ، فقد كانت أزقة الشام
مظلمة وحالكة السواد . ففكرت بالذهاب إلى بيت سيمون غير أن هذا لم يكن

ممكناً أيضاً ، وخطر ببالها الذهاب إلى بيت كومبياس «وهذا أمر مستحيل»
قالت في نفسها . ماذا لو ذهبت إلى منزل الأمير فيصل نفسه ؟ ماذا لو
شاهدني أحد ؟ كانت تسأل نفسها كل هذه الأسئلة .

لم تستطع سارة اتخاذ قرار في أي من الأفكار التي حاولت تنفيذها ،
وكانت تحتسي الكؤوس الواحدة تلو الأخرى وكانت قد انتهت من شرب زجاجة
كاملة ، وبدأت بشرب الزجاجة الثانية .

كان دخان السجائر كثيفاً في بهو الفندق ، فنهضت سارة وتوجهت إلى
غرفة نومها وهي في حيرة من أمرها بشأن الاتصال بالأمير فيصل . وفتحت
نافذة غرفتها وتأملت مدينة الشام وسط هذا الليل الهادي ، كانت الشام
نائمة تحت سواد الليل الحالك .

وتظهر في الأفق المنازل وكأنها أشباح وسط هذا الليل المعتم .
أخرجت سارة رأسها من النافذة ، ونظرت إلى الشارع الملتف بالسواد
ولحّت ظل حارسين يقفان أمام مدخل الفندق .

ولجأة ، اتخذت سارة قرارها ... سوف تذهب الليلة للقاء الأمير
فيصل . وقامت فوراً بالتحرك ففتحت الخزانة الطائفة بالعديد من البزات
العسكرية والمدنية واختارت من بينها واحدة مدنية ارتدتها فوق ملابسها ،
وربطت البنطال بحزام نظراً لكبر قياسه ، ثم ارتدت معطفًا طويلاً أقفلت
أزراره من أعلاه وحتى أسفله ، وعلقت سيفاً على خصرها ، ثم نظرت في
المرآة فرأت شكلاً مختلفاً عما اعتادت رؤيته .

وضعت على رأسها إحدى قبعات جمال باشا فأصبحت بذلك أشبه
برجل عسكري تركي . وليس عسكرياً عادياً بل ضابطاً . وصار بإمكانها الآن
التحول في أزقة الشام بكل راحة وطمأنينة .

امراة في الظلمة

فتحت سارة الباب ببطء ونظرت يمنة ويسرة ، وراقبت المرمر يحذر ، وبعد تردد قصير نزلت على رؤوس أصابع رجليها وتوجهت إلى الباب الخلفي للفندق ، وبدأت تسير مترنحة مثل رجل عسكري سكران وراحت تسرع الخطى متوجهة إلى مكان إقامة الأمير فيصل . واتخذت مسارها في الأزقة الخلفية المؤدية إلى منزل الأمير ، غير أن المنزل كان على مفترق أربع طرق ، وكان هناك عند وصولها ثلاثة أو أربعة حراس يقومون بحراسته ، وتوجهت سارة مباشرة ، دون أن تغير في مشيتها ، إلى الباب ، وشدت حبلاً ، سمع في الداخل إثر ذلك صوت جرس يقرع ، ثم أضيء نور وسمعت صوتاً من وراء الباب يقول :

- مين هاد ؟

- فردت سارة أنا .

- سأل الصوت مين أنتي ؟

- أنا من طرف جمال باشا .

عند سماع اسم جمال باشا ، قام البواب بفتح الباب بسرعة ، ولم يستطع تمييز القادم . ودخلت سارة قائلة ؟

هل الأمير فيصل نائم ؟

- كلا أجاب البواب ، إنه يقرأ القرآن الكريم .

- أعلمه بقدومي ، إني أحمل له نبأً من قبل جمال باشا .

- أمركم يا سيدي الضابط وهرع الغلام يصعد بمخفة على الدرج وبعد

انتظار قصير ، ملؤه القلق والخوف ، عاد الغلام إليها ثانية وقال :

- تفضل يا سيدي الضابط .

وصعدت سارة الدرج خلف الغلام إلى غرفة الأمير فيصل الذي كان

ينتظر قدوم الضابط المرسل من قبل جمال باشا ، ولكنه دهش عند مشاهدة

الضابط قادمًا إليه . فلم يكن هذا الضابط ، يشبه الضباط الأتراك الذين رآهم . بل إنه لايشبه الضباط مطلقاً . وبحركة من يده ، أمر الأمير فيصل الغلام بالانصراف ، وبعد دخول سارة إلى غرفته ، أغلق الباب ، ودار حول ضيفه يتفحص هذا الضابط التركي .

سارة . هذه المرأة المحيرة

وخلع الضيف قبعته عن رأسه ، فانفرد شعر طويل لتظهر فجأة ملامح امرأة أمامه .

فقال فيصل في نفسه : يا إلهي .. إنها سارة ، ثم قال بصوت عالٍ سارة ، ماهذه المرأة ؟ كيف قدمت إلى هنا ؟ إنك بهذا تضعيني وتضعين نفسك في موقف حرج ، هل تدركين ذلك ؟

- لاأتقلق يا سعادة الأمير ، لقد أُجبرْتُ على هذا ، انتظرت منكم خيراً طوال اليوم ، وعند عدم ورود أي نبأ من طرفكم رأيت أنني مضطرة للقدم إليكم ، أرجو المعذرة ، فالأمر يتعلق بحياتكم ، لذلك اضطررت للقدم إليكم .

- حياتي أنا ؟ .

- نعم يا سعادة الأمير ، حياتكم أنتم .

- خيراً إن شاء الله ، ... ماذا حدث ؟ .

- لقد قامت القوات التركية باقتحام القنصلية الفرنسية ببيروت ، ووجدت خزانة مخفية في قلب الحائط في مبنى السفارة في داخلها قائمة بأسماء الشخصيات العربية المتعاملة مع الفرنسيين والمبالغ التي قبضوها للعمل معهم ، ومعظمهم ينتمون لحركة الاصلاح الوطنية ، ورأيت أن أعلمكم بهذا النبأ ، لأن ضمن الأسماء المذكورة في اللائحة ، أناس تعرفونهم ويعرفونكم ، هذا ما سمعته من جمال باشا ، ولقد سافر الباشا إلى بيروت اليوم من أجل هذا

الموضوع .

الاسماء الموجودة في الخزانة

أنا أيضاً سمعت بهذا النبأ يا سارة ، فلقد أبلغني بذلك اليوم مفتش الجيش الرابع أسعد الشقيري عند قدومه لزيارتي . قال لي أن جمال باشا قد تعرض لأمر خطير ، وذكر لي أسماء العرب المتعاملين مع الفرنسيين التي وجدوها في الخزانة .

- هل بينهم شخصيات مهمة ؟

فكر الأمير طويلاً ، ثم تنهد قائلاً :

- مع الأسف كلها أسماء شخصيات هامة . وكلها من عائلات سورية ولبنانية ذات شأن ومراكز اجتماعية مرموقة . وفي حال اصدار جمال باشا أحكاماً بحق هؤلاء ، فإن ذلك سيؤدي إلى كارثة حقيقية ، حسب اعتقادي . عند سماعها لهذه الكلمات ، سرت سارة في داخلها ولكنها لم تظهر سعادتها للأمير وسألته :

- هل تحوي تلك القائمة اسم أحد معارفكم ، يا سعادة الأمير .

- كلا يا آنسة ، فنحن لاتتعامل مع الفرنسيين وأنتم تعرفون ذلك جيداً . نحن فقط نشق بكم وبالحكومة الانكليزية بناءً على توصيتكم .

- إنكم محقون في ثقتكم يا سعادة الأمير .

- إن شاء الله ، ستظهر نتائج ثقتنا بكم عما قريب .

- إن شاء الله أجابت سارة ، لن تندموا على ذلك مطلقاً يا سعادة

الأمير فقال الأمير لسارة :

لقد تفحصت بإمعان الرسالة التي أحضرتها من والدي وتأكدت من صحة توقيع وخط والدي . أشكرك على ذلك .

وأرى أنني أستطيع الوثوق بك ، غير أنني بعد هذه الأحداث ،

لا يمكنني التوجه فوراً إلى مكة ، حسب قناعتي . فأننا أريد أولاً أن أرى وأعلم ما سيفعله الباشا بعد عودته من بيروت . ثم أن الشخصيات التي سيتم اللقاء القبض عليها تشكل قوة كبيرة لنا ، وعلى جمال باشا أن لا يهدر هذه القوة . فربما يكونون عوناً لنا عند قيامنا بتحركاتنا قريباً . من ناحية أخرى ، فلقد ذكر والدي في رسالته أنه يجري اتصالات مع بعض الشخصيات الانكليزية ، وأطلعني بشكل مختصر على مجرياتها . لذلك ، فوجودي هنا ، بالقرب من جمال باشا ضروري لمساعدة العرب الذين سيعتقلهم وسأضطر للمكوث هنا مدة أخرى ، أقوم خلالها مع جمال باشا بدراسة ترتيبات الحملة الثانية على القناة وهكذا أستطيع اتمام كل مهاتي بحضور جمال باشا .

سعادة الأمير . هناك مؤامرة عليك

لم يعجب سارة هذا الموقف ، لأنها كانت تريد رحيل الأمير بأسرع ما يمكن إلى جدة للاقاء البعثة الانكليزية التي ستأتي إلى هناك قريباً . فجهاز الاستخبارات الانكليزي سلم جمال باشا أساء العرب الذين يتعاملون مع الفرنسيين لوضع العرب والأتراك وجهاً لوجه . وفي هذه الحالة ستتعرض حياة الأمير فيصل أيضاً للخطر . فالاستخبارات الانكليزية ، كانت ترغب ، من وراء هذه العملية ، اعدام هذه الشخصيات العربية على يد جمال باشا . مما سيثير بلبلة وشقاقاً بين العرب والأتراك وينشر العداء بينهما فيضمن الانكليز ضربة قاضية وقاسية في الجبهة الداخلية للحكومة التركية .

أما الأمير ، فقد كان يسعى لانقاذ هذه الشخصيات من حبل المشنقة والتفتت سارة إلى الأمير قائلة :

- يا سعادة الأمير ، إن بقاءكم هنا يعرضكم للخطر ، خصوصاً وأن والدكم يقوم باتصالات مع الانكليز . فإن علم جمال باشا بذلك ، فسيكون

موقفكم حرجاً جداً أمام الباشا بل وخطراً ، لذلك ، أرى من الأفضل أن تغادروا الشام وترحلوا إلى مكة ، ففي ذلك فائدة كبيرة لكم ولوالدكم .

فرد عليها الأمير فيصل :

معك حق يا سارة ، ولكن أبي لم يتوصل حسب معلوماتي ، إلى أي اتفاق مؤكد مع الانكليز . فنحن ووالدنا ننوي بعد الحرب اقامة دولة واحدة تبدأ من جبال طوروس أي من مرسين وأضنه وأورفه وديار بكر مروراً بالبصرة متجهين نحو الغرب وحتى اليمن .

لتعصوا العثمانيين

ولا يمكن تحقيق هذه الدولة العربية الكبرى إلا بهذا النحو ، وإلا فلا أجد داعياً ولا سبباً للعصيان والحاربة جمال باشا والدولة التركية .

إننا لم نشك في أي وقت مضى من عدم مساعدة العثمانيين لنا ، أو عدم احترامهم لنا فلو أكد لنا الانكليز مساعدتهم لنا ودعمهم لنا في إنشاء هذه الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، عندها قد نعيد النظر في الأمور ونتعاون معهم .

وفي حال حدوث عكس ما نتوقعه من الانكليز فإننا لارى أي مبرر للوقوف في وجه العثمانيين والحكومة التركية . أرجو أن تنقلي هذه الصورة لوالدي وللحكومة الانكليزية .

فردت عليه سارة بابتسامة مصطنعة تغطي وتخفي وراءها مرارة

وحرقه :

- يا سعادة الأمير ، لقد نسيتم أموراً مهمة وحساسة في سياق حديثكم . أرجوكم أن تضعوا ما سأقوله نصب أعينكم . لاشك أنكم تعلمون بأن الفرنسيين أيضاً طرف مشارك في هذه الحرب ، وهم في الوقت نفسه حلفاء للانكليز ، فهناك تفاهم فرنسي انكليزي ، قبل اندلاع الحرب ، بأن تُمنح سوريا

ولبنان لفرنسا بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ، فكيف تريد الآن أن تتصرف انكثرا حيال فرنسا . هل تقول لها : « إني سأعطي هذه الأراضي للأمير فيصل » .

يا سعادة الأمير : أرجوكم إعادة النظر بما تفكرون فيه ، وأن تأخذوا موضوع سوريا ولبنان بعين الاعتبار . فقال الأمير :
- يا آنسة سارة ، لأعتقد أنني أستطيع أن أتخيل دولتنا الكبرى من دون سوريا ولبنان ...

- يا سعادة الأمير ، دع الآن موضوع رسم الحدود إلى ما بعد انتهاء الحرب ، فنحن لانعرف ما يجيء لنا الزمن وما يخفيه القدر . المهم الآن اتخاذ قرارات مع الحكومة الانكليزية ، والمسألة بعد ذلك سهلة ويمكن مناقشتها ، عليكم ابرام اتفاقيات من حيث المبدأ معهم ، ثم تتم مناقشة تلك الأمور الجانبيه بعد ذلك وحينها لابد أن يكون لكل أمر حل .

- كلا ، ... كلا يا آنسة سارة ، يجب أن تتم الأمور بصورة صحيحة وواضحة منذ البداية ، فلا أحد يعلم كيف سيعاملنا الانكليز بعد انتصارهم ومن الصعب التكهّن بما سيحدث يومها ، وعلينا منذ اليوم التوصل مع أصدقائنا الانكليز إلى صيغ تفاهم واضحة ودقيقة وصریحة . فإن كانوا موافقين على اعطائنا مناطق مرسين والبصرة حتى الين ، فنحن بجانهم مؤيدون لهم ، أما في حال عدم موافقتهم ، فنحن إلى جانب جمال باشا في حملته الثانية إلى قناة السويس بجيشنا وسلاحنا في مواجهة القوات الانكليزية .

خطة الروس حسب ما تراها سارة

كانت سارة مازالت تحت تأثير مفعول زجاجتي الخمر اللتين تناولتها أثناء العشاء ، فأطلقت ضحكة عالية ثم قالت للأمير فيصل بصوت ملؤه القساوة والجديّة : - ترى ، هل يعلم سعادة الأمير بخطة الروس ؟

- خطة الروس ، لا ، ليس هناك أية خطط روسية في هذه الحرب .
إن الروس مهتمون بالسواحل ، بمدينة استنبول . ماذا يمكنه أن يكون هذا
المخطط الروسي ، خاصة فيما يتعلق بالأراضي العربية .
- إن للروس مخططاً دقيقاً جداً بخصوص هذه المنطقة يا سعادة الأمير .
وإن تحقق هذا المخطط فإن امبراطوريتكم العربية سوف تذهب أدراج الرياح .
- ألهذا الحد يا آنسة سارة ؟ ... ما هو هذا المخطط ؟ ...
- فقالت سارة :
- الروس يريدون أن يجعلوا من جمال باشا سلطاناً على الإمبراطورية
العثمانية ، وينوون اعطائه الأراضي الممتدة من جبال طوروس وحتى سهول
اليمن .
- كيف يكون ذلك ، يا آنسة ، أن يمنح الروس للباشا الذي يحاربونه
مثل هذه التسهيلات وهذه الأراضي ؟ ثم ، ماذا ينوون من وراء هذا كله ؟
- سيدي ، إن الروس يرغبون في إنهاء الحرب . قالت سارة .
والروس يعتقدون أنه إذا أمكنهم نسف الجبهة الداخلية للحكومة
العثمانية ، أمكنهم بذلك إنهاء الحرب .
- وهل يفكر الانكليز أيضاً بهذه الطريقة ؟
وهل يهدف تعاونهم وتحالفهم معنا إلى إنهاء هذه الحرب ؟
وهل تعتقد أننا لنعرف ذلك يا آنسة ؟
- إنكم على حق يا سعادة الأمير ، فالانكليز بموافقتهم على اعلانكم
ملكاً يسلكون الطريق نفسه الذي يحاول الروس المضى فيه ، غير أن الروس
يسعون لتحقيق ذلك عن طريق جمال باشا ، وإلا لماذا يعرضون على جمال
باشا أن يصبح سلطاناً لهذه الإمبراطورية ؟

هل كانت سارة تحاول تشويه الحقائق ؟

بعد هذه المحادثة مع سارة ، أحس الأمير وكأن طلبة قد اخترقت دماغه ، فقال لسارة غاضباً :
آنسة سارة ، هل لك أن توضحي من فضلك ، ماذا ينوي الروس عمله ؟

- يا سيدي ، أرجو المذذرة ، إن الروس قد خططوا لاتفاق مع جمال باشا . مضمون هذا الاتفاق أن يقوم جمال باشا بمركة عصيان داخل دولته ، بوجه الحكومة في استنبول ، مقابل أن يمنحه الروس صلاحية تنصيب نفسه سلطاناً للبلاد ، على أن تكون هذه الولاية وراثية ، أي أن جمال باشا يمكنه أن يورث هذا المنصب إلى أولاده وأحفاده ، كما هي الحال مع والدكم الذي ينتقل حكمه إلى أبنائه من بعده ، علاوة على ذلك ، سيقوم الروس بدعم جمال باشا مادياً ومعنوياً لتعزير سلطته وسيطرته على الأراضي العثمانية .

- هل هذا هو المطروح من قبل الروس ؟ أم أن جمال باشا هو الذي وضع شروط هذا التكليف وحدد مطالبه فيه ؟
- لأعلم في الحقيقة هذا الأمر ، ولكنني أعتقد أن الروس هم الذين يطرحون هذا التكليف .

- لابد أن الباشا قد أبدى بعض التعاون مع الروس ، مما دعاهم إلى التفكير في مثل هذا العرض .

- لأستطيع أن أعلق بشيء حول هذه النقطة ، يا سعادة الأمير غير أن ما أستطيع أن أجزم به ، هو أن الفرنسيين والايطاليين ينظرون إلى هذا الأمر بمجدية وبعين مراقبة ومتربة .

- كيف يكون هذا ؟ ماذا تقصدين بأن الفرنسيين ينظرون بمجدية إلى الأمر ويراقبون الوضع بترقب وحذر ؟ هل الأمر كذلك ؟
- نعم يا سعادة الأمير ...

- حسناً ، ولكن ، هل ستبقى سوريا ولبنان تحت سيطرة وحكم جمال باشا علماً بأن الفرنسيين لا يقبلون ترك هذه الأراضي لدولة غير دولتهم .
وإذا كان جمال باشا ينوي إقامة دولته على هذه الأراضي ،
والفرنسيون يطمعون بها أيضاً ، فإني لأعتقد أن الحلفاء سيصلون إلى اتفاق
وتفاهم حول هذه النقطة بالذات .

- لا أحد يعلم يا سعادة الأمير ، فالأمور غير واضحة الآن ... قد يقبل
جمال باشا بقسم من الأراضي العربية ويتخلى عن بعض منها .
- لا أظن ذلك ... جمال باشا لا يتورط في أمر كهذا . إنه اتحادي
متعصب ، ربما أنور باشا أو طلعت باشا يقبلان بمثل هذا الأمر ، ولأعتقد
أن يقبل بالتخلي عن السواحل لكي يتربع على عرش الإمبراطورية .
ولأعتقد أن الروس يقبلون بغير ذلك .

- يا سعادة الأمير ، لا أحد يستطيع أن يتوقع نتائج الحروب
والسياسات ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيحصل .
واستسلم الأمير لتفكير عميق ، وفهمت سارة أنها قد أطالت جلوسها
فنهضت قائلة :

- يا سعادة الأمير عند توصلكم إلى قرار ، أرجو اعلامي ذلك بواسطة
المصور كومبياس الذي يمتلك محلاً في سوق الحميدية ، ووضعت سارة قبعتها ،
وصاغت الأمير ، وعادت إلى فندق قصر الشام ، عبر الأزقة المظلمة ،
ودخلت إلى الفندق من الباب الخلفي ثانية مثلاً خرجت منه عند ذهابها .

جمال باشا يأمر بإقامة منصات الإعدام

كانت الأنباء القادمة من بيروت سيئة جداً ، فالقائمة التي وجدت في لقنصلية الفرنسية كانت تضم أسماء شخصيات عديدة ، لم يسلم منها الكثير . وكان جمال باشا قائماً على اجراءات التحقيق بنفسه ، فأنشأ في عاليه ، مقرأً للإدارة العرفية ، وللمحكمة العرفية ، جلب إليه كبار الشخصيات المتهمه والمدرجة اسماؤها في القائمة ، وأغلبهم ينتمون إلى عائلات مرموقة في سوريا ولبنان ، ثم أصدر بحقهم أحكام الإعدام بعد سلسلة من التحقيقات . لم يلتفت جمال باشا إلى دموع استرحام الذين كان يحاكمهم ، فكل من كانت لهم صلات مع الفرنسيين أو الانكليز ، كان يستجوبهم ثم يصدر بحقهم قرار الإعدام ويأمر بتنفيذ هذه القرارات على الفور .

« من لم يشفق بالدولة وبني ، أنا أيضاً لن أرأف به » ذلك ما كان يردده الباشا .

وكانت نتائج التحقيق تأتي أحياناً ايجابية وأحياناً سلبية ، فكان جمال باشا يواجه المتهمين بالأوراق والوثائق والأدلة الدامغة التي بين يديه ويسألهم قائلاً : « إن كنتم تستطيعون انكار هذه الوثائق فأنا أعفو عنكم » .

كان يردد هذه الجملة أمام بعض الشبان من المقربين إليه وخاصة أبناء العائلات المرموقة التي كانت تسعى إلى الحصول على عفو لهم .

غير أن أولئك ، لم يكونوا يستطيعون إنكار تلك الوثائق ، وكان الباشا مقتنعاً بأن هؤلاء المتهمين كانوا يستفيدون مادياً من تعاملهم مع أعدائه ، ويجنون أموالاً طائلة .

وتارة كان الباشا يحدّثهم ويقول :

إن الفرنسيين يخدعونكم . حتى في حال خسارتنا لهذه الحرب فإن هذه الأراضي لن تؤوّل إليكم . فالفرنسيون لن يقيموا دولة مستقلة لكم . ولكن ما الفائدة من هذا الكلام الآن ، فقد سبق السيف العزل فكل الذين تعاونوا مع الفرنسيين في فترة ما قبل الحرب العالمية ، هم اليوم في قبضة جمال باشا ، وقد أحكم الطوق حول أعناقهم .

وعلى أثر هذه الأحداث ، وقعت بلبلة كبيرة بين صفوف الناس ، في سوريا ولبنان ، فالكّل في حيرة وقلق وحالة توتر .

المنكبّون تحت أقدام جمال باشا

كانت المنطقة برمتها تحت أقدام جمال باشا ، وكان الوسطاء يتوسّلون إلى جمال باشا قائلين له : « بالله عليك يا باشا ، نرجوك أن تعفو عن هؤلاء ، لقد اقترفوا ذنباً ولكنهم لن يكرروا ذلك ثانية . إن كل ما جنوه أمر قديم أصبح طي النسيان . فهؤلاء تصرفوا وفق ما جاء في سياسة حركة الإصلاح. نرجوك أن تعفو عنهم » لم يكن الباشا يصغي إليهم ، بل كان يطردهم من مكتبه .

كانت الأحداث تتوالى بسرعة ، والأوساط الاجتماعية تشهد كل يوم ولادة حدث جديد ، ونبأ اعتقال مشبوه آخر . لم يعد الناس يهتمون بأنباء الحرب ، فالجميع منشغلون بالقرارات والأحكام التي تصدر كل يوم عن الداخلية وعن المحكمة العسكرية للجيش الرابع .

وكان الفرنسيون والانكليز يشنون هجمات يومية ، تارة على جبهة غزة

وتارة على جبهة سيناء وتارة أخرى على جبهة حيفا ، ويعززون قواتهم العسكرية المتواجدة على الجبهات ، في حين كانت الجيوش المسلمة تقبع تحت وابل النيران الموجهة إليها وهم في حالة يرثى لها ، جياح ومشردون ، وعدد كبير منهم أصيب بالتيفوئيد والملاريا .

ولم يكن جمال باشا مهملًا لحالتهم هذه . فكان يسعى بشتى الوسائل لإنقاذهم مما هم فيه ، وإرسال الإمدادات لهم . غير أنه كان يواجه صعوبات كبيرة في محاولاته تلك . فالأنباء القادمة من استنبول سيئة للغاية . وأعضاء حركة الاتحاد والترقي على خلافات كبيرة . ولم يكن أحدهم يجرؤ على مواجهة ومناقشة جمال باشا ، ولكن الشائعات والأقاويل كانت تصل إلى اسماع الباشا ، مما تدفعه إلى توجيه رسائل توبيخ شديدة إلى وزير الداخلية جانبولايك وإلى طلعت باشا ، مشيراً فيها إلى تلك الشائعات والأقاويل الصادرة بحقه ، ومؤنباً بل ومهدداً إياهما بقوله : « سوف أستخدم سلاحي يوماً ما في وجهكم » .

بهذه الحال النفسية المتوترة ، عاد جمال باشا من بيروت إلى الشام ليجتمع مع سارة وينسى بقربها كل تعب .

واستقبلته سارة بترحيب حار وقالت للباشا المتعب الحزين ، القادم من بيروت ونفسه ملؤها الشجن والغضب :

- يا سعادة الباشا ، لقد اشتقت إليك كثيراً أثناء غيابك عني .

فأجابها الباشا : أنا أيضاً يا سارة ، أنا أيضاً .

فرغم تعبها وارهاقه كان يكنّ لسارة مودة واحتراماً بارزين .

- هؤلاء العرب خونة يا باشا .

- إن عقوبة الخونة هي الإعدام . أجب الباشا .

إن هؤلاء يموتون خوفاً من الشدة والوسط ، وحسن المعاملة والمسايرة

لا يجدي نفعاً معهم ولا يستحقونه أصلاً .

فأجاب الباشا : سوف يرون مدى عظمة وقوة الدولة العثمانية عما قريب .

آه يا باشا ، لولا هؤلاء الخونة والمتوحشين ، لكنتم الآن قد رميتم الفرنسيين والانكليز خارج القناة حتى مصر .

غير أنكم أصبحتم منشغلين بأمر هؤلاء الخونة وأصبحتم مضطرين لتخصيص كل امكانياتكم وجهدكم للتحقيق معهم ومحاكتهم . فكل يوم هناك حالة جديدة وهناك عميل جديد يتم اكتشافه ، لذلك فأنا لأحب هؤلاء العرب.

كانت سارة تقول كلامها هذا ، بمنتهى اللطف والرقّة وكان قصدها من هذا التصرف المتسكن هو كسب عطفه وشفقته عليها ، وترسيخ فكرة أنها تناصره بموقفه ، وأنها تكره العرب لا يذائهم له .

فالتفت جمال باشا إلى سارة وقال :

- سأعدم كل مذنّب يا سارة ...

- سمعت يا باشا أن عدداً من رجال الدين سوف يتوجهون إليكم للتوسط لديكم من أجل أولئك الخونة . إني أعرف مناورات هؤلاء العرب . فكلموا واجهوا مشكلة أو تعرضوا لضغوط معينة أرسلوا رجال دينهم للرجاء والتوسل لدى السلطات للحصول على حلٍ لمشكلتهم .

- فقال الباشا :

لو أرسلوا لي ، لا رجال دين فقط ، بل مبعوث الخليفة والسلطان فإن من تثبت التهمة عليه في المحكمة ، لن ينال عفوي وستنفذ عقوبة الإعدام فيه .
- نعم ، يا سعادة الباشا ، ولكن قد يشتكون عليك للسلطان ، فقرارات الإعدام يجب أن تصدّق من قبله .

لدخل للسلطان أو غيره في هذا الأمر

- سارة ... سارة، ما هذا الذي تقولينه . إن الحاكم الوحيد لهذه المنطقة هو أنا ، فلا السلطان ولا غير السلطان يتدخل بالأحداث الجارية هنا ، حتى الخليفة بذاته لايعرف ما يجري هنا ، وكيف له أن يعرف ؟
إنه يجهل ما نواجهه هنا .

إن العفو عن الخونة أمر سهل ولو أن الأمر بيدي لعفوت عن كل الناس ، لكن من يخون وطني وأمتي ودولتي ، مصيره الإعدام .
إن التصديق على قرارات المحكمة العرفية أمر منوط بي أنا شخصياً ، وليس الخليفة . لن أرسل أية قرارات للتصديق من الباب العالي ، فجرد صدور قرار الإعدام سأصدقها أنا شخصياً وسأنفذه على الفور .
كانت سارة مسرورة جداً لانفعال الباشا بهذا الشكل . فهذا معناه أن الخطة التي وضعتها تسير على أكمل وجه .

فارتقت على عنق الباشا وقالت له : « يبدو أنكم متعبون جداً » ، ثم تابعت تقول : هل تسمحون لي بأن أريحكم يا سعادة الباشا ؟
- نعم فأنا بحاجة جدية للراحة ، فإني مرهق جداً ، وأرغب في النوم لبضعة ساعات .

فهيأت سارة غرفة النوم ودعته لينام ويرتاح بعد أن استلقت بجانبه.

اصرار سارة

عندما استيقظ الباشا من نومه ، أعلم بوجود مفتي الجيش أسعد الشقيري بانتظاره في الطابق السفلي . فأرسل جمال باشا من يبلغ المفتي بأنه إن لم يكن الأمر مهماً ، فليرجئه لصباح يوم غد .
فعاد الخادم ليقول للباشا :

إن سعادة المفتي يريد التحدث إليكم بخصوص الموقوفين في بيروت يا سعادة الباشا . فأجابه الباشا قائلاً :

- في هذه الحالة ، فليأتِ غداً في الصباح الباكر .
كانت سارة تنصت للحديث الذي يدور بين الباشا والخدام .
الحونة ... قال الباشا متابعاً كلامه ... لقد وصل بهم الأمر بأن أطلعوا
مفتينا على الأمور وطلبوا منه التوسط من أجلهم .
فقالت له سارة :

أرجوكم يا سعادة الباشا ، لاتنصتوا إليهم . ما علاقة المفتي
بالسياسة والأمور العسكرية وما شأنه بهذه الأمور فهو لا يفهمها أيضاً .
- لا ياسارة فالشقيري إنسان جيّد ، علاوة على أنه يحب وطنه وهو
أيضاً إنسان شريف وصاحب فضيلة .
- أعرف ذلك يا سعادة الباشا ، ولكن أريد أن أقول إن رجال الدين
هؤلاء ، لا يفهمون بأمور السياسة .

- قد لا يعرفون أمور السياسة ، ولكنهم يعرفون تماماً حالة الشعب
النفسية والمعنوية ، وبماذا يفكر ، وبما أن الجميع يعتمدون على المفتي فقد
طلبوا منه القدوم إليّ .
هذا ليس مهماً ، فلننصت إليه غداً ، وسوف نرى ونستطلع ما
عنده من الأخبار .

كانت الشمس قد بدأت بالمغيب في أطراف الشام ، وبدأ يتلاشى معها
حر النهار ، لتحل محله رطوبة لطيفة . فذهب الباشا ليستحم ، في حين جلست
سارة وراء البيانو بشوب نومها الحريري تعزف للباشا مقطوعات يحبها
ويستحليها .
وأثناء استحمامه وصل نبأ قدوم رئيس الأركان علي فؤاد باشا ، فقال
الخدام لسارة :

- أرجو إعلام سعادة الباشا بقدوم علي فؤاد باشا ورغبته بمقابلته .
وقالت سارة : سأبلغه بذلك عند خروجه من الحمام .

ودخل جمال باشا بعد برهة إلى الغرفة ، فعانقته سارة قائلة له :
- حتى وأنتم تستحمون لايتكونكم ترتاحون يا باشا .
- هل وصل نبأ من الطابق السفلي ؟
- نعم يا سعادة الباشا ، إن رئيس الأركان علي فؤاد باشا يرغب برؤيتكم وهو بانتظاركم في الطابق السفلي .
- حسناً يا سارة ، في هذه الحال ، أنا نازل إلى الطابق السفلي ، أرجو أن تذهبي إلى الصالون لكي نتناول العشاء . فلنتناول هذا المساء العشاء ، برفقة الأصدقاء ، هل هذا ممكن ؟
- أمركم يا سعادة الباشا !

اخبار علي فؤاد باشا

ارتدى جمال باشا ثيابه الرسمية ، وأخذ عصاه بيده ، ونزل بعد برهة قصيرة إلى مكتبه في الطابق السفلي .
كان علي فؤاد باشا يحمل ملفاً سميكاً وفي المكتب حيث جلسا ، قال جمال باشا :
- خيراً إن شاء الله يا باشا ، هل هناك أمر مهم ؟
- سيدي ، أجاب علي فؤاد باشا ، أردت إطلاعكم على الأنباء التي وصلتنا من مختلف الجبهات .
- ما هي هذه الأنباء ، أرني إياها ؟
- سيدي ، بادئ ذي بدء ، القوات المعادية تشن هجوماً قوياً على الجبهة في فلسطين . أما في الداخل ، فبعد إلقاء القبض وتوقيف بعض الزعماء في بيروت ، بدأت عمليات هجومية تستهدف الخطوط الحديدية . وعلينا أن لانتظر أن تبلغ الأمور حداً أبعد من هذا . أما في الجبهات الأخرى فهناك تقارير من قادة الجبهات تعلمنا بضرورة ارسال الإمدادات لهم .

- فقال الباشا : وما رأي جمال باشا المرسيني في هذا ؟
- إن عنده القناعة ذاتها ، يا باشا .
- هل هناك أخبار من الجيش السادس من فوزي باشا ؟
- فأجاب علي فؤاد باشا : إن فوزي باشا يسيطر تماماً على جبهة غزة وهو في حال جيدة . فالقوات الانكليزية في تلك المنطقة ضعيفة .
- حسنًا ، ما أخبار عصمت ميرالاي ؟
- القوات الانكليزية تتراجع أمام جيشه . فلقد قام جنوده بإنزال خسائر كبيرة في صفوف القوات الانكليزية بعد أن جمع حوله كل الفرق المنتشرة في تلك المنطقة ، وإذا أرسلنا له الإمدادات والتعزيزات اللازمة ، فسيستطيع أن ينتزع نصراً من الانكليز .
- وهذا النصر إن حققناه ، نستطيع بفضل حل المشاكل الداخلية وطبها في النسيان ، علينا أن نعمل لتحقيق هذا بأسرع وقت ممكن ، يا سعادة الباشا .
- الحق معكم ، قال الباشا ، في هذه الحال ، علي التوجه فوراً إلى القدس أعلم كافة القواد أوامري التالية : خلال يومين سوف أقوم بعقد اجتماع لهم لدراسة الخطط العسكرية وبرنامج الإمدادات والتعزيزات اللازمة .
- أمركم يا سعادة الباشا ، سوف أعلم الآن كل القواد بأوامركم وأحيطهم علماً بالأوضاع الراهنة .
- هل هناك شيء مهم آخر ، يا باشا ، سأل جمال باشا .
- سيدي ، الصحف الصادرة في مصر ، تشن حملة عداوية إعلامية شديدة هل تأمرون باتخاذ إجراءات معينة بحققها ؟
- ماذا تقترحون أن نفعل ؟ سأل جمال باشا . هل تفكرون بشيء ما حول هذا الموضوع ؟
- كلا ياسيدي ، لم أأخذ بعد قراراً حول هذا الأمر ، لو سمحتم أن

تتحوي فرصة لأذق بالموضوع بشكل موضوعي أكثر . سوف أبحث عن الأطراف ذات التأثير المباشر على الصحافة في مصر .

لعلكم فالصحف الصادرة في مصر ، تحتاج إلى الدعم المادي لتتشر مقالاتها عبر صفحاتها ، فإن استطعنا أن نكون ذلك الدعم في مصر ، فلن يبقى للصحف المصرية ما تقوله عن الدولة العثمانية .

- نعم ، إنك محق في هذا يا باشا . أرجو أن تقوم بالتدقيق بهذا الموضوع . إبحث عن أصحاب النفوذ في مصر ولنتعاون معهم . ولاتدعوا أجهزتنا تتدخل في هذا الأمر .
- كما تأمرون يا سعادة الباشا !

دعوة الأمير فيصل لتناول العشاء

عندما نهض علي فؤاد باشا يهيم بالذهاب سأل جمال باشا :

- ما هي أخبار سعادة الأمير فيصل ؟

- إنه بانتظار أوامركم يا سعادة الباشا ، لقد التقيت به البارحة ، يبدو أنه متأثر جداً بالأحداث الأخيرة ، وقد أصابه بعض اليأس من جراء ذلك . فقد قال لي : « أرجوك يا باشا ، أن تقنع جمال باشا بعدم اعدام الإصلاحيين في سوريا ولبنان وإن كان ممكناً العفو عنهم » .

- أبلغه دعوتي له إلى العشاء وأنت أيضاً مدعو لتناول العشاء معنا يا باشا في الفندق .

- كما تأمرون يا سعادة الباشا . سوف أقوم بدعوة الأمير فيصل لتناول العشاء معكم الليلة ، وسوف أحضر معه .

ساعة ترغب في الذهاب إلى القدس

بعد ذهاب علي فؤاد باشا ، صعد جمال باشا إلى الطابق العلوي .

حيث كانت سارة تعد نفسها ، جالسة أمام المرأة تسرح شعرها ، وقد
تطيبت بعطورات ثمينة ، وتضع البودرة ومساحيق الزينة على وجنتيها
وعندما شاهدت جمال باشا ، قامت ووقفت قائلة :
أهلاً بكم يا سعادة الباشا ، آمل أن لاتكون هناك أنباء سيئة
بإذن الله .

- فأجاب الباشا : كلا يا سارة ، الأخبار ليست سيئة تماماً ،
بالعكس ، ففي بعض الأماكن يُجبر الانكليز على التراجع .
- هكذا إذن يا باشا ؟ أوه أوه كم هو حسن هذا .
إن شاء الله ، في أقرب فرصة ، سوف ترمون هؤلاء الانكليز في البحر ،
يا سعادة الباشا .

- إن شاء الله يا سارة ... إني ذاهب غداً إلى القدس فلدي اجتماع هام
مع القادة العسكريين .

- سيدي الباشا ، هل لي أن أطلب منكم أمراً ما ؟
- طبعاً يا سارة .

- لقد اشتقت أنا أيضاً للقدس ، لزمارين ، وعتليت وحيفا ولكل شبر
من أرض فلسطين ، فإن سمحتم لي فأنا أرغب برفقتكم . فأثناء اجتماعكم مع
قاداتكم أذهب أنا إلى زمارين وأتفحص في مختبري أمور الأبحاث التي تجري
واطلع عليها .

- طبعاً يا سارة ، سأكون سعيداً بذلك ، كوني مستعدة صباح غدٍ
سوف نساfer بالقطار . قفزت سارة في الهواء ، وبمركبة طفولية تعلقت بيديها
حول عنق جمال باشا وقبلته من وجنتيه قائلة :

- إنكم أعظم انسان في الدنيا يا سعادة الباشا إن لكم قلباً رقيقاً
وطيباً ، ورحيماً لامثيل له ...

إن التاريخ لن يرى باشا مثلكم ، فأنتم في علمكم جادون ، وحازمون

وجريثون ، أما مع النساء والضعفاء ، فأنتم رحماء وقييرون إلى القلب .
- أرجوك يا سارة ، لاتعودي إلى مدحي ثانية ...
- كلا ... كلا يا باشا ، أرجو أن تصدقوني ! لم يأت رجل مثلكم في
الإمبراطورية العثمانية . ولن يأتي رجل مثلكم من بعدكم .
- أنتِ تقولين هذا ، ولكنكِ لم تشاهدي الصحف المصرية وعليكِ
مشاهدتها . إنهم ينعتونني « بالاتحادي القاتل » ويصفونني « بالجزّار » و
« السقّاح » ويقولون إن ما من أحد على وجه الأرض يمتنى بقائي على قيد
الحياة ، عدا الأتراك .
- فقالت سارة : يا سعادة الباشا ، ما من صحيفة تصدر في مصر إلا
وبإمكانكم شراءها بالذهب ، وبإمكانكم إن رغبتم أن تسيطروا على كافة
الصحف في مصر ، وتملوا عليها ما تريدون كتابته ونشره .
- هذا صحيح يا سارة ، ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟
لقد خطرت ببالي هذه الفكرة علينا إيجاد من يتعاون معنا في مصر .
ولكن هذا المتعاون إن وجدناه هنا ، كيف له أن يذهب إلى مصر ؟
إن هذا الأمر يتعب رأسي . إن سواحلنا مليئة بالسفن الحربية المعادية فلا
يمكننا ارسال أحد إلى مصر .
- سعادة الباشا ، إن لي صديقاً اسمه التير ليفي ، وهو أمريكي
الجنسية ، ويعمل حالياً بالتجارة في القدس . فإن أذنتم لي ، فإن بإمكاني
اقناعه بالذهاب إلى مصر والعودة متى تشاؤون . ولكونه أمريكياً ، فإن
السفن الانكليزية والفرنسية لن تعترضه وإن سمحت لي ، سأقدمه لمعاليمكم .
- أكون ممنوناً لك يا سارة ، أحضره وعرفيني عليه حين وجودنا
بالقدس .
ولكن ، هل هو أهل للثقة ؟ سأهاها الباشا .
- إنه جدير بثقتكم يا سعادة الباشا من كل النواحي . ثم إنه ثري

جداً . ويتقن أربع أو خمس لغات ، مليء بالنشاط والحيوية .
أعتقد أنكم ستستفيدون منه في عدة مجالات ، علاوة على كل هذا ،
فله نفوذ ومعارف في مصر ، وهو على استعداد لتنفيذ ما تأمرونه به .
سر جمال باشا جداً لهذا الخبر وقال لسارة :

- أرى أنك تساعدني ليس فقط على نسيان همومي وتعبي بل
تساعدني أيضاً في أمور الحرب ، وقد بدأت فعلاً بمساعدتي في أموري
اليومية .

نظرت سارة إلى الأرض ، وقالت بنجل شديد :
- أرجوكم يا سعادة الباشا ، لاتزحوا معي ، فأنا خادمتكم الصغيرة ،
المستعدة لتقديم حياتي من أجلكم ، ولو كان بإمكانني لسعيت من جهة لجهة
أحارب العدو من أجلكم .
- مرحى لك يا سارة ، قال الباشا .

ماذا تقترح أن أرتدي هذه الليلة يا باشا

قبّلت سارة جمال باشا من عنقه ثم لفت يداها حول عنقه ومكثت
برهة ثم قالت له : ماذا تحب أن أرتدي هذه الليلة يا سعادة الباشا ؟
- آه لقد نسيت ، لقد دعوت الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا لتناول
العشاء معنا هذه الليلة ، ليكون هذا بعلبك .

توترت سارة بعض الشيء ولكنها قالت :
آه يا باشا ، إن هذا المدعو بالأمير فيصل ، لم أستطع تقبله ولا
الارتياح له . لا أدري ما الذي يدعوكم للتمسك به هنا ، دعوه يرحل للجهة
ليقدم لكم المساعدة برجالهم وليلتحق بجيوشكم .

- سوف يحصل ذلك يا سارة ، سوف يحصل ذلك .
- إني أنظر إليه وكأنه خائن يا سعادة الباشا !

فضحك جمال باشا وقال لسارة :

لا يا سارة ، ... لا ، تنظري إليه بعين الحاقد هكذا ، ثم لاتقلقي ولا تهتمي ، إني بصدد اتخاذ تدابير بشأن حركة الخلاص العربية ، فلن يجرؤ أحد على التحرك من مكانه قط . سوف أقطع كل رأس وكل يد تتحرك ، لاتقلقي أنتِ ولا يشغلنك الأمر .

وضعت سارة يدها على صدره وقالت للبasha : آه يا باشا ، آه ، الحقيقة أنني سعيدة مطمئنة بجانبكم ودائمة السعادة معكم .

- لو أنك ارتديت ثياباً محتشمة فسيكون مناسباً لك هذه الليلة .

فأطلقت سارة ضحكة عالية ، ثم قالت :

- يبدو أن سعادة الأمير لاتسره مشاهدي ، فهو يمتنع عن مصالحتي مدعيًا أن ذلك محرم ...

- تلك هي عاداتهم وتقاليدهم ... قال البasha .

- الظاهر يبدو لكم كذلك يا سعادة البasha ، ولكن لكل منهم عشر زوجات في السر .

- سارة ، قال البasha ، تعلمين أن ديننا يسمح لنا بالزواج بأكثر من امرأة . لذلك بإمكان الشباب أن يتخذوا لهم أكثر من زوجة وأن يمتلكوا عدة جواري . إنها إحدى جوازات ديننا .

فقالت سارة : وهل أنا الآن جاريتم يا سعادة البasha ؟

- كلا ، أجب البasha ، أنتِ عشيقتي وحبيبتي .

فقالت سارة بصوت متوسل :

- أرجوكم يا باشا ، أن لاتعشقوا ولا تحبوا ولا تلمسوا غيري ، فلو حدث ذلك فإني سأموت ، بل سأنتحر ، وسأقتل كل تلك النسوة اللواتي ستعشقهن .
لو شئتم أن تقضوا أوقاتاً ممتعة مع غيري ، فإني لأعترض على ذلك ، ولكن أن تعشقوا غيري فهذا أمر لأستطيع تحمله .

أنا لست زوجتكم ولا عشيقتكم بل أنا جاريتكم وإني راضية بهذا ،
بشرط أن لا تكون لكم جارية غيري ، أرجوكم يا باشا !
كان جمال باشا مندهشاً يسأل نفسه ماذا حصل لسارة اليوم .
- خيراً يا سارة ، هل شاهدت امرأة تدخل هذا المكان ؟ ما سبب
كلامك هذا ؟

وذرفت سارة دموعين ثم قالت :
- لست أدري يا باشا ، فأنا خائفة خوفاً شديداً من أن أفقدكم ، أريد
مرافقتكم حتى القدس ، لأنني خائفة جداً من تواجدكم في بيروت والقدس وسط
الخنونة الذين ملؤوا الوطن ، كما أنني قلقة جداً من أن تأتي امرأة أخرى وتحتل
مكاني ، فلو حدث أن واجهت مثل هذا الموقف تأكدوا تماماً يا سعادة
الباشا بأنني سأنتحر .

- سارة ، لاتستعجلي في اتخاذ قرار الانتحار هذا ، فليس هناك ما
يستدعيك للتفكير به ، ثم دعي هذه الثروة جانباً واذهي وارتي ملابسك ،
فالضيوف سوف يصلون عما قريب .

مسحت سارة دموعها ، وعادت ثانية وجلست أمام المرأة وبدأت
ترتب شعرها وتكمل تجميل وجهها . وارتدت في تلك الليلة ثوباً ، بأكام طويلة
وصدر مغطى ، أسود اللون طويلاً يستر ركبتيها .

ونزلت بصحبة جمال باشا إلى صالون الفندق ، لتناول العشاء وعند
دخول الصالون وقف كل الضباط الأتراك والألمان المدعوون إلى العشاء ،
وأدوا له التحية ، حيث أعدت للباشا وضيوفه مائدة وسط الصالون .

وكان الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا . قد وصلا إلى الفندق واتخذا
مكانهما على مائدة العشاء قبل وصول الباشا ونزوله إلى الصالون .

فصافح جمال باشا الأمير فيصل بحرارة وقال :

- كيف حالكم يا سعادة الأمير ؟ ما أخبار والدكم العزيز ؟ أتمنى له

الصحة والعافية .

- حمداً لله أن دولتنا ، بحماية العثمانيين ، بخير وأمان يا سعادة الباشا .
أجابه الأمير فيصل .
- الحمد لله أجابه الباشا .

نظرات الأمير فيصل لسارة

كان الأمير فيصل حريصاً على أن لا ينظر إلى سارة الجالسة بالقرب من جمال باشا . وحاول جاهداً ألا تلتقي عيناه بعينيها ، فلم يكن يرفع طرف نظره إلا للتحديث مع الباشا . وعند انتهاء الحديث كان الأمير يطأطئ رأسه ولا ينظر إلى أحد أما سارة ، فكانها في تحدٍ مع الأمير ، لم تكن تكف عن النظر إليه والتحديث به ، وهي تتناول قطعة الدجاج من أمام جمال باشا .
كان الأمير فيصل يظهر كل دلائل الاحترام الشديد لجمال باشا . والباشا يبادله هذا الاحترام بتصرفه اللائق والمحترم تجاهه . فامتنع هذه الليلة ، على غير عادته عند تناوله العشاء ، عن تناول المشروبات تقديراً منه واحتراماً لوجود الأمير فيصل بين المدعوين للعشاء .

حتى سارة لم تطلب جلب أي مشروب إلى المائدة . رغم أنها هذه الليلة ، لم تكن مرتاحة الأعصاب ، فانعكس ذلك على ابتساماتها وضحكاتها التي كانت ترميها هنا وهناك مملوءة بالسموم والحقد ، وكأنها كانت تستهتر بكل الموجودين على العشاء .

والتفت جمال باشا إلى الأمير فيصل قائلاً :

- إننا ذاهبون إلى القدس صباح غدٍ ، فإن كنتم ترغبون ، بإمكانكم مرافقتنا ، فربما تشعرون بالضيق من بقائكم في الشام .
- كما يشاء سعادة الباشا ، فإن كان تواجدي معكم يعود بالفائدة

عليكم ، فلا أرى مانعاً من مرافقتكم في رحلتكم إلى مدينة القدس .

- واندفعت سارة فجأة تقول :

- ستتمكنون من تغيير أجوائكم وتجددون نشاطكم ، ثم تابعت :

أنا أيضاً سأرافقكم يا سعادة الأمير ، إن هواء فلسطين مختلف عن هواء الشام ، أنا أيضاً لشوقي لوطني رأيت أن أرافق سعادة الباشا ، وفي حال تشریفكم سوف أعرفكم على بلدي في فلسطين .

- سيدتي ، مادام سعادة الباشا قد أمر بذلك ، فأنا آت معكم للاحالة .
كان الباشا قد وجه الدعوة للذهاب إلى القدس إلى الأمير فيصل بحجة فتح حوار وحديث معه ، ولم يتوقع أن يتحول الأمر إلى الجدّية خصوصاً بعد مداخلة سارة وحديثها مع الأمير .

سارة تطلق ضحكة صفراء

ولجأة مرت في رأس جمال باشا فكرة الاستفادة من قدوم الأمير فيصل إلى القدس . فإن تحركاته ضمن المدن برفقة الأمير فيصل سيكون لها تأثير أكبر على العرب لدى رؤيتهم له برفقته .

فعندما يصلان إلى القدس ، سوف يشاهد الجميع جمال باشا والأمير فيصل جنباً إلى جنب وسوف تتناقل الصحف نبأ ذهاب جمال باشا والأمير فيصل إليها وتنشره في صفحاتها . وهكذا سيدرك الناس أنه لاوجود لسوء تفاهم أو مشاكل بين العرب والأتراك بدليل ظهورهما معاً في الأوساط الشعبية والأماكن البارزة من المدينة ، إنها لفكرة ممتازة ، كان الباشا يفكر بها على هذا النحو .

- فلنذهب سوياً قال الباشا للأمير ، في الحقيقة ، وأنا جاد في ذلك ، سوف تكون رحلة استجمام واصطياف لكم ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، سوف نقوم سوياً بزيارة تفتيشية للجبهة العسكرية ، علاوة على ذلك ، سوف

تتمكنون من أداء الصلاة في المسجد الأقصى عند زيارتكم لمدينة القدس ، والصلاة بجامع عمر أيضاً وندعو معاً لوطننا ولأمتنا في صلاتنا هناك .

- طبعاً يا سعادة الباشا، يمكننا ذلك، غداً صباحاً سوف أرافقكم.
وسرت سارة جداً بدعوة الباشا للأمير فيصل وقبول هذا الأخير الدعوة للذهاب إلى القدس ، فقد كانت تفكر بتلك الرحلة التي ستبدأ صباح اليوم التالي ، وأنها سترافق الأمير أطول مدة ممكنة أثناء السفر في طريقهم إلى فلسطين وإلى القدس ، كما كانت تفكر في اقناع الأمير من جديد بالرحيل إلى مكة .

طوال العشاء ، لم يكن علي فؤاد باشا يتكلم كثيراً ، وبالكاد سمع المدعوين صوته . فلقد اعتقد فؤاد باشا أن دعوة جمال باشا للأمير فيصل لحضور العشاء ، كانت بهدف التحدث إلى الأمير بموضوع الموقوفين في بيروت وأمورهم .

بيد أن جمال باشا لم يتطرق إلى الموضوع مطلقاً ، وفوق ذلك ، دعا الأمير فيصل لمرافقته إلى القدس . غير أن علي فؤاد باشا قد سر لهذا الأمر . فهو أيضاً كان يعتبر زيارة الباشا برفقة الأمير للقدس أمراً إيجابياً ، والتفت جمال باشا إلى علي فؤاد باشا وقال : لقد حددت موعداً مع المفتي أسعد الشقيري غداً صباحاً ، أرجو أن ترسل من يبلغه بضرورة مرافقتي غداً في رحلتي إلى القدس .

وأبلغه أيضاً بأن يتوجه مباشرة إلى المحطة دون أن يأتي إليّ .

- كما تأمرون يا سعادة الباشا . سوف أبلغه ذلك اليوم .

لم يطل وقت العشاء طويلاً ، فقد كان الباشا يرغب في النوم باكراً ليكون جاهزاً صباح غد للسفر إلى القدس .

ورافق جمال باشا الأمير حتى باب الفندق ، ثم صعد مع سارة إلى

غرفة نومها في الطابق العلوي .

سارة تمنعت الأمير فيصل بالخائن

ولأنها غير راضية عن الأمير ودعوة الباشا له ، تمهلت سارة عند باب غرفة النوم وقالت للباشا :

سعادة الباشا ، لم أدعوتكم هذا الرجل للذهاب معكم إلى القدس ؟ إن وجوده سوف يعكر علينا صفونا ، ثم أن هذا الرجل خائن ، إنه خائن !
- إنك محقة يا سارة ، أجاب الباشا ، ولكن علينا الانتظار والتريث لنرى ما سيحدث وما سيرينا الزمن ، لقد دعوته إلى القدس عمداً .

إن المنتمين لحركة الخلاص سوف يشاهدون الأمير فيصل بجانبني أثناء جولتي في القدس ، وسوف أتمكن بذلك من إفهام الجميع بأن الأمير لا يخالفني القول ويطيع أوامري ، وهو صديق لي وهكذا أستطيع أن أكشف بواسطته العدو من الصديق .

وعندها ، عرفت سارة سبب دعوة الأمير فيصل إلى القدس .

- دعوني إذاً أكون عوناً لكم يا سعادة الباشا .

اسمحوا لي بأن أكون مضيفته في فلسطين ، وأن أرافقه في جولته ، وأن أدعوه لرؤية بلدي وقريتي .

- حسناً تفعلين يا سارة .

- ألا يسبب هذا احراجاً لكم ، ألن يسبب لكم شعوراً بالغيرة ؟

فالتقى الباشا نظرة جدية على سارة ثم قال :

- ممن ؟ من الأمير فيصل ؟

- طبعاً ، يا سعادة الباشا ، فالأمير شاب ورجل ناضج .

- نعم ، هذا صحيح ، ولكن لاتنسي أن اسمي فقط كافٍ لابقاء الأمير

فيصل بعيداً عنك .

أطلقت سارة ضحكة من أعماقها وسط هذه الأوضاع والأحداث السعيدة ، واندفعت وطوقت بذراعيها عنق الباشا وقبلته من وجنتيه ورقبته ، ثم أبعدت قبعته ، وبدأت تفك أزرار سترته بعدها أجلسته على الأريكة وخلعت من رجليه حذائييه ، ورويداً رويداً جردته من ثيابه ورافقته إلى السرير .

في الصباح ، وحوالي الساعة السادسة ، وصلت عربية تجرها خيول إلى الفندق ، لتنقل الباشا إلى المحطة . فأعلم الخدم الباشا بقدم العربية ، وركب الباشا برفقة سارة وتوجها مباشرة إلى محطة القطار . في المحطة كان الأمير فيصل ، علي فؤاد باشا وأسعد الشقيري بانتظارهما لاستقبالهما .

وكان جميع الباشوات والضباط الأتراك الشبان قد قدموا إلى المحطة لدواع الباشا . بينهم ضباط المان ونمساويون ، ولم يكن الباشا في حالة تمكنه من مقابلة كل هؤلاء المودعين . فقد كان مرهقاً مهموماً ، والتعب والارهاق باديان على وجهه ، وكان واضحاً أنه لم ينم طوال الليل كله . صافح جمال باشا مودعيه ، وصعد إلى المقطورة الخاصة به ، والمجهزة بأسرة ، وجلس فيها ومن خلال نافذة المقطورة ، وجه الباشا بعض التعليقات الموجزة للضباط والجنود والخدم ، حينئذٍ دوى صفير حاد وبدأ القطار يتحرك ببطء شديد ، بادئاً الرحلة إلى القدس .

جمال باشا يستسلم للنوم

تدد جمال باشا على الفور على السرير في مقصورة القطار واستسلم لنوم عميق وأخلدت سارة إلى النوم أيضاً . في حين كان علي فؤاد باشا والأمير فيصل والمفتي أسعد الشقيري ينتظرون بفارغ الصبر دعوة الباشا لهم إلى مقصورته للمشاورة والحادثة فكان

عليهم أن ينتظروا حتى الظهر ، ويشغلوا أنفسهم بأحاديث مختلفة حول مواضيع مختلفة .

ولكن السؤال الذي طاف بأذهان الحاضرين كان : ماذا حصل لجمال باشا ؟ إذ لم يسبق له أن تصرف بهذا الشكل من قبل . فلم يكن يصدر من مقصورته أي صوت . وأجمع الكل أن سبب تأخره عن لقاءهم هو تعرضه للتعب الشديد وإلا لكان دعا الأمير فيصل إلى مقصورته وقضى معه وقتاً طويلاً ، أو ربما ينام الباشا حتى وقت الظهيرة ثم يخرج لتناول الغذاء مع ضيوفه ، تلك كانت تكهنات أصحابه وضيوفه .

وحوالي الساعة الواحدة ، استيقظ جمال باشا ، وكان القطار قد تجاوز الحدود السورية ، ودخل الأراضي الأردنية ، منطلقاً كالأنف في السهول وبين الجبال .

ارتدى جمال باشا ثيابه ، ودعا إليه الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا ، ومفتي الجيش أسعد الشقيري للتحدث إليهم .
وعندما اجتمع بهم ، قال للأمير فيصل :
مارأيكم لو أننا أخلينا مكة والمدينة من القوات المتواجدة فيها وأرسلناها إلى جبهة فلسطين ؟

- أنتم أعلم بذلك ، أجاب الأمير فيصل ، فإن كان الأمر يتعلق بتقوية جبهة فلسطين فلا مانع لدينا قط .

وإذا كنتم ترون أنه لا بد من تعزيز القوات في جبهة فلسطين ، فإن سحب القوات من مكة والمدينة أمر لا اعتراض عليه . وبإمكاننا أن ندافع عن الأراضي المقدسة ولكن في هذه الحالة لن نتمكن من تزويدكم بالخمسة عشر ألف جندي الذين تحتاجونهم لمهلتكم الثانية على القناة .

علي فؤاد باشا يفكر بإمعان

وتوجه جمال باشا إلى علي فؤاد باشا متسائلاً :

- وأنتم ، ما رأيكم في ما قلته يا باشا ؟

صمت علي فؤاد باشا برهة ، ثم فكر ملياً ، وقال بكلمات واضحة ومدروسة : كما تفضل قبل قليل حضرة الأمير وقال بأنه مستعد وقادر على تأمين الحماية للمدينة ومكة بحيث نتمكن نحن من سحب وتحويل القوات الموجودة هناك بقيادة فخري باشا إلى الجبهة الفلسطينية وبذلك نكون قد دعنا جبهتنا في فلسطين ، ومن جهة أخرى وقّرنا على أنفسنا تكاليف الإمداد والتموين وإبقاء تلك الجيوش في مكة والمدينة دون حاجة . ثم التفت إلى الأمير فيصل وقال : إنكم ترون وتلمسون اليوم جهودنا لإزالة كل نقاط الخلاف بيننا وبينكم لكي نمحكم الاطمئنان والاستقرار في بلدكم . فبانسحاب تلك الجيوش إلى فلسطين ، نخفف عن الدولة عبئاً كبيراً من الالتزامات . وتستطيع بعد ذلك بلادكم أن تنهض بمفردها وتواكب تقدمها وتطورها ، طبعاً كل ذلك بعد موافقة ومساندة سعادة الأمير .

مسح الأمير فيصل لحيته ثم قال :

إننا مستعدون لتقديم أية تضحيات في سبيل انتصار الدولة العثمانية .

إني ووالدي دائماً رهن أمركم .

مسألة منح العرب المناصب

جمال باشا : إننا نشكركم يا سعادة الأمير ، فإذا كنّا ننتظر من شخصية مثلكم ، ابن والدٍ مبارك ، جواباً غير ذلك الذي أعطينا إياه . سوف يعيش الأتراك والعرب تحت راية واحدة على هذه الأراضي . وسوف نسعى لرفاه وسعادة هذه الدولة . وسوف تعمر ديارنا ويعم فيها التقدم ، وبإذن الله فإننا بعد انتهاء الحرب ، سوف نمحكم مركزاً داخل البلاد .

أما بخصوص تدخل الفرنسيين والانكليز في أمور بلادنا الداخلية ودعمهم ومساندتهم لحركة الخلاص الوطنية ، فإني أقول ، لهؤلاء المساكين ، راجياً أن تنقلوا لهم ذلك : إن الفرنسيين والانكليز ، لن يمنحوا أمتكم الحرية ، بل نحن ، نحن الذين سوف نعطيكم تلك الحرية وسوف تعيشون في سعادة وهناك في كنف دولة واحدة . إن القومية العربية ، في الأصل ، هي قضية نؤمن بها وتحظى باهتمامنا . كما أننا نقدر الشعب الذي يعيش على الأراضي المقدسة ، فسوف نعمل على دعم الجيش والقوات بشكل يشرف وطننا ، ولقد أخذت الدولة مسؤوليات الدعم المادي والمعنوي على عاتقها ، ولهذا السبب فإن الدولة العثمانية فرضت بعض الضرائب لقاء الحماية العسكرية ومع ذلك سنلغي جميع هذه الضرائب والخدمة العسكرية أيضاً ، وسوف نعطي الشعب كل احتياجاته المادية والمعنوية ، غير أننا وبانتظار انتهائهما ، سوف نعمل على إبقاء سمعة دولتنا عالية ونظيفة وسوف نحافظ على كرامة شعبنا .

المطلوب دحر الاسلام

إنكم تعلمون ، أن معارك ومؤامرات حيكت من قبل الدول الكبرى لتدمير الدولة العثمانية ، وتجزئتها ، وسلب ميراثها لنزع العلم المسلم من على أراضيها . فهذه الحرب لم تنشب بسبب طلقة صدرت من الأراضي الصربية ولا بسبب مرور سفينتين المانيتين عبر المضيقين.

لقد نشبت هذه الحرب لتدمير الدولة العثمانية التي ترفع راية الاسلام عالياً ، هذه الحرب اقامتها الدول الكبرى لإبادة الاسلام ومحوه من وجه الأرض منذ العصور القديمة .

فأوروبا المسيحية منذ مئات السنين ، كانت قد أعلنت الحرب على الاسلام . وبإذن الله ، هذه الحرب ستكون الأخيرة في سلسلة هذه الحروب إن

تضامن وتعاون الأتراك والعرب في هذه الحرب والجهاد معاً سوف ينقذ الاسلام والدولة العثمانية من الهلاك .

كان الأمير فيصل يستمع إلى كلمات جمال باشا هذه مطأطئاً الرأس وعندما انتهى من كلامه ، قال له الأمير فيصل .

- فليكن الله بعونكم . إننا ، لكي نبقي على راية الاسلام عالية ، لا نتوانى عن التضحية بأرواحنا فداءً لها ، إن الدين الاسلامي والأراضي المقدسة ، لا يمكن لها أن يكونا تحت رحمة الأعداء .
وشارك المفتي الشقيري قائلاً :

- فلينصر الله دولتنا وأمتنا وليخز أعدائنا .

وردد الجميع معاً : آمين ... آمين ...

ثم قال جمال باشا :

لا بد أن المجوع قد أصابكم ، هل ترغبون في أن نتناول الغداء ؟

ورد الجميع : كما يأمر سعادة الباشا ...

وقف جمال باشا وتوجه إلى الممر وكان القطار يسير محدثاً هزات

ورجات قوية ، وقال لهم : تفضلوا بالتوجه إلى الصالون ، وسألحق بكم .

وتوجه إلى باب المقصورة المجاورة لمقصورته وطرق بيده بهدوء عدة

مرات وسمع صوتاً من الداخل يقول :

- من هناك ؟

- سارة ... أنا ... قال جمال باشا .

سارة تفتح الباب بعيون حزينة

فتحت سارة الباب ، بعيون يملؤها الحزن وقالت :

- تفضلوا يا سعادة الباشا . فقال لها الباشا :

- إننا متوجهون إلى المطعم في الصالون ، إن كنتِ ترغبين ، فيمكنك

تناول غداك هنا في مقصورتك .
وأمسكت سارة بيد جمال باشا وسحبته بهدوء إلى الداخل ، وأغلقت الباب ثم اندفعت إلى صدره ولفت ذراعيها حول عنقه . وقالت :
- كنت مستغرقة في النوم ، وقد رأيتم في حامي .
ثم قبلته . وتابعت :
- كنت أرغب بتناول الغداء معكم يا سعادة الباشا .
- لا يمكن ذلك ، قال الباشا ، فضيوفنا موجودون في الصالون ، ونحن نجري محادثات بالغة الأهمية . أرجو أن تبقي هنا .
- كما تأمرون يا باشا ، ثم تابعت :
- ولكن أرجوكم أن لا تنصتوا إلى ذلك الأمير ولا تعيروا اهتماماً لما يقول . إن هؤلاء خونة أرجوكم أن تصدقوني .
- حسناً .. حسناً ... يا سارة ، قال الباشا ، إنك لم تستطعي أن تحمي هذا الأمير بشكل أو بآخر .
- أنا لا أحب من يضركم يا باشا ، ولو تمكنت لقتلته أمامكم يا سعادة الباشا .
وعانقت سارة الباشا من جديد وقبلته عدة مرات .
وتملص الباشا من ذراعي سارة ، وذهب إلى المطعم وانضم إلى مدعويه الأمير فيصل وعلي فؤاد باشا والشقيري .

سارة تسلمت نبأ هاماً

بعد خروج الباشا من مقصورتها ، بدأت سارة تتعم أغنية جميلة .
لقد كانت هذه أسعد لحظات حياتها . فلقد كانت قد انصتت إلى كل ما جرى من حديث بين جمال باشا والأمير فيصل أثناء تحدثهما في مقصورة الباشا .

- إذا سوف يخلون المدينة من القوات المقاتلة ، وسوف يرسلون تلك القوات إلى فلسطين .

لقد كان هذا نبأ هاماً جداً أفرعها ، ولكنها كانت مسرورة لحصولها على هذه المعلومات الهامة ، ولا شيء أجمل من هذا . والآن وقد بدأت الترتيبات لإرسال الجيش إلى القدس واخلأ المدينة ومكة رأت أنه لابد إذن من ارسال هذا النبأ إلى قائد الجيوش الانكليزية الجنرال اللنبي بالسرعة القصوى .

بناء الدولة الموسوية

« أن للانكليز أن يظهروا على ساحة فلسطين وبسرعة » قالت سارة في نفسها ، « إن تأخرهم أكثر من هذا ، ليس في مصلحتهم » .

ونظرت سارة من نافذة القطار ، وتأملت الأراضي الفلسطينية التي كانت تبتعد مع جريان القطار . وتحيلت هذه الأراضي وكأنها أراضي الدولة الموسوية . المفروض أن ينتصر الانكليز في هذه الحرب ، ويطردوا الأتراك منها ويبني الموسويون وطنهم عليها ، ويجمع شمل الأبناء فيها . وظلت سارة غارقة في أحلامها تلك لفترة وجيزة .

وعند محطة الوصول ، كان حشد كبير بانتظار جمال باشا لاستقباله . وعلى رأس الضباط الألمان والأتراك الذين قدموا لاستقبال جمال باشا الكبير ، جمال باشا المرسيني الملقب بالصغير .

قام جمال باشا بتفتيش حرس الشرف ، وصافح مستقبله ، محافظ القدس ، ومتصرف المنطقة ، وشخصيات عديدة من المدينة ، فرداً فرداً .

كما قام جميع المستقبلين بالترحيب بالأمير فيصل بالحفاوة ذاتها .

وتعالت النداءات : يحيا جمال باشا ، يعيش جمال باشا ، يحيا الأمير فيصل .

انتشرت الجموع في كل شوارع القدس

كانت الهتافات والتصفيق تتعالى هنا وهناك ، فمعظم أهالي القدس قد خرجوا إلى الشوارع والكل يريد رؤية جمال باشا .
شاركت الكنائس والجوامع المنتشرة على التلال في المدينة، المواطنين فرحتهم بحضور جمال باشا إليها ، فعلت أصوات أجراس الكنائس وامتزجت مع أذكار المساجد التي راحت تنطلق في كافة أرجاء المدينة .
وشارك رجال الدين ، شيوخاً وأئمة وكهنة ، المواطنين فرحتهم وسط دوي أصوات أجراس الكنائس وأذكار المساجد التي زادت من سحر وجمال هذه المدينة المقدسة .

وكان مقر قيادة جمال باشا على جبل الزيتون . مجرد بناء صغير في الماضي لمدرسة متواضعة ، غير أنه بعد الحرب العالمية الأولى تقرر تحويل هذه المدرسة إلى مقر للقيادة العسكرية التركية والالمانية .
استقل جمال باشا سيارته وتوجه إلى مقر القيادة مباشرة، أما الأمير فيصل وأسعد الشقيري فقد توجهوا إلى فندق فوست للمكوث فيه في حين توجهت سارة إلى منزل صديقة الطفولة ليديا مرزو يرافقها أحد الخدم .

ليديا المرأة الحسنة

كانت ليديا بجالها وحسنها ، محور حديث سكان القدس ومحط إعجابهم . وتملك بيتاً للدعارة يتردد عليه معظم الضباط الالمان والأتراك لقضاء أوقات ممتعة فيه . غير أن السيدة ليديا كانت على هامش هذا البيت تملك داراً خاصة بها . وكان هؤلاء الضباط الالمان والأتراك الذين يترددون على السيدة ليديا من كبار ضباط الأركان وذوي الرتب العسكرية الرفيعة ، يحذون صالتهم المنشودة في منزلها .
فكانوا يمارسون هواياتهم الفنية في هذا المنزل الذي تمتلكه السيدة

ليديا . فبعضهم كان يعزف على البيانو والآخر يرسم لوحات وينسون بذلك
ألمهم وتعبهم من حياتهم في الجبهات العسكرية .

عندما لمحت ليديا سارة قادمة إليها ، تملكها العجب والدهشة
وصاحت بلهفة : سارة ، أهذا أنتِ ، لقد اشتقت إليك ، واندفعت تعانقها
بحرارة ملؤها الشوق والمحبة .

ثم جلست الامراتان الجميلتان تتبادلان أطراف الحديث في الصالون ،
وتشكوان همهما كل للأخرى .

- لقد أتيت برفقة جمال باشا قالت سارة .

- توقعت ذلك يا سارة ، أجابت ليديا ، إن أخبار انتصاراتك أسمعها
كل يوم وألمس نتائجها . سيمون وكومباس يزوداننا بالأنباء وبأخبارك يوماً
بيوم ، لقد قدمتِ للملة الموسوية خدمات جلّى ، وإن شاء الله سيفي الانكليز
بوعدهم بعد انتهاء الحرب .

- ماذا تقصدين بقولك إن شاء الله سيلتزم الانكليز بوعدهم لنا ؟

لو أنهم فكروا بعدم الوفاء بوعدهم واحترام كلمتهم عند انتهاء الحرب
وعدلوا عن بناء دولة موسوية على أرض فلسطين هذه ، فسوف نخنقهم
بأيدينا هذه ... فالانكليز يعرفون تماماً من هم الموسويون ، أنسيت كيف قتل
شعبنا في روسيا ، ورُمي اخوتنا في بولونيا وفي البحر رمياً بالرصاص ، وكَم من
المشقات تحملنا للوصول إلى هنا .

هل تعتقدين أنني مسرورة لقضاء أيامي مع جمال باشا ؟ ألا تعتقدين
أنني أكره الأتراك ؟ فأنا لا أتحمل كل هذه المشقات من أجل حيي لجمال باشا
أو للانكليز ، بل أتحمل كل الصعاب ، وأتخطى الخطر تلو الخطر والمصيبة تلو
الأخرى ، من أجل اخوتي ، لكي أؤمن لهم قطعة أرض ، وطن صغير ،
يعيشون فيه بسلام ، من أجلهم فقط أتحمل كل هذا العذاب . لقد قدمت
أغلب الفتيات الموسويات أغلى ما عندهن في أحضان الضباط الالمان

والأتراك للحصول على أبسط وأتفه المعلومات منهم من أجل حفنة من التراب نعيش فيها بحرية وسعادة ، هؤلاء الضباط الذين لا يساوون خمسة قروش ... علينا تطهير هذه الأرض من الأتراك والاستيلاء عليها ، أليس هذا هو ما يجب أن يكون ؟

لاهتمي ، سأذهب قريباً إلى الاسكندرية لمقابلة صاحب السعادة القائد العام للقوات الانكليزية اللنبي ، وأبصق في وجهه . فإما أن يتحرك ويرمي هؤلاء الأتراك من على وجه هذه الأرض إلى الخارج مثل خرقة بالية ، وإما أن يدعنا نتحرك نحن بأنفسنا ونتصرف .

إن جمال باشا ينوي جلب قواته من المدينة ومكة إلى فلسطين ، وإن حصل ذلك ، فإن الانكليز سيواجهون صعوبة في الدخول إلى فلسطين لذلك ، لابد لنا من حث الانكليز على التحرك السريع والفوري . لقد ذكرت لهم هذا مراراً ، لست أدري كم مرة ، ولكن هؤلاء الانكليز سوف يجعلونني أفقد صوابي ببرودة أعصابهم .

وجوابهم مثل المرات السابقة : «لاتتبعجّلوا الأمور، ولا تنفعلوا، عليكم بزرع روح العدواة والانشقاق بين العرب والأتراك، وعليكم اجهاض حركات الخلاص في البلاد .»

ماذا يريدون منا أن نفعل أكثر مما فعلنا ؟ فرجالنا، ونساؤنا، وشبابنا ، وكهولنا كلهم مسخرون لهذه الغاية ، ونحن مشاربون على النضال ومصممون عليه ، حتى آخر قطرة من دماننا .

ألم نرسل فتياتنا اللواتي لم يبلغن سن الرابعة عشر إلى أحضان الضباط الأتراك والالمان للحصول على معلومات سرية منهم ؟ ألا نرسل كل يوم الأنباء والمعلومات إلى القيادة العسكرية الانكليزية؟

وأنا بالقرب من جمال باشا أحصي لهم عدد المرات التي يتنفس فيها ؟ فماذا يفعل الانكليز على شواطئ البحر ، هل يستحقون ؟ .

نعم إنهم يستحمون يا ليديا ، إنهم يستحمون ...

سارة تطلب كأساً مزدوجاً من الكونياك

جمدت ليديا وهي تسمع من سارة هذه الكلمات ، وكلها انفعالٌ وغضب ، يائسةً فاقدة الأمل وكأن مصيبة قد ألمت بها .

فقالت : سارة يا حبيبتي ، إنكِ على حق ، من الأرض وحتى السماء ،
إني أعلم ذلك ، لا بد وإنكِ تعيشين في أجواء من التوتر والخوف من الموت
المرتقب . أنتِ وأنا ، كلنا كذلك . والفتيات الثلاثون العاملات عندي
يشعرون شعورك هذا ولديهن مخاوفك ذاتها ، كلنا نعيش أياماً قلقة
ونفسيتنا متوترة .

هل تعتقدين أننا نتحمل رائحة أفواه هؤلاء الضباط الأتراك والالمان
كل ليلة من أجل متعتنا ؟

ألا نحارب كلنا ، في جبهة واحدة ، ومن أجل غاية مشتركة ؟
سأقدم لك بعض الشراب لعله يخفف من حالتكِ هذه .
- أريد كأساً مزدوجاً من الكونياك قالت سارة .

توجهت ليديا بخطى ثقيلة إلى الغرفة المجاورة ، وعادت حاملة كأسين
من الكونياك قدمت أحدها لسارة ورفعت الثاني عالياً وقالت : ذهب الكثير
وبقي القليل يا سارة ، لنشرب نخب مستقبل الدولة الموسوية .

- نخب الدولة الموسوية قالت سارة ، وأفرغت كل منها كأسها حتى
الثمالة .

عادت ليديا إلى الغرفة ثانية وجلبت معها زجاجة الكونياك . وعلى
أثر تناولهما للكأس الكونياك ، شعرت الامرأتان بارتياح قليل في داخلهما .

وتابعت سارة حديثها وهي ترشف كأسها الثاني :

أرسلني في طلب التير ليفي هذه الليلة . يجب أن أتكلم معه . سوف

يذهب إلى مصر بناء على طلب جمال باشا ويتوكيل منه ، ليؤدي مهمتين ، أحدها أن يحاول التفاهم في مصر مع محرري الصحف للكف عن إشاعة ودس الأنباء المؤذية بحق جمال باشا ، والثانية نقل الانباء من مصر ، ومن قيادة أركان الجيش الانكليزي إلى جمال باشا .

باختصار ، فإن التير ليفي سيرسل كجاسوس لجمال باشا إلى مصر .
- ألا يشكل هذا خطراً على حياة التير يا سارة ؟ سألت ليديا وحدقت سارة بليديا وصاحت :

ألا يشكل كل شيء نقوم به خطراً على حياتنا ؟
ثم نظرت في عيني ليديا وتابعت :
- هل تحبين التير إلى هذا الحد ؟
- طبعاً أحبه يا سارة ... قالت ليديا
- وهل يغار عليك ؟ لأن امرأة جميلة مثلك ، لابد لحبيبها أن يغار عليها ...

لتغافروا على بناتكم وبناتكم

- إنه يغار عليّ ، ولكنه لا يظهر ذلك ، فلا حيلة له ، فقد أمرتنا بأن لا نغار على بعضنا البعض ، حتى أنه ، في يوم الأحد الماضي قال لنا الحاخام ، « إن الذين يعملون ويناضلون من أجل هذه الأرض عليهم ألا يغاروا على بناتهم ، لأنهن يعملن لغاية وطنية مطلقة » إن جميع تعليقاتك موجودة في عقولنا ولو اقتضى الأمر أن يحمل الرجل زوجته من مضجعه ويضعها في حضن ضابط تركي أو ألماني ، فلن يتأخر فهذا عمل مشرف ونحن لا ننسى هذه التعليقات أبداً يا سارة .

- لاتنسوها يا ليديا ... لاتنسوها ... عليكم بعدم ارتكاب أي خطأ ، وأخذ الحذر الدائم ، من الالمان والأترك فهم يعتقدون أننا تضاجعهم من

أجل المال والمتعة وأنا فاشيون^(١) دعوهم يعتقدون ذلك حتى انتهاء الحرب ،
ففي نهاية الحرب ، سيذكر التاريخ كيف انتصرت أمة لا تملك سلاحاً ولا
مقاتلين ، وسوف ينظر إلينا العالم نظرة دهشة وتعجب لهذا النصر الكبير
الذي سنحققه.

- إن شاء الله إن شاء الله يا سارة رددت ليديا ثم أضافت :
- إن هذه الأيام لقريبة ، أليس كذلك يا سارة ؟
- طبعاً قريبة ، إنها آتية لا محال ، فالحرب قاربت على النهاية ،
والانكليز والروس والفرنسيون يريدون وضع نهاية لها .
غير أنهم يعتمدون علينا كلياً في أداء هذه المهمة ، فالانكليز يريدون
منا نشر روح الصراع والعداء بين الأتراك والعرب في الداخل . وعلينا
إعلامهم يومياً بكل مجريات الأحداث التي تقع ، وبعد أن يبید العرب
والأتراك بعضهم بعضاً يأتي الانكليز ملوحين بأيديهم وكأنهم في نزهة ...
هل هذا أمر مقبول ومعقول ؟

هذه حرب يا ليديا ، هذه حرب ، وعلى الانكليز أن يذوقوا طعم
الموت كما نذوقه نحن ، لا بد لكي ننتصر ، من أن نقدم الشهداء ، وهل يمكن
احراز النصر من دون شهداء ؟
ذلك الخنزير اللئيم جالس في شواطئ الاسكندرية ، يعيش مترفاً
ويستجم في أجوائها الحاملة ، في حين أن عليه طرد الأتراك أولاً ، ثم التحرك
على الأراضي التركية .

(١) كلمة فاشية لم تكن معروفة ومتداولة إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، لاسيما بعد صعود
حركة موسوليني في إيطاليا اعتباراً من عام ١٩٢٢ .

هل تمكنت القوات الانكليزية من اجتياز المضيق ؟

قالت ليديا : أنتِ محقة يا سارة .. اسمعي نبأ سيئاً.. لقد فرت القوات الانكليزية في غزة الغربية وانهزمت أمام القوات الالمانية والتركية، فلم يعد بإمكانهم شن أي هجوم وموقفهم العسكري أصبح بوضع الدفاع فقط ...
- فقالت سارة : لو استمر الانكليز على هذا النحو فستصل القوات الموجودة في مكة والمدينة غداً إلى هنا، وجمال باشا، لن يحارب بهذه الجيوش القوات الانكليزية فقط ، بل سيعمل على طردهم من مصر أيضاً .

من يظنون أنفسهم هؤلاء الانكليز بحق الله ؟!
ألم يتعلموا من المرة الماضية عندما حاولوا دخول المضائق^(١) ؟
سأخبرك أنا الآن بنبأ مفرح ، يا ليديا ، ستكلف الحكومة التركية بطل حرب المضيق مصطفى كال باشا بالذهاب إلى المدينة ، حيث سيقود القوات المتواجدة هناك إلى فلسطين وستقوم القوات المشتركة بحملة ثانية على القنال لإفناء القوات الانكليزية .

يا إلهي - قالت ليديا ، إن هذا الخبر خطير ومهم يا سارة ...
يجب إبلاغه فوراً للقيادة .
- كلا يا ليديا ، هذا الخبر سأحمله بنفسي إلى الجنرال اللنبي وأبلغه اياه بالذات ، سوف أتحدث أنا معه ، فبعد أن أعطي لالتير ليفي التعليمات اللازمة ، سأسافر إلى الاسكندرية وسوف أقابل هذا الجنرال العظيم بنفسي .
فقالت ليديا متعجبة : أليس هذا عمل مليء بالخطر يا سارة ؟

(١) المقصود هنا مضائق الدردنيل والبوسفور ، حيث حاولت الأساطيل الانكليزية والفرنسية عام ١٩١٥ اجتيازها والوصول إلى البحر الأسود لمديد المساعدة لخليفتها روسية القيصرية ، ولكنها كما رأينا أعلاه ، فشلت في اختراقها ، أمام صمود حصن جناق قلعة .

طبعاً خطير - قالت سارة: ولكن لم يبق لنا طريق آخر نسلكه غير هذا فنحن، لسنا صبورين كالانكليز، إن الانكليز يريدون احراز النصر وهم قابعون في مكائهم، ويريدون لهذه الأراضي أن تكون مستعمرات ومناطق لاستثمار البترول، في حين أننا نريدها وطناً ومزاراً لنا. طبعاً هم يحاربون ليستعمروا ويمتصوا خيرات هذه الأرض، ولكننا نحارب من أجل قضية وطنية .

املئي الكاس يا ليديا

ملأت ليديا كأس سارة وقالت : ألا تشربين كأساً أخرى يا سارة ؟
فردت سارة : املئي يا ليديا املئي ... فأنا حزينة جداً .
منذ وقت طويل لم أجالس صديقاً مثلك يا ليديا أبشه همومي .
ففي الشام لا أقابل سيمون إلا نادراً ، والأخبار تصلها بواسطة الأطفال الصغار ، وكومباس لم أره سوى مرة واحدة .
- معك حق - قالت ليديا ، فإن تسريب المعلومات وأنتِ بالقرب من جمال باشا ليس أمراً سهلاً ، فليدك الله بالصبر ، من يدري كم ليلة قضيت وأنتِ مستيقظة ، ومن يدري كم تعرضت لمواقف خطيرة .
فأنتِ تواجهين الموت في كل دقيقة وأنتِ تقفين وجهاً لوجه مع الباشا وهذا عمل ليس بالسهل . سارة ، لو علم الباشا بالأمر ، هل تعتقدين بأنه يشنقك ؟

- هل تمزحين يا ليديا ، إن جمال باشا لا يتردد لحظة في قتل أبيه وشنقه في ساحة المدينة ، إذا علم أنه خائن للوطن ...
- ألا تخافين منه يا سارة ؟

- نعم ولا . كل ما أخشاه هو أن يكتشف الأمر ، وطالما أن الأمر لم ينكشف بعد ، فإني أستطيع خدمة أمتي بكل سهولة ودون خوف . ثم لا تنسي أنه في حال القبض علي فإن الأمر سيكون سيئاً لكم جميعاً .

عندها ، لن يدع جمال باشا حجراً فوق حجر في فلسطين ، هذا الأمر أعرفه تماماً .

- لعنة الله عليه ، إن شكل جمال باشا أصلاً يدعو إلى الفزع ، كيف تتحملين كل هذا يا سارة ؟ فليكن الله بعونك ، ...
هل يجيد جمال باشا التعامل مع النساء ؟

فضحكت سارة وقالت : ليس كما تتظنين يا ليديا فيجب ألا ننقص من حقه في هذا المجال ، إنه كأي رجل أو ضابط ، إلا أنه مغرور جداً ويشق بنفسه كثيراً ويظن أنه يفهم بالسياسة ولكنه لا يعرف منها إلا القليل .
لقد دعا الأمير فيصل ليرافقه برحلته إلى القدس ، فهو يعتقد أن الناس سوف يسرهم رؤيتهما جنباً إلى جنب وسوف يقولون أنه لا خلافات بينها تلك هي الصورة التي يريد الباشا أن يراه عليها أعضاء حزب الخلاص العرب ، في حين أن والد الأمير فيصل يجري لقاءات مع الانكليز سراً ، ولو علم بهذا الأمر ، من يدري ماذا سيصيبه حينئذ .

فالتت ليديا : هؤلاء الأتراك ساذجون وأبرياء جداً .
في الحقيقة هم كذلك يا ليديا - قالت سارة ، حتى أن طفلاً صغيراً يستطيع أن يخدعهم .

دعي كل هذا جانباً يا ليديا ، وأرسلني في طلب التير ، وليأت لمقابلتي الليلة . فخرجت ليديا وكلفت أحد الصبية بأن يذهب ويستدعي التير .
ثم عادت قائلة :

- إنك متعبة يا سارة ، اصعدي إلى غرفتي وخذي قسطاً من النوم واستريحي .

- كلا يا ليديا ، لاوقت للنوم ، أخبرني فتياتك على الفور بأن جمال باشا سيعقد اليوم بعد الظهر ، اجتماعاً هاماً في مقر القيادة التركية ، وسيحضر هذا الاجتماع عصمت ميرلاي بك وفوزي باشا وجمال باشا المرسيني

وحسن حسني باشا وعدد كبير من قواد الفرق العسكرية، وسوف تتم في هذا الاجتماع دراسة وتحضير خطة الحملة الثانية على القنال واتخاذ القرارات بصددها. يجب أن أحصل عل كل هذه الخطط .

في حضي جيش النساء

فضحكت ليديا وقالت : يا صغيرتي العزيزة سارة ، إننا لانستطيع مجاراتك ، ولكن لاتقلقي ، فسوف تأتي كل تلك الخطط إليك هنا .
- هل فتياتك أهْلٌ للثقة يا ليديا ؟

- طبعاً يا سارة ، ولمعلوماتك فقائد المئة أدهم بك ، وقائد الألف عارف حكمت بك ، وقائد المئة عادل بك سيحضرون الاجتماع أيضاً .
وهؤلاء الضباط أركان حرب هم الذين يقومون بوضع وإعداد الخطط العسكرية اللازمة ويعرضونها على القادة . وهؤلاء بالذات يقضون لياليم مع فرقة فتياتنا الحسانوات ، فلا داعي للقلق ، كل تلك الخطط العسكرية ستصل إليك ، بعد أن تسرقها فتياتنا من منازلهم .

- ولكن يا ليديا ، حذار من أن يحصلن على خطط مزيفة .
- كلا ... كلا ، إطمئني أنتِ يا سارة ، فحتى هذه الساعة كل الخطط التي حصلت عليها فتياتنا كانت صحيحة وأصلية ، نحن لانحصل على خطط مزيفة .
- حسناً ، في هذه الحال ، أستطيع أن أخلد إلى النوم قليلاً .
- طبعاً ، أرجوك أن تستريحي قليلاً الآن يا سارة .
ولو سمحت لي فسأعرفك على ضابط شاب هذه الليلة .
كلا ... كلا ، فجمال باشا لايقبل أن تتعرف حبيبته على قائد مئة أو قائد ألف ولا يرضى لها صحبة أحد منهم .

ففي الشام ، حتى الباشاوات يقدمون لي التحية ويقفون احتراماً لي .
- طبعاً سيقفون احتراماً لك يا سارة ، فأنتِ رمز الجلال في هذا البلد .

- وأنتِ أيضا كذلك يا ليديا . إني ذاهبة إلى غرفة النوم ، أرجو عند قدوم أي نبأ من جمال باشا أن توقظوني في الحال . لقد أبلغته بأنني سأمكث عندك وسأكون بضيافتك . في حين سينام هو في مقر قيادته ، وسوف أقابله بعد ظهر غد ، لمعرفة رأيه بعد ارسال ألتير إليه ، إني أوكل إليك مهمة الحصول على مجريات الاجتماع اليوم . وسأتمكن من النوم مرتاحة البال يا ليديا .

- أحلاماً سعيدة يا سارة ، ونوماً هنيئاً .

- أشكرك يا ليديا .

اتجهت سارة إلى غرفتها ، وتأثير الكونياك واضح عليها كالنار تتوهج في داخلها وتمددت على السرير الناعم واستسلمت لنوم عميق .
وعندما استيقظت كان التير قد عاد منذ وقت طويل ، وجلس في الصالون ينتظرها .

وعندما شاهدت سارة التير ، عانقته بقوة .

- إنك تزداد شباباً يوماً بعد يوم يا التير ، وتزداد تألقاً ، لاشك أن لليديا يد في ذلك ، فأنت مدين لها بهذا .

كان التير وليديا ، قد اتفقا على الزواج قبل نشوب الحرب غير أن الحرب أجلت مشروعها هذا ، وها هما اليوم عضوان في مجموعة سارة ، يعملان مع جهاز الاستخبارات الانكليزية ، ويعتبران همزة وصل بين سارة والمستوطنين الموسويين في فلسطين .

المستوطنون الموسويون

كان المستوطنون الموسويون يلعبون دوراً فعالاً في فلسطين . يأتون للاستيطان والعمل في الزراعة ، في بادئ الأمر ، ثم ينضمون بعد أن يستقروا إلى الحركة الموسوية الهادفة لإنشاء وطن موسوي في فلسطين ، ورغم المصاعب

التي يواجهونها في حياتهم اليومية ، فإن أملهم كبير بأن يعيشوا برفاه وسعادة عند قيام دولتهم الموسوية عما قريب .

والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء المستوطنين قد جمعوا ثروة كبيرة وأصبحوا من أصحاب الأموال ، ويعيشون حياة رفاه وسعادة ، وطبقوا نظام الزراعة الحديثة ، وزرعوا أنواعاً كثيرة من الفاكهة والحبوب ، وقاموا بتربية المواشي على اختلاف أنواعها ، ويدير كل منهم مركزاً للاتصالات مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية .

وكانت الحركة الصهيونية ، بدعم من هؤلاء المزارعين والمستوطنين ، تساعد أجهزة الاستخبارات الانكليزية وهكذا جند التير وليديا نفسها تحت إمرة سارة والاستخبارات الانكليزية ، تضامناً مع بقية المستوطنين .

إن لم نصبح جسداً واحداً

توجهت سارة والتير إلى غرفة مجاورة للمصالحون ، وجلست على أريكة في زاوية الغرفة وأشعلت سيكارتها ، وبعد أن سحبت منها بعمق قالت :
- التير . لقد انهكت هذه الحرب الجميع . وعكرت علينا صفو أيامنا ، وأنا أعرف هذا جيداً ...

أنت تعمل بجهد ونشاط وترهق نفسك وحقت إنجازات مهمة . لكن عليك القيام بمهمات أكبر لترفع من معنوياتك ولتكون بقدر المسؤولية .
وقد تُقتل ، أنت وأنا وجميعنا قد نُقتل ، ولكن لا تنس أن مصلحة الدولة الموسوية فوق كل اعتبار وفوق كل شيء ، لم يمددنا الانكليز حتى الآن ، غير أن دولاً تعد خططاً لهذه المنطقة ، مثل فرنسا ، وإيطاليا ، والعرب والروس . أما أمريكا فما زال موقفها مجهولاً بالنسبة لنا ، قد تتوصل هذه الدول إلى قرار بشأننا ، غير أننا لا يمكننا أن نتحمل نتيجة قراراتهم هذه ، فنحن بشر لنا طاقة محدودة .

فالانكليز استقروا في مصر بعد حرب دموية كلفتهم العديد من الضحايا والخسائر . وبصفتك أحد رجال جمال باشا ، سوف تذهب اليوم إلى مصر وتقابل هناك أصحاب دور الصحافة وتحاول منع كتابة ما يشوه سمعة الباشا ، وموزارة أجهزة الاستخبارات الانكليزية ، ستوهم جمال باشا بأنك تمده بمعلومات عن خطط القوات الانكليزية ، وسترسل له خططاً مزيفة وبذلك سيقع جمال باشا في الفخ ويندحر الأتراك إلى الأبد .

وبرحيل الأتراك ستصبح أحلامنا حقيقية ، أما في حال حدوث عكس توقعاتنا ، فستستمر هذه الحرب إلى ما لانهاية ولا أحد يعرف عاقبتها . غير أنني سمعت من جمال باشا أن هناك العديد من القتلى الالمان على الجبهة مع فرنسا يومياً .

فأجابها التير ببرودة : سارة ، ألم نقسم اليمين على أن نفدي هذه الأرض ، بكل قطرة من دماثنا ، في سبيل اقامة وطن موسوي عليها ؟ أنا لم أنس قط هذا القَسَم ! لاأنا ، ولا أي موسوي ، يمكنه أن ينسى هذا القَسَم . فكوني مطمئنة البال سأنفذ أوامر جمال باشا في التوجه إلى مصر ، وسوف أعمل على تحقيق ما يريد وانجاح مهمتي .

- سَلِّمك الله يا التير ، إني أعتمد عليك ، تعال ، اقترب مني ، لا قبلك وأهنتك .

سارة تهنيء التير

وانحنى التير فقبلته سارة من وجنتيه .

ثم خرج من الغرفة وعاد برفقة ليديا حاملاً زجاجة مشروب .

ملأت ليديا الكؤوس ورفعت سارة كأسها عالياً وقالت :

- نخب دولة اسرائيل الحديثة .

- نخب الموسويين

- نخب جمال باشا
فقاطعتها ليديا قائلة : دعينا من ذلك الخنزير يا سارة ، أم أنك
تعشقين ذلك الرجل يا سارة؟
فأطلقت سارة عدة ضحكات ثم وضعت يداها على خاصرتيها وراحت
تضحك ثم قالت لليديا :
- لقد ظننتك أذى من هذا يا ليديا. إننا ندين لجمال باشا بسلامتنا.
لو أنني لم أكن إلى جانبه كل ليلة ، ولو أن العرب لم يكونوا جهلاء إلى
هذا الحد ، ولو لم أكن أطلع على كل أسرارهِ يوماً بيوم ، هل تدرين ما قد
يحصل ؟ نطلب من الله أن لا يحرمننا جمال باشا ، هيا فلنشرب ثانية نخبه.

جواد أدهم بك قادم

فقالت ليديا : أرجو المعذرة يا سارة ، إنكِ تقولين الحق ، أنا لم أفكر
بهذا ، هيا فلنشرب نخب جمال باشا ...
كان الثلاثة يحسسون شراهم سعداء ، حين قرع الباب شاب صغير
وقال : وصل قائد المئة جواد أدهم بك يا سيدي .
فأسرعت ليديا بتسريح شعرها وضبط هندامها ، ثم نظرت إلى نفسها
في المرآة ووضعت لمسة خفيفة من أحمر الشفاه على شفتيها ثم غمزت سارة
ونظرت إلى التير وقالت : « لقد وصل حبيبي ، لو سمحت لي ، سأقابله »
وتوجهت إلى باب الغرفة ثم دخلت إلى الصالون .
كان القائد الشاب واقفاً في وسط الصالون ويده قبعته ، وكله هيبة
وأناقة ، فاقتربت منه ليديا قائلة :
- سيد جواد ، أهلاً وسهلاً بكم .
فردة عليها : أهلاً بك يا ليديا .
واستندت ليديا على ذراع جواد بك ، ورافقته إلى الأريكة التي اعتادا

الجلوس عليها ، في المناسبات الشاعرية العديدة ، كانت هذه الأريكة المحشوة بريش النعام ، تصلح كسرير عند اللزوم ، أي أنها بالاختصار زاوية عشق صغيرة .

- تفضل بالجلوس هنا ، سأعد لك كأساً من الشراب .
وعند عودتها تحمل زجاجة مشروب وكأسين ، كان جواد بك قد أخذه النوم . ووقفت ليديا عند الباب وقالت :
- آه ... أنتم أيها الأتراك تستحقون الشفقة !

يا سيد جواد ، قم قليلاً لنتحدث ولنحتسي الشراب ، ولننتجالس قليلاً ، هل يعقل أن تنام فوراً هكذا ؟

- إني متعب قليلاً يا ليديا دعينا من الحديث هنا .
- آه ... آه لا يمكن ذلك . فأنا أعرفك جيداً ، إنك تتحول في السرير إلى نمر أخرس فلنجلس قليلاً وبعد ذلك ننام ، أرجوك ، اجلس قليلاً .
- إني متعب جداً يا ليديا ، إننا نتكلم منذ الصباح . لقد نفذت قواي في هذا الاجتماع . إن اقناع القادة الكبار والباشاوات أمر صعب للغاية . أرجوك تعالي إلى جانبي لنتراح قليلاً ، وأحضري لي معك كأساً من النبيذ .

فقربت ليديا الكأس في يدها إلى شفتي قائد المئة جواد أدهم بك ، ارتشف منها قليلاً ، ثم قربت شفاهها إليه . كانت ليديا جميلة مثل سارة ، غير أنها أكثر خبرة منها في عالم العشق وتركت ليديا جواد ايتام بعد برهة بمفرده ، ودخلت الحمام ثم توجهت بعد ذلك إلى الغرفة التي تضم سارة والتير .

سألتها سارة بلهفة :

- هل علمت شيئاً ؟

- كلا ، لم يتكلم حتى الآن ، هكذا هم هؤلاء الضباط الأتراك ، يجب

أولاً أن تلي لهم مطالبتهم ، ثم تجلسي بعد ذلك وتثرثي معهم وتمازحيهم ، عندها يتكلمون مثل البلابل ، حتى أنهم يُقصون عليك ما لم تطلبي معرفته . يكفي أن تلمحي فقط إلى تلك الأمور التي تريدين معرفتها .
- أين هو الآن ؟ سألت سارة .

- إنه نائم في سريري .
نظرت سارة إلى التير الذي كان عابساً يحتسي الشراب دون توقف إلا أن وسامة وجهه غطت على مسحة التجهم التي ارتسمت على محياه .

سارة تريد تزويج التير وليديا

فقالت سارة :

- بماذا تفكري يا التير ؟

- لاشيء ، لا أفكر بشيء .

- ألم تكن تريد الزواج من ليديا ؟

- هل تمزحين يا سارة ؟

- كلا ، كلا ، إني جادة فيما أقول .

كانت ليديا تسمع إلى الحديث مذهولة وقالت لسارة :

- ماذا تقولين ، بحق الله ، من أين أتت هذه الفكرة إليك الآن .

فقالت سارة : «أجل يا ليديا ، سأزوجك قبل رحيل التير إلى مصر ،

يجب أن تصبحي زوجة التير هنا ، والتير يجب أن يصبح زوجك في مصر» .

وتشابكت نظرات ليديا والتير واندفعت ليديا تعانق التير قائلة :

التير يا حبيبي ، إني لا أقبل أي إنسان بديلاً عنك في هذه الدنيا ، سأظل أنتظرِكَ هنا ، وإن كنت ترغب ، فلنتزوج في الحال .

والتفتت إلى سارة وقالت :

وماذا بشأن الأمور التي تقع على مسؤوليتي ؟ هل سأتابع عملي ، أم

أنني سأرافق التير إلى مصر ؟

- كلا يا ليديا ، إن مقرك هنا ، ومهمتك إدارة هذا المكان ، سوف تتابعين عملك ، على كل حال ذهب الكثير وبقي القليل .

إن الانكليز سيجدون الحلول المناسبة لأجلنا وسوف يعمل التير على تسهيل مهمتهم هذه . لن تمضي بضعة أشهر إلا وسيأتي الانكليز إلى هنا وعندها سيعود التير حاملاً لقب البطل .

والتفتت ليديا إلى التير وقالت له :

- حسناً يا حبيبي ، هل ستسمح لي ، وأنا زوجتك ، أن اصطحب الأتراك والالمان كل ليلة وأقوم على ترفيههم ؟.

- فسألها التير ببرودته المعهودة :

- وهل تقومين بهذا العمل ، بدافع اللهو والترف ، أم من أجل قيام دولة اسرائيل ، وقيام دولة الموسويين وتحررهم ؟

فصرخت ليديا دون أن تبالي قائلةً : أقسم لك ، وبهوه شاهد علي ، أنني لا أحصل على أية متعة مع أي شخص كان ، إنني أقوم بذلك بدافع واجبي تجاه أمتي وشعبتي ، ولتحقيق حلمنا بإنشاء دولة اسرائيل . ربما يستطيع أولئك الغرباء أن يمتلكوا جسدي أما روحي فمستحيل .

فقال التير :

- أعرف ذلك يا ليديا . لاتقلقي لهذا وبعد أن نتحرر أرجو أن تكوني صادقة معي . أما الآن فلا أنتظر منك شيئاً سوى خدمة سارة .

فأخذت ليديا بيدي سارة والدمع في عينيها :

- أقسم أنني لن أخرج عن طوعك أبداً يا سارة . إني أومن بأن سارة آرونسون وعائلتها ، سوف تعطينا دولة موسوية وتبني لنا وطناً حراً نعيش فيه .

فقالت سارة : إن شاء الله يا ليديا ، وليكن يهوه يعوننا .

بلغوا الحاخام ، ليعد مراسم الزواج في زمارين غداً ، وسوف نقيمها في مقرنا الصغير هناك .

بدأت ليديا تجمع الأخبار والمعلومات

خرجت ليديا بعد ذلك وعادت إلى غرفة النوم حيث كان جواد أدهم مستلقياً ، فرأته يلبس ثيابه ويهم بالخروج . فقالت له :
- إلى أين يا عزيزي القائد ؟
فأجابها قائلاً : لدي أعمال هامة وكثيرة هذه الليلة ، علي الذهاب فوراً ، وسأعود إليك ثانية بعد ظهر يوم غدٍ . فقالت له ليديا :
- ألا يمكنك البقاء هنا الليلة ؟
- لا يمكنني ذلك ، الأمر ليس كما تتصورين ، إننا نعد لهجوم شامل .

- أحقاً هذا ، وهل أنت أيضاً ستذهب إلى الجبهة ؟
- أجل أنا أيضاً ذاهب إلى الجبهة .
- يا الهي ، كن حذراً يا قائدتي العزيز ، هل أنت ذاهب عما قريب ؟
- كلا ، فالتحضيرات سوف تستمر أسبوعاً على الأقل .
- في تلك الحالة ، فلتكن زياراتك مكثفة يا سيد جواد ، أرجوك ...
ومسحت ليديا دموعها وهي تردد تلك الكلمات ثم قالت :
- قائدتي العزيز ، أرجوك أن تقضي ليلتك الأخيرة معي ، إنني أتوق لتلك الليلة .

فقال لها : لاتبكي يا ليديا ، ستكون لنا زيارات عديدة ، لاتقلقي ، أعدك بأن أقضي آخر ليلة قبل رحيلي معك ، هل أعجبك هذا !
- سأنتظرك يا جواد بك ، ولكن عفواً يا جواد بك ، هل يمكنني أن أرافق والدتي خارج هذه القرية أثناء بدء الحملة ؟ قد يصل الأعداء إلى هنا ، فقد سمعت من البعض أن الانكليز سوف يأتون قريباً إلى هنا .
فضحك ايتام بك بصوت عالٍ ثم قال :
- هل فقدت صوابك يا ليديا ؟ لا داعي لأن تذهبي إلى أي مكان .

سوف نرمي الانكليز قريباً في مياه البحر المالحة .
إن كانوا يجرؤون فليدخلوا إلى القدس ! هل تعرفين ماذا تعني القدس
لنا ؟ إن دخول الانكليز إلى مكة أو المدينة أو القدس ، هو ذاته بالنسبة لنا .
- نعم يا جواد بك ، إنني أعلم ذلك . فالقدس أيضاً مقدسة عندنا .
فنحن نموت من الخوف عند سماع أن الانكليز سيأتون إلى هنا ، إنني
أكره هؤلاء الوحوش ، في الواقع لا يوجد شعب مجرم مثل الانكليز . وإن
جاؤوا إلى هنا ، فإنهم حتماً سيذبحوننا . وسوف ينكّلون بنا أكثر من الروس .
- لاتقلقي يا ليديا ، فالانكليز لن يأتوا إليك ، اطمئني واستمري في
حياتك الطبيعية ، ولن يمضي أسبوع حتى نرمي الانكليز خارج غزة .

قرار الحملة

بعد خروج جواد بك ، أسرع ليديا إلى سارة والتير وقالت :
- سارة ، الأتراك سيباشرون حملتهم بعد أسبوع ، والأغلب أنهم
سيتوجهون إلى غزة وهم ينوون قذف الانكليز إلى البحر .
- هذا نبأ ممتاز . إذاً اتخذ جمال باشا قراره بالتحرك ، وإلى أين ؟
إلى غزة بالذات ، أريد الحصول على كل الخطط المتعلقة بهذه الحملة في
أسرع وقت ممكن . يجب اعلام الفتيات بضرورة العمل سريعاً والحصول على
تلك النسخ من الخطط العسكرية . وسوف يقوم التير ، عند توجهه إلى مصر
بتسليمها إلى القيادة الانكليزية .
والتفتت إلى التير .
- أليس كذلك يا التير .
- نعم ، طبعاً .
وتابعت سارة قائلة :
- ليديا ، عليك بالتحرك فوراً ، وأعلمي الفتيات ليتخذن التدابير

اللازمة وليعملن على اطلاق لسان الضباط هذه الليلة ، وليعرفن من كل منهم ، اتجاهه ، وجهة مهمته ، وحجم قواته التي بامرته ، وليتحققن من كل هذه الأمور بالسرعة القصوى .

- كما تأمرين يا سارة ، لاتقلقي أبداً ، سوف أحصل لك على كل المعلومات التي تريدينها مساء غدٍ وسوف تسير الأمور كما تشائين .
- عليكِ بالتحرك بحذر ...
- لا تشغلي بالك قط .

الفتيات الجاسوسات يتلقين الأوامر والتعليمات

في تلك الليلة ، قامت ليديا بإبلاغ الفتيات ، بتعليمات وأوامر سارة . فقالت لهم : الأتراك ينوون شن حملتهم بعد اسبوع على منطقة غزة ، انكن مطالبات بالحصول على كل المعلومات التي تخص هذه الحملة ، وعلى نسخ من خطط الحملة العسكرية . أريد العمل الحذر والسريع في الحصول على هذه المعلومات اعتباراً من هذه الليلة .

وكان جواب الجميع : نحن رهن أمركن يا آنسة ليديا .
كانت حوالي ثلاثين فتاة موسوية بالغة الجمال يعملن تحت إمرة ليديا وكن يلقبن بالمومسات عند الضباط الأتراك والالمان .
غير أنهن يعملن لصالح جهاز الاستخبارات الانكليزية بتوجيه من المنظمة الصهيونية . وكان اعتقاد الأتراك والالمان أنهن يعملن للحصول على المتعة والمال .

كما كان بعض القادة الأتراك والالمان مسرورين لوجود تلك الفتيات عندهم . فهم يعتبرونهن مجرد وسيلة تسلية وترفيه لضباطهم وجنودهم . وفي اليوم التالي ، أرسلت سارة ، التير ، لمقابلة جمال باشا . فاستقبله جمال باشا بلباقة زائدة قائلاً :

لقد حدثتني سارة عنك ، غير أنك أكثر بكثير مما وصفتك ، والآن بعد أن رأيتك ، فهمت سبب إعجاب سارة بك .

فرد عليه التير باللباقة ذاتها بل زاد عليها قائلاً :

- لقد عُمرت بلطفكم يا سعادة الباشا ! إنني أشكركم على لطفكم وثقتكم بي ، إن خدمتكم وتلبية أوامركم ، حتى ولو كلفتني حياتي ، هو شرف عظيم لي .

فقال جمال باشا : مهمتك لن تكون سهلة ، غير أن الجنسية الأمريكية التي تحملها ستسهل عليك قليلاً مهمتك تلك حسب اعتقادي . سوف تعطى مبلغاً كبيراً من المال ، تقضي به وقتاً ممتعاً في مصر ، وستكون مهمتك اعلامنا على وجه السرعة بخطط الانكليز العسكرية ، وعلى أي الجبهات ينوي الانكليز شن معركتهم ومتى ينوون القيام بها ، سوف تُعطى شيفرة خاصة ، لكي تتمكن من الاتصال بنا على أساسها . وعلاوة على ذلك ، يمكنك الاستعانة بوسائل البريد الأجنبية ، أما عند حدوث أمر هام وخطير فعليك بالقدوم فوراً إلينا .

هناك أمر يشغل بالي وتفكيري ، إذ أن سواحلنا واقعة تحت الحصار ولا يمكننا الحصول على أي دعم أو مساعدة عبرها ، ونتيجة لهذا الحصار فالبلاد تعيش في الجوع والفقر . فكيف لكم أن تغادروا إلى مصر وسط هذه الظروف ومن خلال هذا الحصار ؟

فأجابه التير وكله ثقة بنفسه : كونوا مستريحين البال يا سعادة الباشا ، فأنا أمريكي الأصل وعلاوة على ذلك ، إن سمحت لي أن أتجاوز حدودي ، فإن هناك أمراً لا تعرفونه ، فأنا رجل غني ومقتدر ، أعمل في التجارة وأعمال التأمين مع عدد كبير من الشركات الضخمة العالمية . ومستودعاتي الكبيرة في بيروت مليئة بالحديد .

ولدي يخت كبير يرسو على شواطئ بيروت . وأنتم أعلم بوجود تلك

البارجة الأمريكية الراسية على تلك الشواطئ ، هذه السفينة التي أتت إلى بلادكم بمهايتكم ودعمكم ، ولكن هذه السفينة لم تأت فقط بهدف الزيارة وتوثيق عرى الصداقة إنما أتت لحماية الجالية الأمريكية الموجودة في بيروت ، وأنا واحد من هذه الجالية الأمريكية .

وبناءً على ما ذكرته لكم ، فسأتوجه إلى بيروت وسأستقل بحتي إلى الاسكندرية ، ولابعد الشكوك فقد ينظر الأميركيون إلى رحلتي هذه بالشك والحذر، رغم كوني أمريكياً ، ويعتقدون أن رحلتي هذه مدعومة ومرسومة من جهات فرنسية أو انكليزية ، لذلك ، سأضطر للقيام بعدة رحلات بين الاسكندرية وبيروت بحجة إنجاز أعمال تجارية، فذلك مسموح لي مرة في الأسبوع على الأقل .
وسر الباشا كثيراً عند سماعه ذلك حتى كاد أن يعانق التير ويقبله .

ادفعوا للسيد التير ألفي قطعة ذهب

نادى الباشا غلاماً من خدمه وقال : ادفعوا للسيد التير ألفي قطعة ذهب بموجب هذا الوصل .

فنهض التير وحيا جمال باشا تحية عسكرية ورافق الغلام إلى غرفة مجاورة حيث استلم القطع الذهبية الألفين ، ثم عاد مباشرة إلى بيت ليديا ، حيث كانت سارة بانتظاره .

- أخبرني على الفور بما حصل يا التير ، كيف كانت مقابلتك للباشا؟ هل كانت ناجحة ؟ سألته سارة عند قدومه .

- ناجحة جداً ، بالإضافة إلى هذه القطع الذهبية .

لقد أعطاني جمال باشا سلفة لرحلتي إلى مصر قدرها ألفي قطعة ذهبية.

نظرت سارة وليديا بسرور إلى القطع الذهبية العثمانية في أربعة

أكياس كبيرة .

وصرخت سارة من شدة فرحها « يا الهي ، لقد وفقنا في هذا أيضاً »
فقال التير : يبدو أن الأمور الجدية قد بدأت يا سارة ، أعتقد أن
أنكلين لن يتعبوا معي كثيراً في مصر . إن أمكن ، جهزي لي أنت
أيضاً رسالة توصية أصطحبها معي في رحلتي إلى مصر ، موجهة للجنرال
الذي .

- طبعاً سأكتب له رسالة يا التير .

وسوف تقابل هناك أخي الكسي ، وإن دعت الضرورة ، فأنا أيضاً
يمكنني السفر إلى مصر ، لانتخس شيئاً . ولا تحزن بشأن ليديا ، فغداً سوف
تتزوجان ولن تذهب إلى مصر إلا وأنت زوج لها .
- أشكرك يا سارة ، أجب التير .

فقال ليديا :

لقد أعطيت كل الفتيات ، التعليقات اللازمة ، فإلى أن يحين موعد
رحيل التير ، تكون الخطط العسكرية كلها قد وصلت إلينا .
وأجابت سارة :

- إنشاء الله ، علي بالذهاب فوراً ، جمال باشا ينتظرني الآن .

وصعدت سارة في العربة متجهة إلى مقر قيادة جمال باشا في جبل
الزيتون .

سارة تسلب الباب الضباط الشبان

انبهر الضباط الشبان واندعشوا حين رأوا سارة ... فلم يروا في حياتهم
امراً في هذا الجمال .

وانتشر الضباط العاملون مع جمال باشا في بيروت والشام هنا
وهناك ينظرون إلى سارة باعجاب بالغ ، ومعظمهم لم يكن يعرفها حتى الآن ،

ولم يشاهدها عن قرب . فضباط مدينة القدس كانوا يشاهدون سارة ،
صديقه جمال باشا للمرة الأولى .

وتساءل الكل :

- من هي هذه الحسنة ؟

ورد بعضهم قائلاً : لاندري ... والآخر يقول : إنها ضيفة جمال باشا .
وآخرون يقولون : إنها إحدى نساء الأمير فيصل وذهب البعض أبعد
من هذا فقال: إنها جاسوسة جمال باشا ضد الإنكليز .

وصعدت سارة الدرج دون أن تلتفت إلى أحد ودون أن تعير انتباهها
لأحد ، وقالت للحارس الواقف أمام مكتب جمال باشا :

- أريد مقابلة جمال باشا !

- ومن حضرتكم لأبلغه ذلك ؟

- قل له سارة ..

- وبعد برهة جاءها ضابط وقال :

- تفضلّي يا آنسة سارة ، سعادة الباشا بانتظارك ، فسارت سارة ،
والضابط في المقدمة إلى المكتب حيث رافقها خادم إلى مكان إقامة جمال
باشا .

- أهلاً وسهلاً بك يا سارة، كيف حالك، كيف وجدتِ هواء

مدينة القدس ؟

- إني بحالة جيدة ، إن الهواء في كل مدن فلسطين جميل بالنسبة لي ،
ولكنني اشتقت إليكم ، فلم أتم البراحة طوال الليل ، إلى حد أنني كنت
سأرتكب حماقة يا سعادة الباشا .

فضحك جمال باشا وسألها قائلاً :

- أية حماقة هذه التي تتكلمين عنها ؟ فقالت سارة :

- كنتُ أنوي المجيء إليكم هنا ، في منتصف الليل ، كنت أريد أن

أفاجئكم ولكنني خفتُ أن يقبض علي أحدهم ...
- طبعاً يقبضون عليك ، فمن لا يعرف كلمة السر ، يرمى بالرصاص .
- أحقاً هذا يا باشا ؟
- طبعاً ، طبعاً ، إنكِ لا تعرفين هؤلاء الجنود . فالذي لا يرد على
كلمة السر يقتلونه حتى ولو كان الباشا بنفسه .
- يا الهي ، الحمد لله أني لم آت . ثم ابتسمت سارة والتفتت يمنة
ويساراً ، وقالت للباشا بلهجة طفولية :
- فليقتلونني ، ماذا أفعل ، فأنا لا أقوى على العيش بعيداً عنكم .
- وهل أنتِ بعيدة عني ؟ انظري انكِ بالقرب مني ، بل قريبة
جداً مني .
هذا صحيح ، إنما في الليل ، وخاصة في تلك الليلة كنت بعيدة عنكم ،
لكننا سنكون سوياً هذه الليلة أليس كذلك يا باشا ؟
- إن أعمالي ومسؤولياتي كثيرة يا سارة . ولكن يمكننا أن نكون سوياً
لفترة من الزمن ، ثم تابع بلهجة جادة :
- سارة ، هذا الشاب الملقب التير هل يمكن الوثوق به ؟
- طبعاً ، كل الوثوق ، وهو علاوة على ذلك إنسان خدوم .
- أنا أيضاً أظن هذا ، ترى هل تعتقدين أنه سوف يفيدنا بشيء ؟
- لا أدري ما هي المهمة التي أوكلتموها له ، يا سعادة الباشا ، ولكن
إن كانت مهمة اسكات الصحافة المصرية ، فكونوا مطمئنين ، فسوف تنقلب
كل تلك الشائعات التي تنشر بحقكم إلى سلة المهملات ، في أقرب وقت ممكن .
- أرجو أن يكون ذا فائدة لنا .
- إن شاء الله يا باشا .
ثم تابعت تقول :
- ماذا فعلتم بصدد الأمير فيصل يا باشا ؟

- لم أره بعد حتى الآن ، ولكننا سنتقابل الليلة في حفل العشاء .
- وهل تدعونني يا سعادة الباشا ؟
- كلا ...
- وهل سأكون وحيدة هذه الليلة أيضاً ، يا باشا ؟
- نعم ولا ...
- لم أفهم قصدكم يا سعادة الباشا .
- سوف تمضين قسماً من الليل بمفردك والقسم الآخر معي .
- أحقاً هذا يا باشا ، ولكن كيف ذلك ؟
- سآتي إليك بعد العشاء ، إلى حيث تقيين .
- فنظرت سارة إليه مندهشة ، ثم قالت :
- إلى منزل ليديا ؟ عند ليديا يا سعادة الباشا ؟
- نعم ، ولم لا ، هل هناك مانع ؟
- كلا ، كلا يا سعادة الباشا ، واسمحوا لي أن أذهب باكراً ، لأخبر ليديا بالنبا ونقوم بإعداد بعض الترتيبات .
- لا داعي لذلك يا سارة ، سآتي بعد حفلة العشاء مباشرة ، ولا أريد أن تعدي شيئاً لي .
- سعادة الباشا ، لدي فكرة ، إن سمحتم لي ، أعرضها عليكم ؟
- تفضلي ، طبعاً .
- إن فلسطين بلدي ووطني ، والأمير فيصل من كبار ضيوفكم فإن سمحتم لي بالذهاب لزيارته ، سوف أشاركه كأساً من الشراب ، وأسليه بعض الشيء ، إنكم تعلمون مدى كرهه له ، ولكنني من أجلكم ، سأذهب ليشعر أنني مهتمة به وبصداقته .
- لقد ذكرت لكم أثناء وجودكم في الشام رغبتني بدعوة الأمير إلى بلدي ، وها قد تحقق ذلك ، فهل لي بزيارته والترحيب به .

ضحك جمال باشا عالياً ثم قال لها :
- آه منك يا سارة ، يمكنك الذهاب ، واحملي إليه تحياتي .

سارة عند الأمير فيصل

ذهبت سارة برفقة ضابط ، إلى الفندق الذي يقيم فيه الأمير فيصل ،
الذي كان جالساً برفقة المفتي أسعد الشقيري في الشرفة ، يتحدثان والشمس
قد قاربت المغيب على سفوح جبال القدس ، وكانت نسمة عليلية تنعش
القلوب. وبينما الأمير فيصل والمفتي الشقيري مشغولان بحديثها دخل عليها
الضابط قائلاً :

لقد قدمت الآنسة سارة لزيارتكم ، وأصابتها دهشة بالغة وقال
الأمير فيصل .

- قل لها أن تتفضل يا سيد .

ودخلت سارة وعلى وجهها ابتسامة صغيرة وقالت أرجو أن لا أكون
قد سببت ازعاجاً لسعادة الأمير وسعادة المفتي بقدمي فرد عليها
الأمير قائلاً :

- استغفر الله بالعكس حصل لنا الشرف بقدومك .

وبدخول سارة إلى الشرفة، قال المفتي وهو يهيم بالخروج والانسحاب :
«أستودعكم الله» .

فقالت سارة : إلى أين يا سعادة المفتي ؟ لقد أتيت لزيارة سعادة
الأمير لبرهة ، ولا يوجد أمر هام في الحديث الذي أنوي التكمم معه فيه ،
أرجوكم ألا تذهبوا ، لقد أتيت لادعو سعادة الأمير إلى حفل العشاء نيابة
عن سعادة الباشا ويشرفنا قدومكم يا سعادة المفتي أيضاً .

فوقف المفتي الشقيري عند باب الشرفة وقال : سيدتي ، حاولي أولاً
إقناع سعادة الأمير بالموافقة على القدوم وأنا بالمعية ، سيكون لي الشرف

العظيم لتلبية دعوتكم، ثم خرج تاركاً سارة بمفردها مع الأمير فيصل .

قالت سارة بعد برهة صمت :

- هل ضاق سعادة الأمير ذرعاً من مدينة القدس ؟

- كلا ، كلا يا سارة ، لم أتضايق من إقامتي هنا في القدس ، هل

هناك أخبار هامة ؟

فقالت سارة : الأخبار ، سيئة وجيدة في الوقت نفسه ، فابتسم الأمير فيصل ، ولم يعد يشعر بذلك الحرج والحجل اللذين كان يشعر بهما عند لقائه بسارة ، فلقد استأنس بوجودها كمرأة حسناء جميلة ، وكإنسانة تساعد وتأتيه بالأخبار المفيدة . فلقد كانت تتجسس لحسابه على أقرب الناس إليها جمال باشا ، ولكن هل هذا الأمر خطير مجد ذاته ؟ خصوصاً بأن جمال باشا لم يظهر أية مشاعر عدوانية تجاهه ، غير أن الأمير كان يؤمن بأنها كانت تقوم بهذا ، بدافع مصلحتها أيضاً وليس مصلحته فقط.

الأنباء سيئة يا سعادة الأمير

قالت سارة : الأنباء سيئة يا سعادة الأمير ، لأنكم لم ترحلوا إلى مكة، ووالدكم ، بسبب عدم ذهابكم ، لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع الانكليز فهو يقول : « ابني موجود عند الباشا كرهينة ومادام على هذه الحال فلا يمكنني اجراء أي اتفاق معكم » .

والأخبار سيئة جداً . فالانكليز عما قريب سوف يفتحون جبهة في فلسطين ، ويتمكنون من السيطرة على مدينة القدس في فترة وجيزة . ولما كان الانكليز لم يروا من طرفكم أية مبادرة أو دعم في السابق ، فإنهم سيعاملونكم مثل أي مواطن عادي ، فلن يمنحونكم بالمستقبل لا سلطة ولا لقباً تملكونه اليوم . عليكم الاستفادة من الأوضاع الراهنة يا سعادة الأمير .

مسح الأمير فيصل لحيته ، ثم قال :

.. فلا داعي لاستعجال مثل هذه الأمور يا آنسة ، فإننا سنواجه ما قدر لنا ولا مفر من القدر ، وما أراده الله يكون ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا إننا مخلوقات فانية ، إنما نعيش ونتحرك بلطفه ورحمته تعالى . فلننتظر قليلاً ، ولننصت إلى مشيئة الله تعالى وأمره .
- إن الله تعالى لا يريدكم أن تنتظروا أكثر من هذا ، يا سعادة الأمير ! لأنك أحد أحفاد رسول الله وعليك أن تنقذ الإسلام ؟ وهذه الأراضي المقدسة لكم ؟ إنكم تغضون النظر عن ملايين المسلمين الذين يعيشون تحت وطأة أسر الأتراك . إنكم تفرضون أنفسكم وامارتكم على ملايين المسلمين العرب ، هل يرضى الله عن هذا ؟

فرد عليها الأمير فيصّل بلهجة أقل جدية من السابق :
- لاتستعجلي الأمور يا آنسة ، لا تستعجلي الأمور ، فإننا لا ندري ما سيأمرنا به الله تعالى .
- لا تدرون ما كتب الله لكم ولكن يكون قد فات الأوان يا سعادة الأمير ، فالانكليز يجهزون أنفسهم للتحرك في وقت قريب جداً .
- ولكني يا آنسة ، سمعت عكس ذلك . لقد علمت أن الدولة العثمانية مقدمة على تحرك كبير في المنطقة والأراضي المجاورة ترى أي الخبرين صحيح وأيهما خطأ .

ضحكت سارة قائلة : لن تمضي عشرة أيام حتى تعرفوا أي الخبرين صحيح يا سعادة الأمير .

ثم أضافت : إنني قادمة من عند جمال باشا لتوي ، ولقد استأذنت منه أن أدعوكم لزيارة قريتي وقد سر لذلك ، فهل ترغبون بتشريفي ؟ سوف أذهب غداً إلى قريتي وإن سمحتم تفضلوا برفاقتي غداً ...

ليديا مندهشة

فقال لها الأمير : أشكرك يا آنسة سارة ، أعدك بهذه الزيارة في مرة

قادمة إنشاء الله .

- حسناً ، إذاً هل تسمحون لي بالانصراف الآن ؟ سوف نلتقي في القريب العاجل وسوف أبلغ مضمون هذه المحادثات التي جرت بيننا للقيادة الانكليزية وعند حصولي على نبأ جديد فسأعلمكم به فوراً .
- أشكرك يا أنسة .

وخرجت سارة من فندق أدميرال متوترة الأعصاب ، وصعدت إلى العربة التي كانت بانتظارها ، وتوجهت على الفور إلى منزل ليديا .
وعندما دخلت المنزل صاحت منادية : ليديا ... ليديا ... أين أنتِ .
وأسرعت ليديا إلى الصالون وقالت :
- آه ... يا سارة ، هل عدتِ ؟ لقد شغلتِ بالي كثيراً اعتقدت بأن الباشا لن يدعك تعودين إلى منزلي اليوم .
- كلا يا ليديا ، بعد مقابلة جمال باشا ، ذهبت إلى الفندق الذي ينزل فيه الأمير فيصل وقت بزيارته .

- إذاً لقد أنجزت أموراً هامة اليوم .
- لا تسألي ، أهم هذه الأمور أن جمال باشا قادم اليوم إلى هنا .
وارتبكت ليديا كأنها أصيبت بالبيك ثم تمت : لم أفهم يا سارة ، هل سيأتي جمال باشا الليلة إلى هنا ؟
- ولم لا يأتي ؟

- يا إلهي ، لعل في قدومه إلينا ، أمر لا نعرفه .
- لا تقلقي ، ليس هناك ما يشغل بالك ، ولا تفكري بهذه الطريقة يا ليديا بالله عليك . كل ما في الأمر ، أن الباشا قد اشتاق إليّ ، فبعد تناول العشاء في منزل الوالي سيأتي الباشا إلى هنا ، وسيبقى بصحبتى ساعة تقريباً ثم يذهب ثانية . هذا كل ما في الأمر .
- آه ، هذا حسن جداً . فسيعلم الجميع بقدوم الباشا إلى هنا وهذا شيء

لمصلحتنا ، فلن يجرؤ بعد اليوم ، أي ضابط أو شرطي على الاقتراب من منزلي .

- وهل هناك من يأتي إليك يا ليديا ويضايقك .

- كلا ، كلا ، لا يوجد أحد ، ومع ذلك فإن قدومه إلى منزلي بالذات شكل من أشكال الحماية لنا .

وتابعت ليديا : علينا إذاً تحضير بعض الأمور والترتيبات لاستقبال الباشا .

- كلا يا ليديا ، فهو لا يرغب بأن نحضر شيئاً .

وبينما كانت سارة تنتظر قدوم جمال باشا كان هذا الأخير ، يتناول العشاء في منزل والي مدينة القدس ، مع الضباط والعسكريين وقادة أركان الجيش ويتبادل معهم أطراف الحديث .

فبالإضافة إلى الأمير فيصل ، كان جمال باشا قد دعا ضباط الجبهة ، الذين حضروا إلى القدس من أجل الاجتماع العسكري المزمع عقده ، وهم اليوم مدعوون لحفلة العشاء هذه في منزل الوالي ، ومن بين هؤلاء الضباط فوزي باشا وعلي فؤاد جيبيسيوي ، وجمال باشا المرسيني ، وحسين حسني باشا ، وعلي فؤاد أردم باشا ، وضباط آخرون كثير .

وأثناء تناول العشاء ألقى جمال باشا كلمة بدأها قائلاً :

أعزائي اخوتي في السلاح !

إنكم ، في سبيل إبقاء راية الدولة العثمانية عالياً ، والحفاظ على راية الاسلام خفاقة ، تبذلون أرواحكم ودماءكم رخيصة على أرض هذا الوطن . فليكن الله تعالى دائماً عوناً لكم وبجانبكم ، وعليكم أن تؤمنوا بوجوده دوماً معكم .

إني أعرف أن هناك نقصاً كبيراً في العتاد والإمدادات في جبهتكم غير أن إيمانكم وإيمان جنودكم بالنصر القريب وإيماني بنصركم سوف يجعلنا

نتجاوز هذه الحنة . وسيدكرم التاريخ بكل فخر واعتزاز .

شكاوى الضباط

كان جمال باشا يهدف من وراء كلمته هذه ، رفع معنويات قادته ، لأن مطالب قبواد الجبهات ، هذا الصباح في مقر قيادته ، كانت كثيرة ، ولذلك أراد جمال باشا رفع معنوياتهم ريثما يجيب على طلباتهم ويؤمن لهم مستلزماتهم . لقد كانوا يستعدون للحملة . غير أنهم يفتقرون لأبسط الأسباب والامكانيات التي تجعل تحقيق هذه الحملة أمراً واقعاً .

فالضباط قالوا للبasha في اجتماعهم صباح اليوم : « أن الجنود في الجبهات جياع ومرض الديرنتيريا يودي بحياتهم ، إن كل تحركاتنا مكشوفة فكيفيا توجهننا ، كانت قوات الأعداء بانتظارنا ، وكلما قننا بجملة نجد أنفسنا نقع في الفخ المرسوم لنا . لذلك نطالب بإبقاء سرية كبيرة على الخطط العسكرية التي نرسمها . »

لم يعد جمال باشا ، في اجتماعه هذا الصباح ، قادة الجبهات بأي شيء . غير أنه قال : قوموا بالاستعدادات اللازمة وباشروا التحرك خلال أسبوع . فلم يكن أحد يعرف كيف ، ومتى ، وأين تبدأ ، وأين تنتهي هذه الحملة ، ولم يكن أحد قد وضع دراسة لها .

ذهبوا إلى منزل ليديا

بعد تناول العشاء قال البasha : سوف نرمي عما قريب الانكليز والفرنسيين وسط البحر خارج بلادنا وبعيداً عن وطننا ، ليرفرف علم الدولة التركية عالياً فوق الأرض المصرية وينتشر في كل أرجائها عندئذ تعالت أصوات التصفيق من كل جانب مصحوبة بالدعاء إلى الله لتحقيق ذلك . واستقل جمال باشا عربته التي تجرها الخيول وتوجه إلى منزل ليديا

المستقر في أعلى التل، وبرفته خدمه ومرافقه يحيطونه من كل جانب .
والتفت عند وصوله إلى ضباطه المرافقين قائلاً ، أنتم أيضاً ادخلوا
واستمعوا بعض الوقت .
كان منزل ليديا مؤلفاً من قسمين ، أحدهما البانسيون بيت الدعارة
أما الثاني فكان مبنى مستقلاً أشبه بالفيلا .
ودخل جمال باشا مباشرة إلى الفيلا ، بينما دخل الضباط المرافقون إلى
البانسيون .

جمال باشا يلتقي بليديا والتير

وأمام الباب ، قابل الباشا التير وليديا ، وفوجيء بوجود التير
فسأله قائلاً :
- خيراً إن شاء الله مسيو التير أهناك شيء ما ليس على مايرام ،
ماذا تفعل هنا ؟
انحنى التير محيياً جمال باشا وقال :
لقد قدمت لاستقبالكم يا سعادة الباشا . إن ليديا خطيبتى وإن
تكرمتم ، فغداً سوف نتزوج ، وعندما سمعت بخبر قدومكم إلى هنا أسرع
بالحيء لاستقبالكم ، هل من خدمة أؤديها لكم ؟
سر جمال باشا لهذا الكلام فقال لالتير :
- أشكرك يا التير ، ثم التفت إلى ليديا الواقفة جانباً تنظر إليهما
بعينيها الزرقاوين ووجهها الأسمر البرونزي يلمع تحت الضوء الخافت عند
مدخل المنزل وقال :
- إن الأنسة ليديا أيضاً في غاية الجمال ، لقد سمعت الكثيرين يمدحون
جمالها ، أهنتك يا التير فلقد وجدت لنفسك زوجة في آية الجمال . فرد التير
قائلاً :

- أشكركم يا سعادة الباشا .

وعند دخوله الصالون ، رأى الباشا سارة وقد ارتدت ثوب نوم شفاف ، واقفة وسط الصالون تنتظره وقد انعكست صورتها على كامل جدران المليئة بالمرايا الكبيرة فبدت ، تحت الثريا الضخمة المتألأة بالنور ، كجوهرة فريدة نادرة وجعلته نظرة عيونها البراقة ، يمتلئ بأحاسيس رائعة ، كما لو أنه يرى هذه الفتاة للمرة الأولى .

اقتربت سارة من جمال باشا مرتعشة كطير ، وعانقته ، في حين كانت ليديا والتير قد غابا عن الأنظار منذ وقت طويل ، وهمست بغنج :

- هل أعد لكم كأساً يا سعادة الباشا ؟

- يمكنني أن أتناول كأساً واحداً .

فتحت سارة زجاجة النبيذ الفاخر وملأت كأساً قدمته له :

- تفضلوا يا سعادة الباشا .

احتسى جمال باشا كأسين من النبيذ على التوالي ثم تمدد على الأريكة وثبت نظره على السقف وبدأ يفكر مع سريان مفعول النبيذ .

الذين مروا أمام أعين جمال باشا

تخيل جمال باشا وهو مستلقٍ يحدق في سقف الصالون ، أصدقائه في استنبول ، فرأى طلعت باشا وأنور باشا والعديد من أصدقائه يمرون أمامه ، وعادت إليه ذكريات أيام زمان ، فتذكر كيف تم تعيينه حاكماً على سوريا ولبنان ، وهزيمته في حملته الأولى على القناة ، وبدأ يفكر بالحملة الثانية التي يعدها ، فلقد بدأت قواته بالاعداد للتحرك ، غير أنها لا تملك السلاح ولا الذخيرة الكافية لهذه الحملة ، وعجزه عن تأمين لقمة الغذاء

والعلاج لجنوده الذين سيشاركون في هذه الحملة .
لقد عدد له القواد ، هذا الصباح ، في اجتماعهم معه بمقر قيادته ،
كافة متطلباتهم ، وهو على علم بها ، ولكن ماذا يفعل إزاءها ؟ وكيف
سيؤمن لهم احتياجاتهم ؟
هل كان عليه أن يجمع قواده قبيل قيامهم بالتحرك للحملة ويقول :
يا قوادي ، يا ضباطي ، مهما فعلتم ومهما حاولتم فأنتم خاسرون لا محالة .
لذلك أطلب إليكم أن تنسحبوا من هذه المهمة وان تنسوا الأمر من أصله ،
واطلبوا من خصومكم القدوم إلى هنا لتسلموا أنفسكم إليهم ؟
كانت تلك الأفكار تراوده وتتعبه وتثقل كاهله .
لقد قدم إلى منزل ليديا لقضاء بضع ساعات من المتعة ، وكان مقرراً
أن يعود فوراً إلى مقر قيادته ، غير أن الخدم والمحافظين الذين ينتظرون ،
اضطروا للبقاء حتى الصباح لملاقاته ثانية .

صباح ليلة عاشقة

عند آذان الفجر ، كان جمال باشا قد استحم ولبس ثيابه وتوجه إلى
المسجد الأقصى ، واستقبله عند باب المسجد رجل عجوز تعرف عليه .
ولم يشأ جمال باشا أن تقام له أية مراسم استقبال عند ذهابه إلى
المسجد . وتقدم حتى وصل إلى الصف الأول قرب المنبر وخلف الإمام ، وأقام
صلاته ، ثم جلس بعدها يقرأ القرآن الكريم مدة طويلة . كان جمال باشا
مؤمناً متعصباً ومسامحاً متديناً ، يؤمن بالقدر وما كتبه الله له ، فوقف في
خشوع يدعو ربه مطولاً .

ثم ، نزل إلى الطابق الأرضي للمسجد وقام بزيارة صخرة المعراج التي
عرج من عليها سيدنا محمد (ﷺ) إلى السماء . وامتلأ المسجد أثناء ذلك
بالعديد من المؤمنين الذين أموا الجامع ، غير أنه لم يكتث بوجودهم فلقد

كان خاشعاً وكل حواسه متجهة لمناجاة ربه .

الضباط أعدوا الخطط

وعند عودته إلى مقر قيادته ، لمح جمال باشا بعض الضباط يعملون في غرفة مجاورة ، وهم المكلفون بإعداد خطط الهجوم على غزة الغربية المقرر تنفيذها والقيام بها ، فتحدث إليهم قليلاً ، ودخل معهم في مناقشة بعض الأمور التي أثارته حديثه ثم قال : عليكم بالاستفادة من كافة نقاط ضعف العدو ، لا تنسوا هذا ، وأعدوا خططكم بناءً على هذه المعطيات .

توجهت ليديا عندما استيقظت إلى غرفة نومها ، فلم تجد سارة هناك . فأسرعت بالبحث عنها في باقي الغرف ، لكنها لم تعثر على أثر لها . ووجدتها أخيراً في الحديقة فقالت لها :

- يبدو أنك استيقظت باكراً يا سارة .

- نعم ، هو كذلك ، وأنتِ متى أخلدتِ إلى النوم .

- لقد انتظرت رحيل الباشا طويلاً ، وعندما فقدت الأمل من ذلك ،

رافقت التير إلى غرفة النوم ، هل رحل الباشا في وقت متأخر من الليل ؟

- نعم ، لقد رحل مع أذان الفجر . كان يريد زيارة المسجد الأقصى .

وبعد رحيله استيقظت أنا أيضاً ونزلت إلى الحديقة لاستنشاق الهواء العليل .

- أحسنتِ صنعاً يا سارة .

ستكون مدينة القدس عاصمةً لنا

كانت الشمس قد بدأت بالبروز على أطراف تلال مدينة القدس .

وكانت قبة المسجد الأقصى الملونة بأشعة الشمس ومآذن المساجد

المحيطة بها ، والأشجار الخضراء المنتشرة هنا وهناك تشكل منظرًا خلاباً .

فنظرت سارة ملياً إلى مدينة القدس وهي في هيئتها هذه، وقالت وهي تدعو في قلبها : إن شاء الله، سوف تكون القدس عاصمة لدولتنا الموسوية في القريب العاجل .

وعندما جاءت ليديا ، ذكرت لها ما تتمناه ، فقالت :
إن القدس مدينة جميلة ، وسوف تكون لنا عاصمة جميلة ، كما أن مركز معالمتنا الدينية متواجدة فيها ، نرجو من الله أن لا تضيع جهودنا سدى وتذهب أدراج الرياح .
فقالت سارة : إن شاء الله يا ليديا .

توجه جمال باشا إلى غرفته ، بعد اعطائه التعليمات اللازمة لضباطه العاملين بإعداد خطط الهجوم للحملة الثانية ، حيث وجد على مكتبه ، العديد من البرقيات المرسلة إليه مشفرة ، فجلس يقرأها ، واحدة واحدة ، ولفتت نظره برقية رسالة إليه من وزير الحربية أنور باشا .
كانت البرقية تطلب من جمال باشا تعيين جمال باشا المرسيني بدلاً من فخر الدين باشا الموجود في المدينة ، لعدم كفاءته وسوء تفاهمه مع الشريف علي بن حسين ، فنعاً لحدوث أية خلافات يطلب أنور باشا من جمال باشا في هذه البرقية اجراء التعديل المذكور .

كان من المفروض أن يغضب جمال باشا عند قراءته لهذه البرقية غير أنه لم يغضب ولم ينفعل . إذ يبدو أن لوزير الحربية أنور باشا سبباً وجيهاً في طلبه هذا ، وإلا لما طلب مثل هذا التبديل وكتب جمال باشا جواباً لبرقية أنور باشا قال له فيها :

إن فخري باشا قائد جيد ويعرف كيف يخدم وطنه ، فهو يعمل ليلاً نهاراً في تلك المنطقة الحارة من البلاد ، فإن كنتم ترون ضرورة تغييره واستبداله بشخص آخر ، لمصلحة الوطن والأمة ، فإني اقترح تعيين عصمت

ميرلاي بدلاً عنه ، لأن جمال باشا المرسيني^(١) ، مهام عديدة وهامة عندي في
جبهة فلسطين فأنا بحاجة إليه .

أرسل جمال باشا هذه البرقية لأنور باشا ، ثم طلب من دائرة
الاتصالات التلغرافية ، تأمين الاتصال بالمدينة ، مع فخر الدين باشا ، فقد
كان في تلك الآونة بإمكان القيادة في القدس الاتصال مباشرة مع قيادة
المدينة على الخط التلغرافي والتحدث إلى المسؤولين هناك ، غير أن هذا
الاتصال لا يمكن أن يتم إلا في مركز الدائرة بالذات وليس خارجها . لذلك
طلب جمال باشا استدعاء فخري باشا إلى الدائرة ، للتحدث معه .
وبعد عدة ساعات ، وصل فخري باشا إلى مركز دائرة الاتصالات وبدأ
بالتحدث مع جمال باشا .

فبعد أن سأله جمال باشا عن صحته قال له :

- كيف هي علاقتكم مع الشريف علي ؟

فأجاب فخري باشا : جيدة يا سعادة الباشا . فالبارحة تناولنا الغداء

سويًا

- أقصد ألا توجد بينكما أية خلافات ؟

- كلا يا سعادة الباشا ، كلا ، فليس لدي أية شكوى ، إنما إن كان

ممكناً ، أن ترسلوا لنا بعض المال والأرزاق ولا مطالب لي غيرها . إني عاهدت
نفسي أن أقاتل في المدينة من أجل رب العالمين أولاً ومن أجلكم ثانياً .

وبعد قليل ، استقبل في مكتبه ، جمال باشا المرسيني فقال

له متسائلاً :

(١) لا يميز البعض بين (جمال باشا المرسيني) قائد القوات العثمانية في فلسطين و (أحمد جمال

باشا) القائد العام للجيش العثماني الرابع في المشرق العربي ، صاحب قرارات
مجلس عاليه العربي .

لقد استلمت برقية من وزير الحربية يطلب فيها تعيينكم في المدينة ، ولكنني رفضت هذا الطلب ، ما رأيك لو أرسلت إلى هناك عصمت مرلاي ؟ - « الأمر منوط بكم يا سعادة الباشا ، فأنتم أدرى بذلك ، غير أن عصمت مرلاي يقوم بمهام كبيرة على الجبهة ، فمن سيكون خلفاً له ، وليس لدينا مرلاي آخر بين أيدينا . »

- « إذاً في هذه الحالة ، لاداعي لاجراء التبديلات ، ولكنني منذ قليل، تكلمت مع فخري باشا ، واعلمني بأن الوضع هناك جيد ، وأنه لا يشتكي من أحد . »

- يبدو أن وزير الحربية قد وصلته معلومات خاطئة إذاً . - من المحتمل أن يكون الأمر كذلك ، وقد يكون هذا الاقتراح من أنور باشا شخصياً ، ولا يستند إلى شكوى أحد . لولا أن (البرقية) أنيقة ومرتبة، لما لفتت انتباهي، غير أنني أعرف أسلوبه تماماً، فلو كان يقصد أمراً من وراء هذه البرقية لما كتبها بالشكل الذي أرسلها فيه . لا أعتقد بوجود أي سوء نية في هذا الموضوع من طرف أنور باشا . أم تراه ينوي إبعادك عني يا ترى ؟

فرد جمال باشا المرسيني :

« لا أعتقد ذلك يا سعادة الباشا . ولا تنسوا أن فخري باشا أحد الضباط الذين هم تحت امرتكم في المدينة ، وأنا تحت امرتكم هنا . أخذ جمال باشا البرقية وقرأها ثانية . ثم قال بهدوء : أجل ، لا أعتقد أن هناك أي هدف من وراء هذه البرقية . غير أننا في حال تبديل فخري باشا ، علينا إيجاد من يحل مكانه . فقال جمال باشا المرسيني :

فلنترك مسألة التعيين للوزارة يا سعادة الباشا ، وإذا كان أنور باشا لا يرغب بفخري باشا فليعيّن هو أحداً بديلاً عنه .

- هذا ممكن ، ولكن أنا أيضاً ، يجب أن يعجبني من سيكون حسناً لفخري باشا ، فلو تم تعيين شخص لا أرغب فيه ، ولا يعجبني ، فلن أوافق على تبديل فخري باشا ولن أدعه يتزحزح من مكانه . فليعلم أنور باشا جيداً أن تعيين قائد جديد يجب أن يتم بموافقتي ورضاي .
- معكم حق يا سعادة الباشا ، في هذه الحال فلننتظر رد وزارة الحرب إذاً .

- أجل فلننتظر لنرى ...

بينما كان جمال باشا منهمكاً في تحضير واعداد ترتيبات الحملة العسكرية إلى غرة ، كانت سارة وليديا والتير يعملون جادين للحصول على خطط هذه الحملة العسكرية .

وكانت ليديا وفتياتها الثلاثون ، يعملن بحد ونشاط ، ويحاولن بكل ما لديهن من وسائل للحصول على تلك الخطط ، من خلال معاشرتهن للضباط الأتراك الذين يأتون إليهن .

وكانت ليديا ، كل ليلة ، تمازح جواد باشا الذي كان يرورها دون انقطاع ، محاولة انتزاع المعلومات والخطط العسكرية . فزدد أمامه عبارته مقلدة أسلوبه بالكلام : سرحل كلنا من هنا خلال أسبوع ...

وكان التير مشغولاً بإعداد رحلته المرتقبة إلى مصر . فاتصل ببيروت وأعلمهم بضرورة تجهيز يخته للسفر إلى مصر . وكان عليه في الوقت نفسه الذهاب إلى زمارين لعقد زواجه على ليديا .

وكانت سارة قد أعدت كافة مراسيم الزواج قاتلة وهي تضعك : لا يمكن لليديا والتير أن يموتا قبل أن يرتبطا واحدهما بالآخر .

مباشرة إلى زمارين

في الصباح ، بعد أن ودعت سارة جمال باشا ، توجهت برفقة ليديا

والتير إلى زمارين إحدى أوائل المستوطنات الموسوية التي أنشأت هناك
وأستقبلت سارة في زمارين استقبال الفاتحين والملوك ، وكان الحاخام داوود
شخصياً بين مستقبلها من الشبان والشابات والنساء والرجال والكهول
والأطفال في فرحة عيد عارمة .
ورافقت سارة ليديا والتير ، رويداً رويداً بين الجموع واتجهوا جميعاً
إلى الكنيس .

كان الجميع يتوقعون لحضور حفل زفاف ليديا والتير . فأقيمت في
الكنيس مراسيم زواج رفيعة المستوى . وقرأ في مستهل هذه المراسيم ، الحاخام
أدعية بالعبرية وبارك لها منزلها .

الكل كان يعلم بالعلاقة بين الباشا وسارة

وبعد إجراء مراسم الزواج ، توجه موكب الزوجين والمدعوين إلى منزل
سارة . لقد كان كل شيء معداً بشكل رائع كما زينت مداخل المنزل بباقات
الزهور من كل جانب ، ووزعت في الحديقة الأمامية الكراسي والطاولات
بشكل منتظم .

كانت الموائد مليئة بزجاجات النبيذ ، وبعض السكان العرب
يرقصون ويعزفون على المزمار ويدقون الطبل فرحاً وابتهاجاً بالعروسين .
والشبان والشابات الموسويات يرقصون على أنغام فولكلورية موسوية^(١)
فالكل كان يرقص ويشرب ويتمتع بهذه الحفلة .

وجلست سارة برفقة ليديا والتير في زاوية من زوايا الحديقة ، وبدأ
الدرك وأفراد الشرطة والحتاير يتوافدون من القرى المجاورة لزمارين^(٢) ،

(١) الموسوية حسب تعبير الكاتب دين ، أما الفولكلور فتقاليد اجتماعية ، ولم نفهم ماذا يعني
بمصطلح « الفولكلور الموسوي » هذا !! - المترجم - .

(٢) في عام ١٨٩٣ اشترى البارون (آدمون روتشيلد) أراضي بالقرب من زمارين وعتليت ،
حيث أقيمت فيما بعد مستعمرتا عتليت و (زخرون يعقوب) زمارين وتقعان جنوبي حيفا .

فالحفلات التي تقيمها عائلة أرونسون ، غالباً ماتكون ملفتة للأنظار .
ويدعى إليها كبار شخصيات القرى المجاورة . ولقد أقام العديد من تلك
الشخصيات حفلة زواجهم في منزل عائلة أرونسون .
وكانت الأقاويل قد انتشرت في زمارين حول سارة وجمال باشا والكل
كان على علم بهذه العلاقة .

فالجميع كان يعلم أن سارة عشيقة جمال باشا ولم يكن أحد يجهل هذا
الأمر . فالكلي يتحدث ويمس ويلمز ، والبعض يحاول أن تقع عين سارة عليه
لكسب رضاها وودها كما كان البعض يتهافت لتنفيذ أوامرها في الحال .
وكان قائد شرطة المنطقة يتودد لسارة ويقول لها من حين لآخر :
- هل تأمرون بشيء يا آنسة سارة ؟ وترد عليه بلهجة الملوك ، قائلة :
أشكرك كثيراً .

أضفت سارة بجبالها الساحر مسحة خاصة على المكان والزمان ،
وحضر جميع المدعوين محملين بهداياهم المتنوعة والكثيرة ، واستمر حفل الزفاف
حتى طلوع الفجر غير أن سارة وليديا والتير كانوا قد انسحبوا من الحفل في
وقت مبكر ، وبعد أن عقدت اجتماعاً مصغراً في بيتها ، قالت سارة :
- ليديا يا حبيبتي ، إننا مضطران لتركك في ليلة زفافك وحدك هنا ،
فعلينا أن نتوجه إلى الساحل ونحاول الاتصال بالغواصة الانكليزية . فأنا
سأذهب بالغواصة لمقابلة الجنرال اللنبي . وغداً مساءً سأكون هنا ثانية .
وعليك بانتظاري مع التير هنا حتى أعود .

قبلت سارة ليديا من وجنتيها ، ثم خرجت بهدوء ودون لفت انتباه
المدعوين ، برفقة التير من الباب الخلفي للمنزل وتوجهها إلى الساحل ، حيث
كان ابراهام بولم بانتظارهما يتبادل الشارات الضوئية المتفق عليها مع
الغواصة . وسر لقدوم سارة والتير .

فقالت له سارة : حسناً ، قل لهم أي آتية على الفور .
والتفتت إلى التير ، سوف نلتقي ليلة غد استودعك الله .

سارة تتوجه إلى الغواصة

صعدت سارة إلى الزورق الذي أعده ابراهام وبدأا يجدفان ، سارة في المقدمة و ابراهام في المؤخرة . واتجها إلى حيث الغواصة الانكليزية راسية بانتظارهما على بعد ميلين من الشاطئ .

كانت سارة متعبة من حفل الزفاف، وقد سبب لها الحمر الذي شربته، ودوار البحر ، نوعاً من العثيان ، جعلها تتصبب عرقاً حتى غدت لا تقوى على حمل الجداف .

وعند اقترابها من الغواصة ، قام أحد الجنود الانكليز بري حبل إلى الزورق . فربط ابراهام الحبل وشده الجندي إليه والتصق الزورق بجسم الغواصة العائمة ، غير أن الأمواج كانت تشد الزورق إليها وتعيد قذفه إلى جسم الغواصة ، ثم امتدّت ذراع إليهما ، أمسكت سارة بها ووجدت نفسها على ظهر الغواصة .

فقال سارة ل ابراهام الذي بقي في الزورق :

- انتظري غداً في مثل هذه الساعة على الساحل .

- حسناً ، حسناً ، لا تقلقي .

- قل للذين يسألون عني أنني أعمل في المختبر .

- لا تقلقي يا أنستي ، نحن سنتدبر الأمر حتى يوم غد .

وظهر ضابط على سطح الغواصة، فحياها ورافقها إلى داخل الغواصة

بعد أن طلب منها أن تستند على ذراعه .

الغواصة في أعماق البحر

وقام أحد القواد بإعطاء أوامره ، وبعد لحظات كانت الغواصة قد

غاصت في أعماق مياه البحر المتوسط .

لم تكن سارة قد استعادت رشدها ونشاطها الكاملين بعد . ولازال

العرق يتصبب منها ورأسها يدور من أثر الجمر وموج البحر ، إلا أنها لم تفقد صوابها تماماً فاستدارت إلى الضابط الوسيم الواقف بقربها وقالت له :
إني أرتجف أيها القائد ، هل يمكنكم أن تعطيني كأساً من النبيذ ؟
فقال لها القائد : تحت أمرك يا آنسة . أرجوك التوجه إلى قرقي حيث
تغيرين ثيابك وتضعين عليك غطاء السرير فبذلك لن تشعرني بالبرد ورافق
القائد سارة ، وهي مستندة على ذراعه ، إلى قمرته حيث مكثت هناك مدة
طويلة .

سارة شاهدت السفن الحربية

عندما استيقظت سارة ، على أثر هزة عنيفة شعرت بها ، وجدت
نفسها بمفردها في السرير ، وكأنها لا تذكر شيئاً مما حدث . فلقد كانت لاتقوى
على الحركة من التعب والجر الذي تناولته في الليلة السابقة .
وعندما حاولت التحرك في السرير ، شعرت بألم شديد في رأسها .
وبصعوبة كبيرة استطاعت أن تقف على رجليها لترتدي ثيابها ،
وبعدها خرجت من مقصورتها وصعدت إلى غرفة القيادة لترى من هناك
السفن الحربية على سطح البحر الواحدة بجانب الأخرى ، وهي مشدوهة ،
فكادت تفقد صوابها من شدة فرحها . هذا يعني أنها قد وصلت إلى
مقر الأسطول .

فسألت قائد الغواصة عن الجنرال اللنبي وأعربت عن رغبتها بمقابلته .
ثم راحت تجول بنظرها وتستمتع بمشاهدة السفن الحربية الراسية في كل جانب .
رأت سارة ساحلاً من بعيد ، بدا لها أنه الساحل المصري ثم تابعت
تأملها للسفن الحربية الراسية .

وفكرت في نفسها قائلة : هذه السفن ستصل يوماً ما إلى فلسطين ،
ولكن ترى ماذا ينتظر الجنرال للذهاب إلى فلسطين ؟

كانت أمواج البحر تتلألأ والشمس تتوسط السماء وترسل أشعتها وحرارتها إلى سطح الأرض ، فشعرت سارة برغبة في الغطس في البحر ، ووقفت تتأمل مسحورة موج البحر المتلألئ ، ولكن صوتاً مرافقاً لصوت محرك قطع عليها أحلامها وتأملها ، فالتفتت ، فرأت قائد الغواصة على متن زورق بحري بجانب الغواصة يناديها قائلاً :

هل أنت جاهزة يا آنسة سارة ، فالجنرال اللنبي بانتظارك في المطعم .
اقترب قائد الغواصة بزورقه من الغواصة وساعد سارة على النزول إليه ثم قال لسارة :

- أرجو أن تكوني قد أمضيت ليلة هنيئة .

- بفضلكم يا سيدي القائد .

- لقد قلق الجنرال كثيراً من أجل صحتك ، وأمر برعايتك وتأمين كافة وسائل الراحة لك . فإن كنت بحاجة لشيء ، أرجو أن تعلميني به .

- طبعاً ، طبعاً ، وسوف أنقل إلى الجنرال كيف أُوليتموني رعاية واهتماماً بالغين كما أنني سأطلب العودة معكم ، إن لم يكن لديكم مانعاً ...
واقترب الزورق من الأسطول الحربي حيث مقر الجنرال اللنبي .

تسلقت سارة السلم بمساعدة قائد الغواصة حيث كان قائد الأسطول بانتظارها في حين أبحر قائد الغواصة بزورقه عائداً من حيث أتى ، وترك سارة بضيافة الأسطول الحربي .

رافق قائد الأسطول سارة إلى الشرفة المجاورة لمقر الجنرال اللنبي وأجلسها إلى طاولة ، فاستندت سارة على زاوية المقعد وأشعلت سيجارة وسحبت منها سحبة عميقة فقال لها قائد الأسطول :

- سوف يأتي سعادة الجنرال بعد قليل ، وقد طلب مني كوبين من القهوة لك ، كيف تريدن قهوتك يا آنسة سارة ؟
- أريد قهوة بالحليب ...

النجبي قادم

بعد برهة قصيرة ، اقترب رجل على وجهه نمش ، ويده عصا يلوح بها . واستناداً لما سمعت من أوصافه تعرفت سارة على الرجل المرتدي زياً عسكرياً مميزاً ، إنه الجنرال اللنبي دون شك . قالت في نفسها ، ثم نهضت وتقدمت نحوه بضع خطوات .

قال الجنرال وهو يقترب منها .

- الطقس جميل ، أليس كذلك يا آنسة ؟

- أجل يا سيدي الجنرال الطقس والبحر أيضاً ، إلا أن البحر الأسود ليس بهذا الجمال .

وكانت سارة قد دعت الجنرال الكبير في الحملة الأولى بما قدمه من معلومات .

ولكن الجنرال ، ورغم اشارة سارة لها ، لم يعطِ الأمر اهتماماً ، بل تظاهر بعدم فهم قصد سارة وقال : طبعاً ، فاقليم البحر الأسود جاف بطبيعته . صافح الجنرال سارة بكلمتي يديه الكبيرتين ، فضاعت أصابع يدها في كفيه لكبرهما ، وقال الجنرال :

- يا آنسة ، لقد نقلوا لي صورة خاطئة عنك ، إذ قالوا لي أنك جميلة وذكية ، كان عليهم أن يقولوا لي أنك جميلة جداً وذكية جداً .

- أشكر لكم لفتتكم يا سيدي الجنرال . ولكني لا أعتقد انكم قلتم شيئاً جديداً فأنا اسمع هذه الكلمات كل يوم من حولي ، وسأظل أسمعها حتى مماتي .

فرفع الجنرال حاجبيه وأطلق ضحكة كبيرة وقال :

- لقد قالوا لي أيضاً أنك سريعة البديهة ، وجوابك على لسانك .

- نعم يا سيدي الجنرال ، وجمال باشا أيضاً ، في كل يوم ، يلاحظ في

هذه الصفات .

عند سماع لفظ اسم جمال باشا ، قال الجنرال بلهجة جادة :

- أيتها الفتاة الصغيرة ، صفي لي هذا الذي اسمه جمال باشا ؟
فتنهدت سارة قليلاً ، ثم أراحت كتفها على المقعد ، وقالت :
- سيدي الجنرال : إن جمال باشا إنسان كغيره من الناس ... يشبهني
ويشبهكم . إنه لا يختلف عن أي إنسان آخر ، فهو يفكر ، ويعشق ، ويشعر
مثلنا تماماً ..
- هذا أمر سيء ، يا أنسة سارة ، إذا كان جمال باشا يفكر بطريقتنا ،
ويصرف مثلنا ، فهذا أمر سيء جداً ...
سكت الجنرال برهة ، ثم تابع : إني سمعتم يقولون انه إنسان شديد
وصابة وظام . غير أنه لم يظهر هذه الشدة وهذا الظلم في وجه العرب . فهو
يتعامل معهم بكل رفق ، وعلاقته جيدة معهم ، فلقد وصلني ، أنه لم يعدم
لخواسبس العرب الذين تعاملوا مع الفرنسيين ما سبب ذلك يا ترى ؟
- لا نتفاءلوا يا سيدي . فسوف يعدمهم قريباً . إن من واجبات
القائد ، أن عدم مثل هؤلاء الخونة . إلا أن جمال باشا يترث قليلاً .
- ولكن استعجاله للأمر ، سيكون في مصلحتنا . فنحن نريد أن
تتأزم العلاقات بين جمال باشا والعرب ، وأن تسود العداوة بينهما . فبعد
مغادرتنا والد الأمير فيصل ، كنا نتوقع اعلان « حركة الخلاص العربية » .
- يا سيدي الجنرال : هل تعتقد أن العرب والأتراك سيشنون الحرب
لوحدهما ، أم أنكم أنتم الذين سوف ترمون الأتراك خارج هذه البلاد ، أنا لا
أفهم ما يحصل .
- سارة ، يا ابنتي ، أنت فتاة ذكية ، هناك نقاط استراتيجية في
الحروب . وتقدير أهمية هذه الاستراتيجية وكيفية أمرعائد للقائد فقط .
فأنا تحت مسؤولية وحمل كبيرين .
فلن انطلق إلى الأراضي الفلسطينية ما لم أكتشف واعزز نقاط
ضعف الأتراك ، خصوصاً في الداخل ، وما لم أجعل العرب والأتراك يحاربون

بعضهم بعضا وما لم أبت الخلافات والتناحرات بين صفوف القواد الأتراك ، وما لم أخلق سوء تفاهم وخلافات بين الألمان والأتراك أنفسهم ، فطالما لم تتحقق كل هذه الأمور ، لن أتحرك باتجاه فلسطين ولن أقوم بأي حملة تطهير على أراضيها .

لا تنسي ، أن هؤلاء الأتراك البسطاء الطيبين الذين تزينهم ، ينقلبون أسوداً في جبهات القتال . إن اندحار قواتنا في (جنق قلعة) أساء إلى هيبتنا العسكرية في نظر العالم ، علي أن أفكر بإعادة اعتبار الإمبراطورية الانكليزية . إنني متفهم ومقدر لغضبك وهيجانك ولكن علي أن أذكرك أن النصر لا يأتي إلا بالعقل والتفكير والمنطق ، وبالدكاء .

ولا تنسي أيضاً أن سبعة اضعاف ما بذلناه من مال على الجبهة الفرنسية قد صرفناه على « جهاز الاستخبارات » في الأراضي العربية . فالنصر على جبهة فلسطين وفي الأراضي العربية سيأتي على يد جهاز الاستخبارات هذا . بمعنى أن شرف الانتصار هذا سيكون لك يا أنستي ، فأنت ورفاقك بمثابة عيوننا وأيدينا ، ومشاربكم على عملكم سيوصلنا إلى النصر النهائي الكبير .

لذلك علينا بالتريث ، فبعد أن تصبحوا العيون والأذان بشكل كامل ، لنا عندها نعرف كيف نتحرك ، لا تقلقي لهذا الأمر .

علينا منع جمال باشا من أن يعفو عن هؤلاء الذين اعتقلهم في بيروت والشام ، إذ أن اطلاق سراح هؤلاء المعتقلين العرب ، سيؤخر اعلان حركة الخلاص العربية .

وإحدى شروط ومستلزمات اندلاع هذه الحركة هو رحيل الأمير فيصل إلى مكة .

- سيدي الجنرال : إن الأمير فيصل مالم يحصل منكم على ضمانات لن يأتي بأية حركة . أنا متأكدة من ذلك .

لقد تحدثت معه مراراً حول هذا الموضوع . إنه يريد أن ترسموا حدود العربية ، وتحددوا حجم المساعدات التي ستقدمونها لهم منذ الآن ، وفي اعلان العصيان ، هل ستركونهم يواجهون الأتراك بمفردهم ؟ فقال الجنرال :

- إنه محق في هذا ! إنما أريد أن أذكر لك أننا سنضطر لترك الأمير فيصل وقواته تواجه القوات التركية لفترة وجيزة . إنه تكتيك حرب يا أنستي. فالحرب لا نديرها نحن ، بل المصالح هي التي تسيّرُها يا أنستي ! فطالما أننا لسنا واثقين من سيطرة العرب على هذه الأراضي ، ولطالما أننا لم نر بعد قيام هذه الدولة العربية ، فإننا لا نرى لزوماً لأي إجراء بهذا الصدد ، لذلك ، أرى أن لا تعيري اهتماماً كبيراً لهذا الأمر ، بل انصحبك بإهماله ومضاعفة جهودكم .

فوضعت سارة فنجان القهوة الذي كان بيدها على الطاولة ثم ضربت بيديها عليها قائلة :

- يا جنرال ... يا جنرال ...أنا التي تحارب أم أنتم . فنحن لسنا سوى جهاز استخبارات وليس جنوداً ، إنما نرسل إليكم المعلومات يوماً بعد يوم ، غير أنكم خائفون لا تقوون على التحرك ، فهل علينا نحن أن نتحمل هذا الذنب ؟ يجب أن تعرفوا جيداً أنه ما لم تريقوا الدماء فلن تستطيعوا اجلاء القوات التركية من البلاد . إنما نطالبكم بدماء الأتراك أولاً والعرب ثانياً ، إنما نطالبكم بدمائهم ...

فإن لم ترق هذه الدماء ، فلن تكون هناك دولة موسوية ، يجب أن يراق الدم التركي ، يجب طرد الأتراك من بلادنا ، ومن بعدها سيتحقق وعدكم لنا ، فنحن لا علاقة لنا بتفاهكم أو عدمه مع الأمير فيصل ، إنما نجاهد لتطهير فلسطين . إنما مقابل اعطائكم لنا حفنة من التراب نؤدي لكم كل هذه الخدمات . يجب على الإمبراطورية الانكليزية أن تعلم هذا ! ...

فرد عليها الجنرال :

- معك حق يا آنسة ، ولكن لكي نطرد الأتراك من فلسطين ، عليكم تحقيق ما طلب منكم . وإلا فستستمر الحرب سنين عديدة أخرى .

لقد ضربنا الحصار على السواحل لمنع وصول الامدادات الالمانية إلى الأتراك . واستمرار الحرب يضرنا بل يضر الأتراك والالمان أكثر ، ومع مرور الوقت ، سوف تضعف قوة أعدائنا ، إننا ، كقادة ، نفهم ونقدر هذه الأمور، لذلك ، ساقول لك الآتي :

إن القوات الالمانية حققت انتصاراً كبيراً على القوات الفرنسية المتواجدة في الجهة الغربية ، ونحن كاتكليز ، علينا مساعدة الفرنسيين ، لذلك فإن قسماً كبيراً من هذه القوات التي شاهدها ، سوف ترسل إلى الجهة الغربية لمساعدة ومساندة القوات الفرنسية .

وبناءً على هذه الاعتبارات ، أطلب منك المزيد من الصبر ، فالعرب ، رويداً رويداً ، سيتحركون ضد الأتراك ، عليك بمتابعة أمر إعداد أولئك المعتقلين العرب ، وسوف ترين كيف سيرحل الأمير فيصل في اليوم التالي إلى مكة وسيعلن العصيان في كل شبر من الأراضي العربية .

ثم ، هناك أمر آخر يقع على عاتقك يا آنسة سارة ! حسب المعلومات التي وردتنا ، فقد تقرر ارسال قائد جهة جنق قلعة إلى جهة فلسطين لاستلام قيادتها هناك . لقد حصلنا على هذا النبأ من مصدره من استنبول . كما أن زيارة أنور باشا متوقعة قريباً ، للشام وللمدينة ، ولعلمك فإن غياب أنور باشا - يضعف القيادة التركية ، لأنه القائد التركي الوحيد المتعاطف مع الالمان . فقتل أنور باشا معناه الغاء الاتفاق الألماني - التركي . وعندها سيرضى الأتراك بصلح منفرد .

أصغي إلي جيداً ، علينا إنهاء أنور باشا مهما كلف الأمر وبأي ثمن ويجب أن يتم قتله بأيدي عربية ، لكي تشور ثائرة الأتراك ويصبوها على العرب.

- هذا ليس بالأمر السهل يا سيدي الجنرال ، إحباط تعيين مصطفى كال باشا أمر ممكن ، أمّا قتل أنور باشا وفي مقر جمال باشا ، فأمر صعب تنفيذه يا سيدي الجنرال .

- سوف تقدم لك (الشبكة) كل المساعدة اللازمة .

إني واثق بأنك تستطيعين القيام بهذه المهمة بكل سهولة .

- سوف أحاول يا سيدي الجنرال . سوف أقابل الرفاق وأبحث معهم هذا الأمر . ثم تابعت سارة : سيأتي التير إليكم قريباً ، أرجو مساعدته وتسهيل مهمته . وسوف نرسل معه خطط القتال على جبهة غزة الغربية التي أعدها جمال باشا .

- أجل ، يجب أن نحصل على هذه الخطط حتماً ، ثم لا تقلقي بشأن التير ، سوف نساعده على تهديم الصحافة والإقلال من نشر مقالات تندد بالباشا . وزوده بمعلومات عن قواتنا وفعالياتنا ، حسب المستطاع ، لكي يشق الباشا بالتير ويعتمده عميلاً له . لا تقلقي بهذا الشأن مطلقاً .
- أشكرك يا سيدي الجنرال .

دعم مادي لإعلان العصيان

قال الجنرال : عند مقابلتك للأمير فيصل ، أرجو أن تؤكدني دعمنا له والتزامنا بمساعدته ، وقولي له أن هذا وعد .

على كل حال ، منذ عدة أيام توجه سكرتير وزارة الخارجية المسؤول عن الشرق الأوسط السيد رونالد ستورز واجتمع في القاهرة مع رئيس المكتب العربي البروفيسور هوغارتن الذي سافر برفقة وفد إلى الحجاز لمقابلة الشريف حسين ، وقد اجتمع هذا الوفد مع ابنه زيد وجرت مباحثات انتهت إلى ترتيبات واتخاذ بعض القرارات ، لذلك سترسل لهم ثلاثة آلاف بندقية وعدداً حربية وبطاريات مدفعية وستة رشاشات وسوف نمدّهم بالأغذية والتموين ،

و بمجموعة من الجنود المسلمين من مصر .

لقد تقرر إرسال هذه المساعدات وهذه الإمدادات للاستعداد لبدء العصيان ، أما فيما يتعلق برسم حدود بلادهم ، فهم يعلمون أننا ننوي إعطاء فلسطين للموسوسيين بعد انتهاء الحرب ، واتفقنا على ترك سوريا ولبنان للفرنسيين ، سوف نترك مكة والمدينة والحجاز للشريف حسين ، ولا يمكننا التخلي عن أية أراضٍ أخرى ، ولا مجال للبحث فيها .

عليك بإبلاغ الأمير فيصل بقراراتنا هذه ، وإفهامه بأنها قطعية لا مجال للجدال فيها . علماً بأن والده قد قبل بهذا التقسيم في مستهل محادثاتنا معه ، أرجو إبلاغه هذا الأمر واحاطته علماً بالوضع والقرارات المتفق عليها .

أما فيما يتعلق بالحرب ، فهناك تدابير سيتم اتخاذها ، لا تشغلك هذه الاجراءات ، وسوف نقوم ببعض الأعمال الهجومية في غزة .

إن تنفيذ مثل هذه الخطط يعود اقراره إلى تقديراتنا العسكرية . في حين أننا نرغب بشد انتباه الباشا إلى أمر آخر ، وإلى طرف آخر . فسوف نقوم بهجوم على طريق اسكندرون - أضنا ، وأنتم في الشام عليكم بإفهام جمال باشا أن الانكليز ينوون قطع طريق اسكندرون - أضنا ، لمنع وصول الإمدادات القادمة إليه ، هذا الأمر يجب أن يعلمه الباشا وضباطه . أما نحن فسنقوم بالتحرك ، بمؤازرة القوات الفرنسية في تلك المنطقة ، وطبعاً سيكون تحركنا صورياً ، لأننا في حقيقة الأمر ، سوف نوجه قواتنا إلى جبهة فلسطين وغزة .

- فهمت يا سيدي الجنرال .

- لنستعرض معاً ما ستقومين به وما قررناه سوياً :

١ - احباط رئاسة مصطفى كمال باشا للقوات المتواجدة في مكة ، ومنع وصول هذه القوات إلى فلسطين .

٢ - التأكيد على التحاق الأمير فيصل بوالده في مكة ، وضرورة تنفيذ ذلك في أقرب وقت ممكن .

٣ - العمل على تنفيذ حكم الإعدام بالمعتقلين العرب الذين تعاملوا مع الفرنسيين .

٤ - ارسال خطط تحركات القوات التركية المرتقبة إلى غزة .

٥ - التحضير لاغتيال أنور باشا وإعداد الخطة اللازمة للتنفيذ .

٦ - ترويج نبأ قيام الفرنسيين والانكليز بقطع طريق أضنا - اسكندرون.

أرجو يا آنسة سارة العمل على تنفيذ هذه البنود الستة التي ذكرتها لك والتقيد بها .

- كما تأمرون يا سيدي الجنرال . يمكنكم الاعتماد علينا في ترجمة هذه البنود الستة على أرض الواقع . وأرجو أن تعذروني على انفعالي وغضبي منكم . إن آلاف الموسويين الموجودين في فلسطين ، ينتظرون بفارغ الصبر أن تتأقداكم أرض فلسطين . لقد أردت فقط أن أطلعكم على الظروف القاسية التي نعيشها من أجل تحقيق هدفنا باقامة دولة موسوية لنا .

لا يمكنني أن أصف لكم شعورنا ونحن نرمي شرفنا وكرامتنا وعفتنا ، تحت أرجل الضباط الأتراك ، لنحصل على كلمة واحدة منهم تساعدكم في القضاء عليهم . لذلك ، أرجو قبول اعتذاري لانفعالي وغضبي المنبعثين من هذا الشعور المر الذي يقبع في داخلي وداخل كل موسوي .

- إني أفهم ذلك ، أفهم ذلك ، ولكن لا تنسي أن حصاد هذا الجهد وهذه التضحيات سيكون النصر الأكيد .

- انشاء الله

- متى ستعودين ؟

- الليلة بالذات .

- ذلك حسن ، فلتعيدك الغواصة إلى فلسطين .

أول كأس نبينذ سأشربه من مخزنك

وهكذا تم اللقاء التاريخي بين سارة والجنرال اللنبي ، فصاغت سارة الجنرال قائلة :

- إلى اللقاء في فلسطين .

ورد عليها الجنرال :

- أول كأس نبينذ أشربها في فلسطين سوف تكون من النبيذ المعتق في

مخزنك .

- وأنا ، منذ اليوم ، سأبدأ بتخزين أغر الخور لكم ، فهذا شرف عظيم

لعائلة آرونسون يا سيدي الجنرال .

يا آنسة نحن لسنا بليدين باردين

ركبت سارة زورقاً صغيراً وتوجهت نحو الغواصة ، حيث استقبلها

قائد الغواصة ، ورافقها مباشرة إلى قمرته . وسألها :

- كيف وجدت جنرالنا يا آنسة ؟

- إنه إنسان رائع ، غير أن دمه كبقية الانكليز بارد .

فضحك قائد الغواصة وقال :

- يا آنسة ، إنك تفترين علينا ، إننا نظهر وكأننا بليدون باردون ،

لكن في الحقيقة لسنا كذلك . وإذا شئت فإني أستطيع اثبات ذلك لك .

لم تنتبه سارة إلى ما قصده قائد الغواصة في بادئ الأمر ، فضحكت

قائلة : كيف يمكنك اثبات ذلك ؟

فعانق قائد الغواصة سارة بحركة رشيقة ، وبدأ يقبلها .

فوجدت سارة نفسها في موقف لم تكن تتوقعه. فقالت له : لو أن

قوات الحلفاء ، والجنرال اللنبي كانوا مثلك ، وبهذا الاندفاع ، لكنت الآن

القوات الانكليزية قد احتلت فلسطين .

فضحك قائد الغواصة وقال : كلا يا أنسة ، فالأمر يختلف . إن احتلال النساء ليس كاحتلال البلاد . فالبلاد يحتلها القواد الكبار ، الناضجون بتفكيرهم وذكائهم وحكمتهم . أما الاستيلاء على الفتيات وقلوبهن فيحتاج إلى حس مرهف بالحياة ، وهذا ما تتميز به نحن الضباط الصغار .
- في تلك الحالة ، أنا أرغب بالاثنين معاً . فاتحي الفتيات والبلدان .
- إذاً الجنرال اللنبي سيتولى مهمة البلدان ، وأنا الفتيات ، هل يمكن ذلك يا أنسة .

- نعم يمكن ، عند وصول الجنرال إلى فلسطين سأعد له زجاجة نبيذ فاخرة معتقة ، أما لك ، فسأعد غرفة نومي ، هل يكفيك هذا ؟
خرج قائد الغواصة من القمرة وقام بإعطاء جنوده التعليمات اللازمة ثم عاد ثانية وقال :
- إننا نغطس يا أنسة ... سوف نصل في منتصف الليل إلى شاطئ .
زمارين سيكونون بانتظارك أليس كذلك ؟
- طبعاً سيأتي ابراهيم للقائي .

كلمة السر : النصر

عند صعود الغواصة إلى سطح المياه ، شوهد ضوء يتوهج ثم انفتحت على الشاطئ .
فقال قائد الغواصة للجندي العامل على سطح الغواصة والذي يقوم بإرسال الإشارات الضوئية والرسائل .
- أسأله عن كلمة السر ؟
فأرسل الجندي إشارات طالباً ممن كانوا على الشاطئ إعطاءه كلمة السر . وبعد برهة قال الجندي : كلمة السر صحيحة وسليمة يا سيدي ، كانت كلمة السر : النصر .

وبعد نصف ساعة شُمع صوت ابراهيم وهو ينادي من زورقه ، فعانق قائد الغواصة سارة ، وقبلها من وجنتيها ، وأمسك بيديها ، ثم ساعدها على النزول إلى الزورق .

وبدأت سارة و ابراهيم ، كلٌّ من جانب ، بالتجديف بأقصى سرعة للوصول إلى الشاطئ ، دون أن يتبادلا أية كلمة وبالكاد رمت سارة نفسها على الشاطئ ، وتوجهت برفقة ابراهيم نحو عربة تجرها الخيول كانت بانتظارهما تحت الأشجار .

صعدت سارة العربة ، وتنفست الصعداء . وقالت :

- أخبرني يا ابراهيم عما جرى أثناء غيابي ؟

- لا توجد أية أنباء مهمة يا آنستي .

- ماذا يفعل التير وليديا .

- إنها في شهر عسلها يا آنستي ، فقد أقاما الاحتفالات لمدة يومين

لكي يتمكن المخاتير والدرك في كافة أرجاء زمارين من الحضور .

- هل مازال كل المدعويين في قريتنا ؟

- نعم يا آنسة ، لو أنك فقط تريهم .

سارة تدخل إلى البيت

أثناء عودتها إلى كوخها ، من الباب الخلفي الذي يطل على الحديقة ، قابلت سارة العديد من الشبان والفتيات السكارى ، الذين شربوا الخمر حتى الغالة ، ومرت دون أن يلاحظها أحد .

وسرت سارة لهذا الوضع ، ولأن الدرك ، والمخاتير ، وأفراد الشرطة ورؤسائهم الذين قدموا إلى منزلها ، لم يلاحظوا دخولها وخروجها من الكوخ ، ولم يلاحظوا غيابها .

دخلت سارة إلى غرفتها واستدعت ليديا والتير .

فقالَت ليديا : آه سارة ، هل عدتِ ، لقد اشتقتُ إليكِ كثيراً . وكنت قلقة جداً بشأنكِ .

- لماذا هل هناك ما يستدعي القلق ؟

- لقد كنت أخشى أن يطلبكِ جمال باشا .

- قولي له أنني صعدت إلى الجبال ، ذهبتُ لجمع النباتات ، أو أنني أعمل في المختبر ، وبذلك يمكنكِ ابعاده يوم أو يومين على الأقل .

- معكِ حق يا سارة ، ولكن مع ذلك كان لابد لي أن أقلق عليكِ .

وشارك التير في الحديث وقال :

- عندنا لك أخبار سارة ...

- ما هي ؟ سألته سارة .

- لقد تمكنت فايستر هايم من الحصول على كل خطط حملة جمال باشا

إلى غزة الغربية ، وفرحت سارة ، وصاحت :

- مرحى لك يا فايستر ... مرحى لك ...

إنها على كل حال فتاة لعبوب شقية ، وكيف تمكنت من الحصول

عليها .

- سرقتها من منزل قائد المئة جواد آدم .

- لحسن الحظ لم تكوني في القدس أثناءها يا ليديا ، فهذه الفتاة

تعمل لديكِ ، وفي حال اشتباههم بالأمر ، فسوف تكونين أول من يمسّه الأذى .

- نعم ولكن لا تنسوا أن فايستر تمساوية ولا يعلم أحد بأنها موسوية .

ثم التفتت سارة إلى التير وسألته :

- هل قمت بتحضير كافة أموركِ ؟

- نعم يا سيدتي ... غداً صباحاً سوف يأتون باليخت من بيروت إلى

يافا ، وسوف أغادر يافا بعد ظهر يوم غد ، وأتوجه إلى الاسكندرية .

- حسناً ، لقد أعلمت الجنرال النبي بقدومك ، وسوف يعمل على مساعدتك وتسهيل أمورك .

سوف يتأخر قدوم الانكليز النيام ، لذلك علينا أن نتحلى قليلاً بالصبر والثبات .

فقال التير : سوف تكون هذه الخطط العسكرية ذات فائدة كبيرة للانكليز .

- طبعاً .

قالت ليديا : هل ترغبين بأن ترتاحي قليلاً يا سارة !

- كلا كلا يا ليديا فلننزل إلى الحديقة ، ولنشارك المدعوين فرحتهم .

فأطلقت ليديا ضحكة عالية وقالت : كلهم محذرون ، لقد دسنا في كؤوس النبيذ قليلاً من الأفيون ، فكل أركان الدولة الآن مغمى عليهم في الحديقة .

- أحسنتم صنعاً ، فزواجكم كان خير وسيلة لنا .

ونزلت سارة يتبعها التير وليديا إلى الصالون ، ووجدوا الفتيات الموسويات والعديد من الضباط سكارى ونصف نائمين هنا وهناك . فقد تحول كوخ سارة إلى بيت للعشاق .

نظرت سارة إلى ما حققته وأبدعته فرقة الفتيات الموسويات وقالت لالتير : إن قوة هؤلاء الفتيات يفوق قوة جيش الجنرال النبي تأكد أنه من دوننا لن يستطيع الانكليز الدخول إلى فلسطين واجلاء الأتراك ، إنهم مازالوا يتذكرون نكستهم في جنق قلعة التي أصابهم ، لقد تركت هذه النكسة أثراً كبيراً في نفوسهم وعلى معنوياتهم .

الفتيات الموسويات عاريات

أشارت ليديا بإصبعها للفتيات الموسويات شبه العاريات

والمنتشرات في أركان الصالون برفقة الضباط وكبار الشخصيات التركية ،
بالانسحاب إلى غرفهن وقالت لسارة :

- الحق معكِ يا سارة ، فن يستطيع أن يقاوم هذا الجمال ، جندياً كان
أم ضابطاً ، إن كل واحدة منهن أجمل من الأخرى .
وبعد أن تأملتهم سارة واحدة واحدة ، قالت :
- أرى أن فتياتنا يتمتّعن في أداء مهمّتهنّ .
فضحك التير وقال :

إن فريق فتياتنا المؤلف من أجمل فتيات العالم ، سيكبر ويعلو شأنه ،
ولن تجدي لهقً مثيلاً في أشهر ملاهي العالم !
فقالت سارة : معكِ حق إن سمحتم لي فأنا ذاهبة إلى غرفتي لاستريح .
- فرد التير : لاتقلقي ، فإننا سنكون مشغولون مع المدعوّين حتى
الصباح ، اذهبي أنت وارتاحي .
ودخلت سارة إلى غرفتها ، وفكرها مليء بصور الأحداث التي جرت
اليوم ، وتذكرت قائد الغواصة وتخيلت وجهه أمامها ، ثم تمددت على
سريرها واستسلمت لنوم عميق .

سارة تعطي التعليمات

عند استيقاظها قرابة الظهر ، رأت سارة الخدم في الحديقة مشغولين
بتنظيفها وترتيبها وإزالة الأوساخ منها .
ونزلت إلى الصالون حيث وجدت ليديا والتير بانتظارها فقالت :
- استعدّا للرحيل بعد قليل ، إن كنت تريد ، أستطيع أيسالك حتى
حيفا .

فقال التير : كما تشائين يا سارة .
فردت سارة : حسناً ، سأوصلك إذاً حتى حيفا ، استعدّ للرحيل .

نترك سارة منهمكة في اعداد الفخ للعثمانيين ، لنعود إلى حيث ننصت لما يقوله جمال باشا الصغير لجمال باشا الكبير .

- أنا لست ضد فكرة الهجوم، على العكس فأنا من أنصار أن يتم في أقرب وقت ممكن ، إنما أرى أن خططنا الحربية لم تكتمل بعد ولا مستلزماتنا ولا استعدادات جيشنا على الجبهة . باختصار لم نكمل استعدادات جيشنا بعد، فأنا على اتصال دائم بالألمان ، إنهم سيقومون بتسليتنا هذا اليوم قسماً من مستلزماتنا وحاجاتنا العسكرية ولكنها لم تصل إلينا بعد .

- جمال باشا : ما أبطأ الألمان في تنفيذ وعودهم .

- هؤلاء الألمان بالمتصر أناس جديون وذوو شأن ونفوذ هذا كل ما يقال عنهم ، وتابع الباشا الصغير قائلاً :

- من ناحية أخرى ، لدي ملاحظتين أود ذكرها لكم يا سعادة الباشا .

- تفضل إني منصت لك .

- لم نستطلع بعد جميع المعلومات الكافية عن قدرات جيوش الانكليز والفرنسيين فنحن نتابع تقدم وتقهقر هذه الجيوش على الجبهات . ونجهل حقيقة قوة عدونا العسكرية .

إن جهاز استخباراتنا ضعيف جداً ، وهذه حقيقة مرّة يجب الاعتراف بها . فكثير من المعلومات التي تصلنا منهم متضاربة في مضمونها .

فنحن في حيرة لمعرفة أي الأنباء صحيح وأي الأنباء يجب أخذها بعين الاعتبار . فالمعلومات التي تصلنا عبر أقية التجسس التي نملكها متشابكة ولا رابطة بينها .

فالمعلومات الواردة إلينا تقول بأن الانكليز سينسحبون من المنطقة ولكن علينا الحصول على معلومات سليمة وجديدة عن قوات عدونا .

- معك حق يا باشا ، بهذا الخصوص لدينا شخص يدعى التير ليفي
أعتقد أنه سيكون ذو فائدة كبيرة لنا ، إنه أمريكي الأصل ، سأقوم بإرساله
إلى الاسكندرية ، سأفهمك بالتفصيل المهمة التي أوكلتها إليه . هذا
الشخص التير أعلق عليه آمالاً كبيرة . فلن يمضي يومان أو ثلاث على
رحيله إلى الاسكندرية إلا وسترى ما سيرسله لنا من معلومات ذات شأن
وأهمية بالغتين .

- يا إلهي ، يا سعادة الباشا ، هذا رائع ، ولكن ، هذا المدعو التير
كيف ومن أي طريق سيتوجه إلى الاسكندرية وإلى مصر .
وضحك جمال باشا الكبير قائلاً :

- لا تقلق يا باشا ، قد رتب التير كل أموره . إن جنسيته الأمريكية
ستسمح له باختراق الحصار الانكليزي الفرنسي بكل سهولة ، وبالإضافة إلى
ذلك ، فإن له في مصر أصدقاء ومعارف كثر . لا أعتقد أنه سيثير الشبهات
من حوله .

- في هذه الحال ، وبانتظار ورود الأنباء منه ، علينا التريث قليلاً ،
وتأجيل موعد تحركنا .

- أعتقد ذلك ؟

- نعم ، سنرى ما سيقوله لنا التير هذا ، بشأن الانكليز ، وما سيرسله
من معلومات عنهم .

سنعلم منه صيغة قرار الجنرال اللنبي ، وسوف نعلم منه توجهات
وأهداف القوات الانكليزية المتوقعة ، ومدى استعداداتها وحجمها .

كما سيطلعنا على نوايا القوات الانكليزية في هذه الآونة ، إذ أننا وحتى
يومنا هذا ، لم نشهد من قبل القوات الانكليزية سوى المواقف الدفاعية .
ولأعتقد أن قواتنا قادرة أن تجعلهم ينسحبون من أمامها وأنا مقتنع بهذا
يا حضرة الباشا .

علينا ان لانرى الانكليز اكبر من حجمهم

فقال جمال باشا الكبير لحدشه :

- كلا يا باشا ، كلا ، لو كانوا قادرين على مهاجمتنا ، لما تأخروا أبداً عن تنفيذ ذلك . غير أن قوة وشراسة الجيش التركي تصدهم وتمنعهم من التقدم ، ولو خطوة واحدة . لاتعط القوات الانكليزية حجماً أكبر مما نتصوره ، مما هم عليه . لماذا اندحروا إذاً في جنق قلعة هل كان ذلك تكتيكاً عسكرياً أيضاً ؟ بالعكس ، فهذه قوات الحلفاء الأول هو الاستيلاء على المنافذ والمعار البحرية لكي يضيّقوا الخناق حول عنقنا ، ويقضوا على الإمبراطورية العثمانية ، ذلك هو مخططهم الرئيسي وهدفهم الأول والأخير . غير أنهم لم يوفقوا في ذلك .

- هذا صحيح يا سعادة الباشا ، لكنني أعتقد أن استراتيجيتهم وتكتيكهم في هذه المنطقة يختلف تماماً عما كان عليه هناك . لقد لاحظنا عدم تحركهم باتجاه أرض فلسطين ، يجب أن نبحث عن سبب ذلك ، وعن طريقة تفكيرهم حول هذه المنطقة .

- يا باشا ، يا باشا ، لاتوجد أسباب ولا أي شيء آخر . كل ما في الأمر أن الانكليز يحرضون العرب على العصيان ودفعهم إلى مواجهتنا وبعد أن نتقاتل نحن والعرب ويفني واحدنا الآخر ، بعدها سيدخلون هذه الأراضي بمساعدة القوات الفرنسية ، ملوحين بأيديهم وكأنهم في نزهة .

فالكثير منا لا ينتبه لهذا الأمر ، خاصة أولئك المسؤولين عن حركة الخلاص العربية ، فهم لا يقدرون خطورة الموقف . إنهم يعتقدون أنهم بمجرد اجلائنا عن هذه الأراضي سيقومون دولتهم العربية الكبرى تحت راية الشريف حسين في مكة بمؤازرة ومساعدة القوات الانكليزية والفرنسية ، وسيكون ذلك ثمن عصيانهم الذي سيقبضونه من الفرنسيين والانكليز . غير أن هؤلاء المساكين لا يعلمون أن الانكليز والفرنسيين يخدعونهم . هذه هي وجهة نظري .

- إنكم محقون في هذا يا سعادة الباشا . لذلك ، وبناءً على ما تقول ، علينا تأجيل تنفيذ أحكام الاعدام بحق المعتقلين العرب في الشام . ماذا تأمرون في هذا الصدد يا سعادة الباشا ؟

- أعتقد أنني لا أفكر في هذا . ولكن علينا أن لاننسى أن للإمبراطورية العثمانية هيبة يجب فرضها وإظهارها . سأعيد النظر في هذا الأمر عند عودتي إلى الشام . يمكنك الاطمئنان إلى أنني لن أتخذ قراراً فوراً بهذا الصدد . فأنا وأنتم ملزمون بالحفاظ على شرف وهيبة الإمبراطورية العثمانية ، غير أننا في حالة حرب ، نخوض معركة بقاء ، نحن في حالة حرب ضارية مع أعدائنا . إن لم نعدم هؤلاء الخونة في ساحات البلاد ، فإن هيبة وشرف دولتنا ، سوف تداس ، ولن يبقى للدولة العثمانية أية سلطة ولا هيبة في البلاد .

- في هذه الحال ، أي القرارات نتخذ ؟ أننقذ شرف وهيبة الإمبراطورية العثمانية ؟ أم نغفو عن هؤلاء الخونة ؟ وتذهب بذلك سدى دماء شهدائنا الذي قُتلوا في الجبهات دفاعاً عن شرف وهيبة هذا الوطن ، ودافعوا عنه في ظروف قاسية وتحملوا الأثرين من أجله ؟

- أنا لست بالحاكم المطلق ! فأنا لست ديكتاتوراً ولا سفاحاً . إننا نناضل لدحر هذه القوات الانكليزية التي نواجهها . إن الانكليز يدفعون باخوة لنا مسلمين ساقوهم من الهند إلى جبهات القتال ، يدفعونهم لمقاتلتنا . ألا نعدم إذاً الخونة الذين أهانوا الإمبراطورية وحاربوها في الداخل ، حتى ولو كانوا مسلمين ؟

إننا نعدم الجنود الفارين رميةً بالرصاص يا باشا . ألا تعتقد إذاً أن علينا معاقبة أولئك الذين خانوا هذه البلاد وسببوا لها الأذى والدمار ، أجبني بحق السماء يا باشا ؟

كانوا يلقبون الباشا بالظالم

كان جمال باشا المرسيني من بين الضباط المعروفين باستقامتهم وشرفهم. ولم يكن في الوقت نفسه من مؤيدي اللجوء للعنف ، غير أنه لا يمكنه السكوت على اهانة مثل هذه ، خصوصاً وأنه أحد باشاوات الدولة وعليه أن يحرص على المحافظة عليها ، وفي تلك الآونة ، كانت ألقاب «الظالم» و «السفاح» تتردد هنا وهناك بحق جمال باشا الكبير ، وكان لابد لجمال باشا المرسيني من أن يلفت نظر الباشا الكبير إلى هذا الأمر .

فأراد استغلال فرصة الحديث معه ، لإعلامه بهذا الموضوع .
ومن ناحية أخرى كان جمال باشا المرسيني مؤيداً لجمال باشا في تصرفاته ومبرراً له كل الإجراءات التي كان يتخذها ، والتي أدت إلى شيوع تلك الألقاب بحقه .

جمال باشا المرسيني على علم بنشاط سارة

هناك أمر هام آخر . ففي الأيام الأخيرة المنصرمة ، لم يبد جمال باشا المرسيني ارتياحه لوجود الموسويين في فلسطين .
وبصفته قائد هذه المنطقة فإنه يريد أن يسيطر على أمن هذه المنطقة وجعلها في قبضته . لذلك كان يفكر في ارسال الموسويين المشتبه بهم من مدينة القدس إلى الشام للتخلص منهم . غير أنه لم يكن يجد الجرأة الكافية لبحث هذا الأمر مع جمال باشا . خاصة وأن الباشا الكبير متعاطف مع هؤلاء الموسويين ، وهذا واضح بعلاقته مع سارة صديقه وحبيبته الأثيرة لديه .
ولكي تبقى مصلحة الدولة عالية كان لابد لجمال باشا المرسيني من أن يفتح الباشا بهذا الموضوع ويتناقش معه بهدف إيجاد طريقة للتخلص من هؤلاء الموسويين المشتبه بهم .

فقال لجمال باشا : سيدي الباشا ، إن في القدس وأطرافها ، حوانيت

خمر ، ودور دعاة وأماكن موبوءة لممارسة الأعمال اللاأخلاقية ، يديرها الموسويون ويتردد إليها ضباطنا والضباط الألمان والنمساويون كل ليلة ، ولقد تحققنا من صحة الأمر . ففي كل حانة من هذه الحوانيت المخصصة لشرب الخمر وممارسة الدعارة تعمل فتيات موسويات يقضي ضباطنا معظم ليالهم معهن .

فكل موسوية لها ضابط تصاحبه وتكون له خليله ، هؤلاء الموسويات القادمات من أطراف العالم ، كلهن ، وأرجو المَعذرة ، فاحشات وساقطات ، ولانعرف من هم وراءهن ، فهن ينصتن إلى أحاديث ضباطنا ويستقون منهم المعلومات ويرسلونها إلى أعدائنا ، علينا معرفة ما يرسلونه إلى أعدائنا . من ناحية أخرى ، ولعشرات المرات ، الفتيات الموسويات فرضن سيطرتهم على ضباطنا مؤخراً . ولا ندري من منهن البريئة ومن منهن الجاسوسة ، وصعب جداً التحقق من ذلك ، لذلك ، أرى أن أفضل وسيلة للتخلص منهن إجلاؤهن عن المدينة .

رفع الباشا الكبير نظره رويداً رويداً ثم قال لجمال باشا المرسيني .
- يا باشا ، إنك محق في كلامك ، ورأيك سديد ، ولكن لا أعتقد أن الضمير الانساني يرضى بأن نجمع هؤلاء الموسويات ونرسلهن إلى الشام ونشردهن من بيوتهن . ففي الأصل شردت هؤلاء الفتيات من بلادهن وتعرضن لشتى ألوان الاضطهاد والعذاب ، حتى وصلن إلينا وسكنن في أراضينا . فهل نأتي نحن اليوم ، وبغير سبب ، لنطردهن خارج بيوتهن ونشردهن من جديد . أين هي عدالتنا إذا ؟

إنما لا بأس أنا وأفاقك الرأي ، أن تُبعد إلى الشام من تشك في أمرها من الفتيات الفاحشات اللواتي يشكلن خطراً على أمن دولتنا ، وأعارض فكرتك في ارسالهن كلهن إلى الشام ، فهذا أمر لا يمكن حدوثه .
- في هذه الحالة ، أرجو أن تسمحوا لي بتفتيش وتدقيق هذه البيوت

وهذه الحوانيت ، وسوف أتأكد من هوية كل الفتيات العاملات فيها فأمر المشتبه بها بمغادرة المدينة .

- هذا ممكن ، ولكن يا باشا ، حذار أن ترتكب أخطاءً وترسل الأبرياء إلى الشام .

- كونوا مطمئني البال يا سعادة الباشا. فإنني لن أتهم أحداً ما لم أتأكد وبالبهران القاطع أنه مذنب .
- حسناً ، فليكن كذلك .

ونظر الباشا الكبير إلى ساعته وتابع قائلاً : «لقد مضى الوقت بسرعة» ثم نهض ومشى في غرفته بضع خطوات، ثم قال : أنا ذاهب يا باشا. لقد كان ينوي الذهاب لعند سارة التي كانت بانتظاره ، فقد مرّ يومان لم يرها فيها .

لقاء سارة

استقبلت سارة جمال باشا ، في منزل ليديا بشوق وحرارة ، والجدير بالذكر أن جمال باشا كان ينسى كل همومه عندما يلتقي بسارة ويحاسبها وهذا ما جعله مؤخراً ، يتخذ قرارات غير صائبة وأحكاماً خاطئة غير مسؤولة .
سأل جمال سارة قائلاً :

- كيف كانت الأمور في قريرتك ؟ هل ما زالت في مكانها ؟
- ما زالت في مكانها طبعاً بفضل رعايتكم .
- هل أنت مرتاحة للإدارة الموجودة في قريرتك ؟
- نعم جداً ، إلى حد أن كل القرويين الموسويين يدعون لكم ليلاً نهاراً .
- ألا توجد أزمة مؤونة ومجاعة في قريرتك ؟
- كلا يا باشا ، فالأرض في قريرتي خصبة ، ثم إنكم لا تأخذون المحصول من أيدينا ، لذلك فالمحصول يكفيهم ويغطي حاجتهم .

- حسناً ، لقد طمأننتني لأن باقي المناطق تشكو الجوع وقلة المؤنة والغذاء ، وأنا أفكر ليل نهار لأخلصهم من تلك المآسي .

- سيدي الباشا ، هناك فقط بعض الأقاويل التي يرددها سكان قريتي وأطرافها ، لا بد أن أقولها لأرتاح .

- ما هي هذه الأقاويل ؟ أخبريني بها يا سارة .

- أولى هذه الأقاويل ، هي أنكم ستعودون إلى استنبول وسوف يعين مكانكم باشاً آخر اسمه مصطفى كمال ، هذا ما يردده الناس في كل مكان .

أما النبأ الثاني فهو أن الانكليز والفرنسيين يتوون قريباً شن هجوم على طريق اسكندرون - أضنا ، ليقطعوا طريق الإمدادات بينكم وبين الأناضول ، فتنقطع عنكم المساعدات التي ترسلها لكم حكومة استنبول ، ويقولون أيضاً انكم بذلك ستجبرون على تسليم أنفسكم وقواتكم للانكليز والفرنسيين .

عند سماعي هذه الأقاويل ، لم أستطع في الحقيقة البقاء في القرية ، وقررت القدوم فوراً إلى القدس لأخبركم .

وتغيرت ملامح جمال باشا وارتسمت على فيه بسمة سقيمة لدى سماعه ذلك .

يا له من بائس جمال باشا هذا ، فهو مخلص ومحب لوطنه ، بريء في حبه لسارة، قد يرتكب أحياناً أخطاءً عن عمد أو عن غير عمد غير أنه لم يكن يرى ما حوله بوضوح ودقة . وثقته العمياء بأصدقائه تجعله يقع في مطبات وأخطاء لم يكن يقصدها لو أنه دقق النظر فيها .

لاعلينا ، فعند سماعه كلمات سارة هذه ، تغيرت ملامحه واشتد غضبه وقال : من ؟ مصطفى كمال باشا ؟ أهو الذي سيكون مكاني ؟ لا ، لا يمكن أن يحدث هذا ...

ونظر في عيني سارة ثم ابتسم وقال : ربما يحدث هذا ، فلا شيء

مستحيل في هذه الدنيا، فنحن أعضاء حزب الاتحاد والترقي، إذا حاربنا بعضنا البعض، وقضى بعضنا على بعض، يمكن عندها أن يحدث أي شيء..
فأنور باشا، الذي رمى بالرصاص صديقنا يعقوب جميل، أحد أبرز أعضاء حزب الاقتدار، وأحد مؤسسيه، لن يصعب عليه أن يمرني أنا أيضاً من هنا. ولكن قبل أن يفعل هذا، عليه أن يرميني أنا أيضاً بالرصاص. لن يستطيع أنور باشا إزاحتي من هنا إلا جثة هامدة!

فلنسلم بأن بين الأقاويل التي ذكرتها، شيء من الصحة، مصطفى كال سيأتي فعلاً إلى هنا، بناءً على أوامري ليعمل بجانبي. إنهم أوكلوا إليه قيادة « المدينة » وليس مكاني، إنما ما يثير العجب، في الحقيقة هو سرعة انتشار هذا النبأ، فمذ بضع ساعات فقط أعلنت أنور باشا بموافقتي على إرسال وتعيين مصطفى كال هنا بأمرتي.

إذاً، فالحكومة في استنبول ابلغت هذا القرار إلى أعدائنا قبل صدوره، فوصول هذا النبأ إلى القرى وتناقله بين الناس دليل على أنه قد شرب منذ وقت طويل من وزارة الحربية في استنبول.

- قد يكون النبأ صحيحاً أو خطأ لا يهم الأمر، هل مصطفى كال قائد كبير يا سعادة الباشا؟

- أجل إنه عسكري ممتاز يا سارة!

- سعادة الباشا، انكم تحكمون من جبال طوروس وحتى سهول الين، وتحملون مسؤولية كل هذه المناطق على عاتقكم. فالحمد لله والشكر له، انكم تحسنون إدارتها. هل تعتقدون أن مصطفى كال يستطيع تحمل مسؤولية كبيرة وعبء ثقيل كهذا الذي تتحملونه؟ وهل يستطيع أن يخرج من تحت هذا العبء؟

- لا يا سارة، لا، لن يستطيع إنه يجهل مثل هذه الأمور، إنه مجرد عسكري، إنه ضابط وقائد ناجح هذا كل ما في الأمر...

من تظنين مصطفى كال ؟ شتان ما بينه وبين قائد الجيش الرابع ! ثم إن أنور باشا لا يجب هذا الانسان ، إني أعلم ذلك تماماً ، فلا أحد يدعمه في الحزب . ربما يريد أنور باشا ، بإرساله لمصطفى كال إلى هنا ، أن يضعه في مواجهةتي ، لكنني لا أعتقد أنه يفعل هذا .

كل ما في الأمر ، أن مصطفى كال سوف يأتي إلى هنا قبل توجهه إلى المدينة . إنني أحبه ، وهو يحبني ومحترمني ، ولا أعتقد أنه يعصي لي أمراً ، فهو صديق مخلص ووفي ...

- أرجو من الله أن لا تكونوا مخطئين في تقديراتكم يا باشا .
إذا رحلتم من هنا ، فلن أبقى وحدي سالحق بكم إلى استنبول ، ما رأيكم ؟

ضحك جمال باشا وقال لسارة : طبعاً ، يمكن ذلك ، لن أتركك وحدك هنا .

- أشكركم يا سعادة الباشا . حسناً ، كيف تحللون نبأ نية الانكليز والفرنسيين شن هجوم على خطوط الإمداد بين اسكندرون وأضنة ؟
- هذا الأمر يمكن حدوثه ، خصوصاً في هذا الوقت بالذات ، فهو أمر معقول . إن التفكير في قطع طريق الإمدادات القادمة من استنبول إلى الأناضول لدعم أراضٍ تمتد من جبال طوروس إلى سهول اليمن ، تفكير عسكري منطقي ومقبول .

ولكن ، في حال حدوث مثل هذا الهجوم وتعرض خطوط إمداداتنا للتخريب ، بإمكاننا أن نكتفي ذاتياً بما لدينا من مؤن وذخيرة وتأمين احتياجاتنا عن طريق المنطقة المتواجدة بها قواتنا ، قد يسبب لنا ذلك بعض الضيق ، ولكنه لن يجبرنا على الاستسلام ، ولن يكون سبباً لهزيمتنا .

وفي مثل هذه الحالة ، يمكنني طلب مساعدة السفن الحربية الألمانية بالضغط على القوات البحرية الانكليزية والفرنسية التي تحاصر سواحلنا ،

وفك حصارها عتاً . أي أنه في حال حدوث مثل هذا الموقف ، فهذا معناه أن حرباً كبيرة سوف تقوم على امتداد سواحلنا .
فستكون القوات الألمانية البحرية في جانبنا . على كل حال ، لدينا خططٌ حربية حول هذا الموقف في حال حدوثه . إني لا أرى ما يقلقني في هذا الموضوع ، ولا أرى أهمية كبيرة له يا سارة ، غير أن احتمال شن هجوم على خطوط إمداداتنا أمر وارد وقوعه . إن مثل هذا الهجوم إنما يدل على ضعف إمكانيات أعدائنا القتالية ، فليجوؤهم إلى معارك جانبية محدودة ، دليل افلاسهم العسكري .

فالعُدو الذي تلقى ضربات وانهزم أمام جبهات غزة وفلسطين سيحاول البحث عن ساحات أخرى لشن معاركه فيها ، فإذا كان هذا الخير صحيحاً ، فهو لمصلحتنا ، علماً بأن تحركنا سيتم على ضوء المعطيات التي يقدمها ضباط القيادة بعد دراسة كافة المعلومات .

لقد تمكنت سارة ، بحديثها مع جمال باشا ، أن تنتقل إليه ما طلبه منها الجنرال اللنبي وأن تفهم ما يدور في خلده . ونجحت في إشغال بال جمال باشا ، وسرت لهذا الوضع ، فعانقت جمال باشا وقالت :

- كم سيطول بقاءنا هنا يا سعادة الباشا ؟
- لن يطول الأمر كثيراً ، مجرد عدة أيام ، فلدي أمور هامة علي إنجازها هنا ، ومن بعدها ، نتوجه إلى الشام .

جمال باشا في مقر قيادة مدينة القدس

توجه جمال باشا في منتصف الليل إلى مقر القيادة في القدس . واستدعى في الصباح الباكر ، جمال باشا المرسيني إليه ، فقد كان يعتمد عليه كثيراً ويشق به ثقة عمياء .
كان الضباط العاملون مع جمال باشا ينتمون إلى ثلاثة تجمعات في

حزب الاتحاد والترقي . بعضهم كان من رجال جمال باشا ، وبعضهم الآخر من رجال أنور باشا والباقون من رجال طلعت باشا .

حتى داخل مقر قيادته ، كان جمال باشا تحت مراقبة مجموعة الباشاوات الآخرين لذلك لم يكن من السهل الاعتماد على أحد منهم ، وقف الباشا الكبير عند دخول جمال باشا المرسيني إليه وقال : تفضل يا باشا . صافحه ، ثم جلس على أريكة مقابلة له وقال : أوامركم يا سعادة الباشا !

- استغفر الله يا باشا ، هل أعلمت أنور باشا بموافقتي على تعيين مصطفى كال قائداً للقوات في المدينة؟

- نعم أعلمته يا سعادة الباشا .

- ليتك لم تستعجل الأمر .

- أنتم من أمرني بذلك يا سعادة الباشا .

خيراً إن شاء الله ، هل حدث تغيير ما ؟

- كلا كلا ، لقد اقترح أنور باشا تعيين مصطفى كال باشا قائداً للقوات في المدينة بدلاً عن عصمت ميرلاي لعدم كفاءة وخبرة هذا الأخير .

- وماذا يرمي من وراء ذلك يا سعادة الباشا ؟

- القصد واضح ، إن ارسال بطل أحرز انتصارات باهرة في حرب (جنق

قلعة) مثل مصطفى كال إلى هنا ، معناه التمهيد لاستلامه مكاني . أشارت كلمات الباشا هذه جمال باشا المرسيني ، فقال :

- لا أعتقد ذلك يا باشا ، إنكم تعلمون جيداً أن أنور باشا لا يجب

مصطفى كال ، بل يكرهه ، لذلك لن يعطيه منصباً حساساً ومهماً مثل

منصبكم يا سعادة الباشا . ثم لكي يتم تعيين مصطفى كال قائداً للجيش

الرابع لابد وأن أذكركم بأن هناك العديد من القادة المؤهلين الجديرين بهذا

المنصب . أحق منه به ، هذا الأمر لا يمكن أن يحدث .

- بل يمكن أن يحدث ، يمكن ، فأننا أعرف أنور باشا جيداً . ربما قصد أنور باشا بتعيينه مصطفى كمال باشا هنا ، التخلص منا ، نحن الاثنين ، أنا وهو معاً . رغم يقينه بأن مصطفى كمال ليس أهلاً لاستلام منصبي هذا .
ألا يعلم سعادة أنور باشا ، الوضع العسكري القائم هنا ، فنحن على أكل وجه من الاستعداد العسكري ، كما أن مؤننا وأرزاقنا كافية لجيشنا القائم هنا ، من يقوى على تحقيق هذا ، وسط الأوضاع التي تمر بها البلاد ؟ .

نحن لم ندع العدو ، والشكر لله ، يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام منذ شهر عديدة ، كما استطعنا حل مشاكلنا الداخلية في المنطقة .
- أجل يا سعادة الباشا ، أنا واثق من حسن تصرفكم راجياً أن لا تعطوا لتلك الأمور أهمية تذكر ، فجيشنا هنا بحمد الله بوضع جيد .

ساترك مقعدي لك فقط

- لا دخان بلا نار يا باشا ، يجب إفهام أنور باشا أنه في حال إرغامي على ترك هذا المكان يوماً ما ، فإني أتخلى عن هذا المقعد لشخص واحد فقط هو أنت يا باشا ، إن كان هناك أحد جدير بأن يحل مكاني فهو أنت .
لم يدر الباشا الصغير ما يفعل من شدة غيظه ، عند سماع هذه الكلمات فقال :

- يا سعادة الباشا ، إني أرغب أن أكون دوماً تحت أمركم والاستفادة من خبرتكم . فليد الله بعمركم وحكمكم ، فلم يخطر ببالي أن أكون بمرتبتكم أو أجرو على التفكير في شغل منصبكم يا سعادة الباشا .
لقد نذرت نفسي للعمل للوطن والشعب ، طالما أنا بيارتكم .
- أشكرك يا باشا ، حسناً ، دعنا نرى ما تحبته لنا الأيام .
- نعم يا سيدي ، فلننتظر ، فالزمن كفيل بحل كل المشكلات .
- يا باشا ، إن جهاز استخباراتنا لا يعمل بشكل صحيح .

فالانكليز والفرنسيون يخططون لشن هجوم على خطوط إمداداتنا بين اسكندرون وأضنة ولا علم لنا بذلك . ماذا تظن ستكون حالة الجيش على ضوء هذا الحدث .

هذه الاخبار من صنع الاستخبارات الانكليزية

فقال جمال باشا المرسيني :

لقد أُطلقت هذه الاشاعات منذ زمن بعيد في أوساط المدينة وهي تظهر إلى الساحة بين فترة وأخرى غير أننا لم نتأكد من حقيقتها. وإن سألتوني، فإنني أرى أن الانكليز والفرنسيين لن يقوموا بمثل هذا الهجوم مطلقاً . كل ما في الأمر، يريدون نشر الذعر والبلبله بين صفوف جنودنا ، ويجعلونهم يترقبون ما لن يحدث . فهذه القوات لا تستطيع الدخول من جهة أضنة - اسكندرون لأنها مغامرة عديمة الفائدة حيث ستقع قواتهم بين نارين ولايستطيعون التقدم أو التقهقر قيد شعرة ، كما أن قواتهم هناك بحاجة إلى دعم وطالما أن هذا الدعم لايمكن أن يصلهم الآن فلا يمكن أن يقوموا بمثل هذا الهجوم علينا هناك .

والانكليز يقصدون من وراء نشر مثل هذه الأنباء الكاذبة ، لفت انتباهنا إلى جبهة مزيفة . وأعتقد أن هذا النبأ قد دس من قبل أجهزة الاستخبارات الانكليزية .

- قد يكون الأمر كذلك، يا باشا، أنا أيضاً أشاركك الرأي ومع ذلك أعطى التعليمات لهيئة الأركان الحربية ، بضرورة ابقاء قسم من جيوشنا المتوجهة إلى جبهة بغداد ، للتحرك نحو أضنة، كما أرجو إعلام سليمان باشا ، قائد جبهة بغداد بهذه التعليمات واطلب منه أن يقوم ببعض التحركات والمناورات للفت انتباه الانكليز .

أما القوات التي تحت إمرتنا ، فلتبدأ هجومها على القوات الانكليزية.

سننتظر حتى نرى ما سيحدث في حرب غزة ، وبعدها سنتخذ التدابير اللازمة .

- كما تأمرون يا سعادة الباشا . سوف أقوم بإعطاء الأوامر والتعليمات اللازمة فوراً .

غادر جمال باشا المرسيني مكتب الباشا الكبير الذي بقى وحده يتابع أوضاع مؤسساته المختلفة .

سارة تلتقي مجدداً بالأمير فيصل

بينما كان جمال باشا منهمكاً في إيجاد حلول لمشاكل جيشه ، قامت سارة بزيارة الأمير فيصل في الفندق الذي يقيم فيه ثانيةً ، وسر الأمير فيصل بقدوم سارة غير المنتظر ، فقد كانت دائماً تسلك هذا المنهج مع الأمير ، وتزوره دون سابق انذار .

- أهلاً وسهلاً بك يا سارة .

- أهلاً بكم يا سعادة الأمير .

- ما أخبار قريتك ؟

ضحكت سارة ثم قالت :

- لقد قت بترويج إحدى صديقاتي ثم ذهبت لزيارة الجنرال اللنبي ، إنه يرسل لكم تحياته .

- هل أنتِ جادة فيما تقولين ؟ قال الأمير فيصل . وقد أشار هذا الكلام دهشته .

- أخبريني ، كيف استطعت الذهاب إليه ؟

- بكل سهولة فائقة يا سعادة الأمير ، إن كنتم ترغبون ، أستطيع

رسالكم إليه .

- أشكرك أشكرك ، وتأمل الأمير فيصل سارة برهة ثم قال في نفسه:

« يالها من شيطانة هذه الفتاة » .

- وكيف هي أمور الجنرال اللنبي ؟

- ممتازة ، يا سعادة الأمير .

إن والدكم على اتفاق تام مع الانكليز . حتى أن هناك وفداً انكليزياً توجه إلى المدينة قابل أحاكم . ولقد تم تأمين الأموال والأرزاق لكم ، كما تم الاتفاق مع والدكم على وضع فرقة من المقاتلين المسلمين تحت إمرتكم .
ففي حين أنكم ستقاتلون الأتراك في الداخل ، سيقوم الانكليز بإخراج هؤلاء الأتراك من البلاد وذلك بشن هجوم عليهم من جهة السواحل ، وعند انتهاء الحرب ، وافق الانكليز على إعطائكم الأراضي التي طلبتموها دون تأخير ولا معارضة .

سبق للانكليز أن واجهوا الأتراك في جنائق قلعة

يا آنستي ، بناءً على ما قلته لي الآن ، يبدو أن الانكليز قد غيروا سياستهم تجاهنا ... أقصد أننا بعد أن نُقتل سيأتي الانكليز ، ويمرون فوق أجسادنا لإعلان الدولة العربية الكبرى .

- لاسمح الله يا سعادة الأمير - قالت سارة . انكم تعلمون كم هم بليدون وباردون هؤلاء الانكليز .

- إنهم كذلك لكن عليهم أن يسرعوا ويتحركوا فوراً . وأريد هنا أن أذكرك أن المقاتلين الأتراك أشداء ، ففي الجبهات يتحول الواحد منهم من مقاتل إلى أسد كاسر ، فالجندي التركي يحمل في نفسه ايماناً عميقاً بعقيدته ، التي مفادها « إما أن أموت شهيداً أو أن أبقى حياً وأصبح بطلاً . » هذا ما يؤمن به الجنود المسلمون الذين يقاتلون أعداءهم ، ومن أجل هذا المعتقد يحاربون .

والانكليز ، هم أكثر الناس دراية وعلماً بقوة وشراسة المقاتلين الأتراك ،

حيث سبق لهم أن واجهوهم في جناق قلعة .

- أجل يا سعادة الأمير ، إني مقتنعة تماماً بما تقولونه ، وأؤيد رأيكم ، لكن إسمحوا لي بأن أعلمكم أننا نحن الموسويين لا نناضل من أجل مصلحة الانكليز ، بل من أجل حفنة التراب هذه ، ومن أجل إقامة دولة لنا ووطن لنا نحارب كبشر ونتحمل كل تلك التضحيات . وإلا لما أولينا تحرك الانكليز باتجاه الأراضي التركية أية أهمية .

- آنسة سارة ، إني أقدر موقفكم ومتفهم لقضيتكم ، وواثق من أنك تعملين وتجاهدين من أجل مساعدة اخوانك الموسويين أينما كانوا: فنحن وأنتم نعتبر جهة واحدة . لذلك علينا أن نتوحد ونناضل معاً لا لمصلحة الانكليز ، بل لمصلحة الطرفين ، العرب والموسويين . علينا أن نجري لقاءات ومشاورات ونتفق مع رؤسائكم حول هذا الأمر ، علينا إبرام اتفاق بينكم وبيننا يضمن لكم إقامة دولة موسوية على الأراضي العربية بعد جلاء القوات التركية منها ، فاعترافنا بوجودكم أهم بكثير من اعتراف الانكليز بحكمكم في التواجد في هذه المنطقة^(١) .

- معكم حق يا سعادة الأمير ، سوف أعمل على ترتيب لقاء بينكم وبين والدكم والقائمين على التنظيم الموسوي في فلسطين. لكن عليكم أن لاتنسوا أن احراز النصر في هذه الحرب منوط بالانكليز . فإذا تمسك الانكليز بهذه الأراضي ورفضوا الجلاء عنها ، فلن يكون لنا ولكم أية حقوق عليها . - ولا تنسي أيضاً ، انه إن لم نقف بجانب القوات الانكليزية فالنصر لن يكون حليفها .

- في تلك الحالة ، لابد من إبرام اتفاق ثلاثي بيننا .

(١) لاندري ، هل كان ذلك موقف فيصل بن الحسين ، شريف مكة ، علماً أن هذه الأقوال ، إن صحّت ، هي قبل صدور وعد بلفور ، عام ١٩١٧ ، بسنتين .

- طبعاً ، يمكننا أن نوقع على اتفاق مع الانكليز تكونون طرفاً ثالثاً فيه ، فبفضل جهاز استخباراتكم وبفضل إعلاننا العصيان في الداخل ، ستتمكن جيوش اللنبي من إجلاء الأتراك خارج البلاد ، في وقت قصير جداً . عند سماعها هذه الكلمات ، كادت سارة تطير فرحاً .

- اهنتك يا سعادة الأمير ، لقد فكرتم بإمعان وأصبتم .

سأدبر وأرتب اللقاء الأطراف الثلاثة لتوقيع اتفاق بيننا . وسوف يتم توقيع هذا الاتفاق فوق أراضيكم في المدينة .

ولكن ، متى سترحلون يا سعادة الأمير ؟

- في أقرب فرصة سأرحل ، يا سارة ، وبرفتي الاصلاحيون من سوريا ولبنان ، لقد أجريت اتصالات ورتبت أموري معهم .

ولكني سوف أبقى مدة قصيرة إضافية لانقاذ الموقوفين ثم أغادر فوراً .

- لئز ما سيقمره جمال باشا .

- لقد أعلمت أنور باشا بالموضوع ، كما أن والذي قد بعث إليه برسالة مطولة حوله ، كما علمنا بقدوم أنور باشا القريب إلينا هنا .

- سعادة الأمير ، ما رأيكم بأن تصطحبوا جمال باشا وأنور باشا عند قدومه إلى الحجاز بقصد اجراء تفتيش على القوات العسكرية ، وهناك تضعونها في الأسر ؟ عندها ، ستنتهي الحرب في غضون يومين لا أكثر .

عند سماعه لسارة ، اندهش الأمير بن الشريف حسين ، الذي أعلن منذ قليل موافقته على توقيع الاتفاق الثلاثي ، الانكليزي الموسوي العربي ، وقال :

- آنسة سارة ، إن الضيف الذي نستقبله أو ندعوه إلى بيتنا ، هو بجمائتنا ، فنحن لا نسمح لأحد بمس طرف شعرة من رأسه . وأنور باشا وجمال باشا بمثابة ضيوفنا عند زيارتهما للمدينة ، وحسب تقاليدنا فالضيف مصون عندنا وعلينا تقع مسؤولية حمايته وإكرامه . إننا نرفض القيام بما ذكرته ،

لأننا نساح من يظاً عتبة بيتنا ويطلب منا السماح ولو أكرم بحقنا .
فهما تكن خطط الانكليز ، نحن موافقون معهم ، ولكننا نرفض
تنفيذها على أراضينا . فلو حدث شيء من هذا القبيل فإننا سوف نقف في
مواجهة الانكليز وليس في صفهم ؟

سارة حاضرة في أمرها

تخبرت سارة في أمرها عند سماعها للأمير ، غير أنها راحت في نفسها
تتساءل ، هل يعلم الأمير فيصل بما أمر به الجنرال اللنبي ؟
ولكن كيف له أن يعلم ؟ فهي لم تنطق ببنت شفة لأي إنسان حول
هذه التعليقات وهذه الأوامر ، وأخيراً توصلت سارة إلى أن ما يقوله الأمير
مجرد تصورات واحتمالات من جانبه ليس إلا .
فقالت : سعادة الأمير ، نحن في حالة حرب ، ونواجه معركة بقاء أو
موت إننا مجبرون على أن نسلك كل السبل من أجل الشعب والوطن ، وما
ذكرته لكم ليس سوى فكرة وأنتم أحرار ولكم الخيار في قبولها أو رفضها .
- لاداعي لكل هذا يا آنسة يجب أن تبلغني الانكليز أن عليهم ، في أي
حال من الأحوال ، وفي معالجتهم لموضوع أنور باشا ، أن يبقوا بعيدين عن
أراضينا .
- كما تشاؤون وكما تأمرون يا سعادة الأمير .

المتمهونون ينقلون الأخبار

عند عودتها إلى منزل ليديا ، كان أول ما يجب على سارة أن تقوم به
هو نقل أحداث ومجريات لقاءها مع الأمير فيصل إلى الجنرال اللنبي ، بشأن
التخطيط لمؤامرة اغتيال أنور باشا .
كانت سارة توصل المعلومات والأخبار بكل سهولة ويسر ، بفضل

المتعاونين معها من أفراد شبكتها ، بالإضافة إلى العملاء الذين يقومون
بإيصال تلك المعلومات إلى الغواصة الانكليزية التي تبثها بدورها إلى قيادة
الجزرال اللنبى .

كان الوسطاء يعتمدون الحمام الزاجل وأحياناً يتركون الرسائل في
زجاجات على الشاطئ ، وكانت سارة تجيب على أسئلة وتعليقات القيادة
الانكليزية بالأسلوب نفسه وبالسرية القصوى .

لقد توصلت سارة ، بعد محادثاتها مع الأمير فيصل ، إلى أن هذا
الأخير مقتنع تماماً بقيام العصيان وتنفيذه ، غير أنه لا بد من بث الخوف
في قلب الأمير على الدوام لحثه على القيام بتنفيذ العصيان .

فأرسلت سارة ، رسالة مطولة إلى أحد المسؤولين والقياديين في شبكة
التجسس التي تعمل في القاهرة ، السيد وايزمان ، وطلبت منه الشروع
بإجراء اتصالات مع الشريف حسين في مكة ، ومحاولة وضع أسس تفاهم
معه. كما طلبت أن يسعى لتحقيق تفاهم مع العرب حول الاعتراف المتبادل
بينهم وبين الموسويين بالحقوق الشرعية لإقامة دولة موسوية على الأراضي العربية
بعد أن ينتصروا على العثمانيين ويقيموا دولتهم الكبرى .

التير . رجل كفو ذكي

أمضت سارة ، في منزل ليديا ، أسبوعاً حافلاً سعيداً برفقة جمال
باشا . وصلت بعده من التير في القاهرة رسالة ، أفقدت جمال باشا صوابه ،
من شدة فرحه لما احتوت في مضمونها .

كان التير قد أرسل للبasha معلومات هامة حول تحرك القوات
الانكليزية في غزة ، كما أرسل للبasha شرحاً لنقاط ضعف الجيش الانكليزي على
الجهة ، بشكل واضح وصرح . كما أعلمه بنية الانكليز والفرنسيين بمهاجمة خط
الامداد بين مرسين وأضنة واسكندرون .

من ناحية أخرى ، ذكر التير أيضاً للبasha أن العرب ينوون تنفيذ عملية اغتيال لأنور باشا في سوريا أو لبنان أثناء زيارته المرتقبة إليهما . وأرسل أيضاً قصاصات من المقالات التي تُنشر في الصحف المصرية وكلها تؤكد على أعمال البasha العظيمة وحسن تصرفه وأن الجيش والشعب يؤيده وراضٍ كل الرضى عن قيادته .

وفي إحدى الأمسيات قال جمال باشا لسارة التي كانت برفقته . في الحقيقة إن رجلكم التير هذا ، ذكي وكفو . لقد تمكن ، وفي فترة وجيزة ، أن يرسل لنا أخباراً مهمة ودقيقة ، كما طلبنا منه .

- إني مسرورة جداً لرضاكم عن التير وهذا من دواعي فخري واعتزازي .
- أرجوك يا سارة أن تخبري زوجته ، أنني تحت تصرفها ورهن اشارتها لأني طلب تحتاجه ، فنحن لقاء خدمات زوجها مستعدون لفتح أبوابنا لها .
- شكراً لكم يا سعادة البasha ، إن ليديا لا ترغب سوى في ارضائكم وتنفيذ مطالبكم وأوامركم .

عقد جمال باشا اجتماعه الأخير في مقر قيادته مع كافة ضباط وقواد الجبهات القتالية ، وتم وضع الخطط العريضة والأساسية لتحرك القوات التركية على ضوء المعطيات والمعلومات التي أرسلها التير في القاهرة لهم . فقد كانت الأنباء التي أرسلها التير والتقارير القادمة إلى القادة ، حول غزة متطابقة ، حتى أن التير كان قد عين لهم على خريطة عسكرية ، كافة النقاط الاستراتيجية للجيش الانكليزية في غزة الغربية ، ولقد دهش القواد لهذه المعلومات التي بين أيديهم .

هل هذه المعلومات صحيحة ؟

لكن علي فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني أبديا بعض الشكوك في صحة هذه المعلومات ، وأرادا تحذير البasha من مخاوف كون هذه المعلومات خطأ

لهم ، إنما لم يكن بين أيديهما ، أي دليل يثبت عكس ذلك . فالخرائط التي بحوزتهم صحيحة ومطابقة للتقارير التي وصلت لهيئة الأركان ، كما أنها توضح بشكل دقيق النقاط الاستراتيجية العسكرية للقوات الانكليزية .

ولكن ، رغم هذا كله ، لم تتبدد شكوك علي فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني حول صحة هذه المعلومات .

كما تم أثناء انعقاد الاجتماع هذا ، تحديد موعد وموقع وتاريخ بدء التحرك العسكري التركي ، وأجري التنسيق مع الألمان والنمساويين حول هذا القرار .

كانت المسؤوليات الكبيرة تقع على عاتق فوزي باشا (تشاقاق) و الباي أونونو فيما يتعلق بتنفيذ هذه الحملة ، فبناءً على ما تم إقراره ، كان على فوزي باشا التحرك بقواته باتجاه غزة الغربية ، بينما كان على عصمت مرلاي ، الاشتباك مع الانكليز ، وإشغالهم بفرقتة الخامسة والأربعين التي كانت بإمرته . أما القوات الاحتياطية ، فستنتظر حتى ترى ما ستسفر عنه تلك التحركات لكي تبدأ بالتحرك وتشارك القوات الأخرى عملياتها الهجومية .

وكما كان جمال باشا قد خطط لهذه الحملة ، بدأت القوات الالمانية والتركية بفتح النار على الجبهة في غزة ، وكانت معلومات التير التي قدمها لجمال باشا كلها صحيحة ومطابقة لتحركات هذه القوات وتمكنت جيوش جمال باشا في تدمير وسحق الجنود الانكليز في عدة جبهات من غزة . وكانت ساحات القتال مليئة بالقتلى والجرحى ، غير أننا لم نكن نعرف من الغالب ومن المغلوب .

ولكن ، وبعد يومين من دخول القوات التركية والالمانية القتال ، تحركت القوات الانكليزية براً وجواً وشنّت هجوماً ساحقاً على القوات التركية والالمانية المتواجدة على تلك الجبهات ، واستطاعت أن تشتت شمل هذه القوات

وتوقع بها خسائر فادحة .
أما فيما يتعلق بالقوات الاحتياطية التي كانت تنتظر في الداخل ،
للتحرك وفق معطيات المعارك ، فقد شن عليها الطيران الانكليزي غارات
مدمرة ، أبادتها كلها ، وأحرقت كل ألياتها ، وجعلتها هدفاً سهلاً للقوات
الانكليزية .

كيف علم الانكليز بخططنا

على أثر هذه الهزيمة الكبرى ، أصيب القادة الالمان وجمال باشا ،
بدهشة بالغة لا يعرفون لها سبباً .
وكان لعلي فؤاد باشا رأي آخر في اخفاق القوات الالمانية والتركية
وتغلب القوات الانكليزية عليها . فهو يعتقد أنه تم تسريب الخطط إلى
الانكليز عن طريق الالمان . لأن الخطط التي أرسلها التير كانت صحيحة تماماً .
أما الحقيقة المرة فتكن في أن الانكليز استطاعوا الحصول على هذه
الخطط العسكرية وكان لابد من كشف هذه الحقيقة ، ومعرفة كيف
استطاعت القوات الانكليزية الحصول عليها . وقرر علي فؤاد باشا كشف هذه
المؤامرة وملابساتها .
كان عدد القتلى من الجنود والضباط الأتراك قد بلغ ألفاً وخمسمائة
وعشرين قتيلاً ، وهذه خسارة غير متوقعة للقوات التركية .
ونتيجة لذلك ، وجه جمال باشا تقريراً مقتضباً للقادة الالمان يبين لهم
فيه أنهم كانوا السبب في هزيمة القوات التركية ، وكان كتابه موجهاً بشكل
خاص إلى قائد أركان القوات الالمانية فالكنهاين .
بينما وجهت قيادة أركان القوات الالمانية اتهاماً للقيادة التركية
تتهمها فيها بسوء تقدير الأوضاع والمعطيات العسكرية وتسببها في خسارة
القوات الالمانية ، عتاداً ورجالاً .

وهكذا ، كان الاتهام متبادلاً بين الطرفين ، وكل طرف يتهم الطرف الآخر ، فالقائد فالكنهين يتهم سوء تقدير جمال باشا . وجمال باشا يتهم القيادة الالمانية بأنها كانت وراء هزيمة جيوشه .
وأنور باشا يقوم بدور الوسيط بإبلاغ تلك الاتهامات إلى كلا الجانبين .
ولكن ، بغض النظر عن هذه الاتهامات ، فإن هناك واقعاً لا جدوى من البحث عن سببه ، ألا وهو أُلوف القتلى والجرحى الذين سقطوا في هذه المعركة ، وأن القوات التركية قد هُزمت ، ولم يكن أحد غير علي فؤاد باشا ينوي البحث عن سبب هذا كله .

علي فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني مندهشين حائرين .

بعد الهزيمة بيومين ، بدأ جمال باشا المرسيني وعلي فؤاد باشا تحقيقاتها حول تسرب الخطط العسكرية إلى الانكليز وتحديد هوية الفاعل .
ففي الاجتماع الذي عقده جمال باشا ، لم يكن حاضراً سوى القادة والضباط المسؤولين عن وضع خطط الحرب العسكرية ، كيف تسربت إذاً هذه المعلومات . أعاد فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني النظر في قائمة الضباط الذين حضروا الاجتماع الأخير ، دارت الشبهة حول ثلاثة أسماء أحدهم النقيب عارف حكمت وكان يعمل في رئاسة الأركان . أما الاثنان الباقيان فهما النقيب عادل والنقيب جواد أدهم .

وبعد سلسلة طويلة من التحقيقات علم فؤاد باشا وجمال باشا المرسيني أنه في ليلة ذلك الاجتماع ، اصطحب جواد أدهم بك المصورات والخطط العسكرية معه إلى منزله للتدقيق فيها بناءً على توصيات المجتمعين .
ولقد زارته في تلك الليلة فتاة نمساوية ، كانت تتردد كثيراً عليه ، وقضت معه سهرة حتى الصباح .

على أثر ذلك ، تم استدعاء جواد أدهم بك للمشول أمام علي فؤاد باشا

وعند وصول جواد أدهم ، ودخوله مكتب علي فؤاد باشا ، قال له هذا الأخير :
إنكم على علمٍ طبعاً ، أن آلاف الشهداء المسلمين قد سقطوا بسبب خطأ
تسببتم به .

أمام اتهام علي فؤاد باشا ، لم يعرف جواد أدهم بماذا يجيب ، ولكنه
اعترف أنه اصطحب معه المصورات والخطط العسكرية في تلك الليلة إلى
منزله وأن فايستر هايم ، تلك الفتاة النمساوية الحسنة ، كانت برفقته في
منزله في تلك الليلة حتى الصباح . غير أنه أقسم بشرفه العسكري بأنه لم
يتعامل مع هذه الفتاة بأي شكل من الأشكال ، وأنه لم يسلمها تلك
المصورات قط .

فقال علي فؤاد باشا ، لليوزباشي جواد أدهم : عليك بالتحقق بنفسك
من هذا الأمر ، وعليك اصلاحه بنفسك .
وتم اطلاق سراح اليوزباشي جواد أدهم .

قولي لمن بعث تلك المصورات .

وتوجه اليوزباشي أدهم إلى منزل ليديا مباشرة ، وطلب رؤية آنسة
فايستر واصطحبها معه إلى منزله . وبعد أن جلس معها قرابة الساعتين
يشربان النبيذ ويتسامران ، قال اليوزباشي لفايستر :

- المصورات التي سرقها مني ، لمن بعثها ، وم كم قبضت منها ؟
ارتجفت فايستر عند سماعها هذه الكلمات وكأنها أخذت حماماً بارداً .
وقالت لليوزباشي : أنا يايوزباشي ؟ أنا سرق منكم المصورات العسكرية ؟
- لا تنكري هذا يا آنسة ، كنت على علم بسرقتك للمصورات تلك ،
كما أنني أعرف أنكِ تعملين لصالح الاستخبارات الانكليزية ، يمكنك أن تطلي
مني ما تشائين من المصورات بعد اليوم ، لأنني أعشق المال كثيراً ، وأريد
الحصول على الكثير منه ... هل تستطيع شبكتكم دفع هذه المبالغ

الطائفة لي .

اعتقدت فايستر أن اليوزباشي صادق في كلامه ، فقالت له :
- مال يا سيدي اليوزباشي ؟ يمكنني أن أؤمن لكم ما تطلبونه من
الأموال .. كم هو المبلغ الذي تريدونه ؟ يكفي أن تحضروا إلي المصورات
العسكرية .

- حسناً ، كيف سيمنحك ايصال هذه المصورات إلى الانكليز ؟
- لا تقلقوا بهذا الشأن يا يوزباشي ، أعطني المصورات واترك أمر
ايصالها إلى الانكليز علي .

- حسناً يا آنسة ، كونك نمساوية ، هل تعملين مع الانكليز لمجرد
الحصول على المال ؟

- كلا يا يوزباشي ، أجابت فايستر ، أنا حقاً نمساوية ولكنني من أصل
موسوي أنا لا أتعاون مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية من أجل المال ، أنا
أعمل من أجل قيام دولة موسوية على هذه الأراضي ، التي سيعطينا إياها
الانكليز .

وفتح الباب فجأة ...

بعد نطقها لهذه الكلمات ، فُتح الباب فجأة ، وظهر البنباشي عارف
حكمت برفقة ضابطين ودخل الغرفة وصرح قائلاً : لا تتحركوا من مكانكم .
والتفت إلى اليوزباشي أدهم وقال :

- أيها العديم الأخلاق ، لقد وجهت إلي تهمة بسبب طمعك وجشعك
وسقط ألوف الشهداء من الضباط والجنود في ساحة المعارك بسببك ، لا
سامحك الله ، وليبتليك الله من عنده .

ولم يكد البنباشي ينتهي من لفظ كلماته هذه حتى سمع صوت طلق
ناري في الغرفة ، وسقطت الآنسة فايستر أرضاً مضرجة بالدماء التي كانت

تنزف من رأسها ، ووجه اليوزباشي جواد سلاحه صائغاً :
- لانتحرك يا بنباشي . لقد ارتكبتُ خطأً ، ولكنني مستعد لتحمل
نتائج خطي هذا . وسأعاقب نفسي بنفسي ، ثم وجه المسدس إلى صدره
وأطلق النار .

فأسرع البنباشي ومرافقوه إلى اليوزباشي جواد وحملوه وهو يحتضر
فسأله البنباشي :

تكلم يا جواد ، تكلم ، مع من تتعامل هذه الفتاة قل لي ، إلى أي
شبكة تنتمي . هل علمت شيئاً عنها ؟ فتم جواد أدهم وقال للبنباشي
عارف ، بينما كان هذا الأخير يمسح الدماء على صدر صديقه :
الموسويون ، ... الموسويون ... وكانت تلك كلماته الأخيرة التي لفظها .
ومات اليوزباشي جواد أدهم .

جواد أدهم كان ضابطاً شجاعاً

عندما نقل نبأ مقتل جواد أدهم إلى علي فؤاد باشا ، أمر هذا الأخير
بكتان الخبر ، وإبقاء السرية التامة في سير التحقيقات التي بدأت تأخذ
مجرأها .

وقبل موته لم يلفظ جواد أدهم سوى كلمة الموسويين . ولكن لم يكن
معلوماً ما قصده جواد إيتام بكلماته تلك ولم لفظها .

من ناحية أخرى كان علي فؤاد باشا غاضباً من البنباشي عارف .
فقال له : لم استعجلتم . لقد أمرتكم بتعقبه فقط لقد كان جواد أدهم
ضابطاً مقداماً وشجاعاً .

لقد كان جواد أدهم يعلم بسرقة المصورات ، وكان هو نفسه قد سمح
للفتاة بالقيام بسرقتها لكي يتوصل إلى معرفة من وراء هذه الفتاة .
لماذا تدخلتم هكذا بسرعة . كان عليكم فقط القبض عليه متلبساً .

فقال عارف بك :

- أرجو المعذرة يا سعادة الباشا . لقد توالى الأحداث بسرعة فائقة في تلك اللحظة ولم نكن سبباً في انتحار جود أدهم أو تصرفه عند إطلاق النار وكان ذلك مفاجأة لنا .

- الأمر أفضل هكذا ، ولكنني لأريد أن يعلم أحد بما حصل .

يجب أن يعلم الناس أن الحادثة كانت بين جواد وعشيقته ، فلقد قتل جواد عشيقته وقتل نفسه بعد ذلك ، هذا ما عليكم ترويجه وافهامه للناس . لا أريدكم أن تذكروا لأحد أن جواد أيتام قد قتل فتاته لأنها سرقت منه المصورات العسكرية التي كانت بحوزته .

هل هذا مفهوم ؟

وفي اليوم نفسه ، وجّه علي فؤاد باشا دعوة لمتصرف مدينة القدس مدحت بك ومدير أمن المدينة عارف ابراهيم للمجيء إليه في مكتبه . وعقد معها اجتماعاً حضره بعض ضباط جهاز الاستخبارات التركية وجمال باشا المرسيني .

وفي تلك الأثناء ، لم يكن جمال باشا المرسيني يكف عن تقديم الشكاوى بحق الفتيات العاملات في الخانات ودور اللهو المنتشرة في مدينة القدس ولكن دون جدوى .

فلم تكن لديه حجة مقنعة ، ولامبرر ولا دليل يستند عليه ، لابعادهن عن المدينة . أما الآن ، فبانتحار جواد أيتام ومقتل الأنسة فايستر ، أصبح جمال باشا المرسيني ممسكاً بطرف الخيط الذي سيوصله إلى كشف هوية وحقيقة الفتيات وسيتمكن من ابعادهن عن المدينة .

وكانت هذه الأحاسيس وهذا الموقف باديةً بشكل واضح عليه في مستهل الاجتماع ، قال علي فؤاد باشا : إخوتي ، إن وقوع المصورات المتعلقة بالحملة على غزة الغربية وبأدق تفاصيلها ، حقيقة مرّة لا بد من الاعتراف

بها. غير أننا ، نحن أيضاً كنا على علم بخطط العدو الهجومية . لكن العدو كان يعلم أكثر مما نعلم وكانت لديه معلومات تفوق المعلومات التي كانت بحوزتنا .

إن الهجوم الذي تعرضت له قواتنا الاحتياطية لأكبر دليل على معرفة العدو بأدق تفاصيل خططنا الحربية وترتيباتها .

لقد ارتكب اليوزباشي جواد أدهم خطأ فادحاً عندما اصطحب معه تلك المصورات إلى منزله بقصد التدقيق فيها ، وعرضها للسرقة من قبل الأنسة فايستر التي كانت بصحبته .

لقد أثبتت تحقيقاتنا صحة هذه المجريات . ولكن للأسف، اليوم اليوزباشي أدهم والجاسوسة فايستر قد ماتا .

وبناءً على هذه المعطيات ، فإننا لا نملك حالياً أية تصورات يمكننا اعتمادها تجاه ما حدث .

غير أنني سأتوجه حالياً ، بالرجاء ، للشرطة المحلية ، للسيد المتصرف مدحت بك ، ومدير الأمن عارف ابراهيم بك . إن المساعدة والتعاون مع الاستخبارات العسكرية أمر ضروري . فنحن نجهل ما يفعله العديد من الغرباء في مدينتنا ، بصحبة ضباطنا وجنودنا .

غير أنني أعتقد ، أن مدير الأمن عارف بك سوف يتمكن من مساعدتنا لكشف مآرب وأهداف هؤلاء الغرباء .

على سبيل المثال ، سوف نكشف قريباً ، أين كانت تعمل الأنسة فايستر ومع من كانت تتصل ، وما هي الأعمال التي كانت تقوم بها ، وسوف نستطيع بذلك التعرف على شبكة التجسس تلك ، ونتوصل لمعرفة من يديرها ، ومن هم أعضاؤها .

في تلك الأثناء ، لم يستطع جمال باشا المرسيني ، كبح جماح غضبه وثورته ، واخفاء شكوكه حول هؤلاء الغرباء ، فقال : أيها السادة ، اليوم في

القدس ، العديد من الفتيات يصاحب الضباط الأتراك والامان ، ونحن نجهل هوية هؤلاء الفتيات الأجنيات .

إنهن ، وأرجو معذرتكم ، مومسات ، فاحشات ، ولاندرى إن كنّ جاسوسات . أرجو من السيد عارف ابراهيم بك العمل بسرعة على كشف هوية هؤلاء الفتيات ، علينا اعتبار هذه الدور المنتشرة في أنحاء المدينة على أنها مراكز للنشاط التجسسي ، أليست حادثة جواد أدهم دليل قاطع على صحة تكهناتي .

لقد بحثت الأمر شخصياً مع سعادة الباشا الكبير ، وأمرني آنذاك ، بطرد هؤلاء الفتيات خارج المدينة عند ثبوت التهمة عليهنّ وعدم رغبتنا بوجودهن في المدينة . أرجو ، بناءً على ذلك ، من الشرطة المحلية ، أن تعطي وتولي هذه الناحية اهتماماً خاصاً .

وبعد الاجتماع توجه متصرف المدينة مدحت بك ومدير الأمن عارف ابراهيم مباشرة إلى دار الحكومة .

وفي دار الحكومة ، قال مدير الأمن لمتصرف المدينة .

- سيدي المتصرف ، سأتمكن من القبض قريباً على كل الجواسيس العاملين داخل هذه المدينة ، إني واثق من ذلك . سأكشفهم الواحد تلو الآخر ولكن علي تشكيل مجموعة من العاملين بإمرتي لتنفيذ هذا الأمر .
- تم بدراسة الوضع ، وقدم لنا كل احتياجاتك وسوف نعمل على تأمينها لك ، لاتقلق بهذا الشأن .

- سيدي ، أريد أربعين فرداً ، من أهل الثقة ، وليس لي طلب آخر .
- حسناً ، اجمع هؤلاء الرجال ، وأنا سأقوم باصدار أمر تعيينهم .
من ناحية أخرى ، فإني سأدعمك بكل الوسائل المادية والمعنوية التي تحتاجونها ، يا عارف ابراهيم بك . كما أنك تستطيع الاعتماد على عناصر الشرطة التي تحت أمرتي ، أعلمني بالوضع ، كلما سنع لك ذلك ، وسوف أقوم

بطلب احتياجاتكم من سعادة الباشا .
سر عارف بك جداً من هذا الوضع . وتوجه على الفور إلى مكتبه
ليعد قائمة بأساء أربعين شخصاً معتمداً للعمل تحت امرته بناءً على توصيات
متصرف المدينة .

في تلك الأثناء ، كان جمال باشا في مكتبه ، حزيناً لما يسمعه عن
أحوال جنوده في الجبهات . فأغلب هؤلاء الجنود مصابون بالأمراض ، منها
التيفوئيد ومنها الدزنتاريا ، والجوع كان يفتك بهم ، فكان قلبه يكاد ينشط
لهذه الأنباء الحزينة .

لذلك ، كان جمال باشا يرفض استقبال أي إنسان في مكتبه ، فهذه
الأحداث قد مست كرامته وشرفه .

عندما قرر جمال باشا القيام بعملته الثانية إلى القناة ، كان يتصور
أنه سيتمكن بقفزة واحدة من اجتيازها ، حتى أن بعض ضباطه ، كان
متحمساً جداً لهذه الحملة وينتظر بفارغ الصبر صدور الأوامر إليه بالتحرك .
فالجُمُيع كانوا ينتظرون ويتوقعون أن يحتل جمال باشا القناة ، ثم
يجتازها متوجهاً إلى مصر ، والضباط يتزاحمون على الاشتراك في هذه الحملة ،
لنيل شرف النصر فيها .

أما إذن ، فأحلام هؤلاء الضباط بددها الرياح ، ومن استطاع
الخلاص والنجاة من أرض المعارك ، كان بطلاً .

نحو إعلان حركة الخلاص العربية

كان جمال باشا جالساً وراء مكتبه ، يفكر ملياً ويستعرض الأحداث التي مرت . والحدث الأهم في كل ما جرى ، استلامه لرسالة من أحد اصدقائه في استنبول طفق الكيل لما احتوته من أخبار سيئة .

في الرسالة التي أرسلها له صديقه ، نقل إلى جمال باشا فيها أقوال طلعت باشا ، التي أدلى بها أمام مجلس أعضاء حزب الاتحاد والترقي أثناء انعقاد اجتماع له ، حيث سُئل طلعت باشا عن سبب إفاد جمال باشا إلى هذه المنطقة العربية ، فكان رد طلعت باشا كالتالي .

« ماذا يسعنا أن نفعل ، كان لابد من إبعاد جمال باشا . لقد تقرر إرساله إلى تلك المنطقة . إما ليسقط شهيداً ، وإما نتيجة للعجز والفاقة التي يعيش فيها ويرزح تحتها جيشه ، سيرى نفسه مغلوباً وسينتحر بطلقة مسدس في رأسه . هذا ما ارتأيناه .»

أعاد جمال باشا قراءة هذه السطور مراراً ، وكان مندهشاً للطريقة التي يفكر بها قادة هذه الامبراطورية . فهذه الكلمات لم تخرج من فم إنسان عادي ، إنما من أحد كبار شخصيات القيادة التركية في استنبول .

وظلعت باشا ليس إنساناً عادياً فهو يعلم ما يقول. كيف لقائد يقود الامبراطورية ويحكمها أن يفكر بمثل هذه الطريقة ؟

الحكومة إذن على علم بالآوضاع الوخيمة التي تسود هذه المنطقة قبل إرساله إليها. كما أن إرساله إلى هذه المنطقة كان بهدف أن ينتحر عند مواجهته لها .

« مسكين هو الشعب التركي ، مسكينة أنت أيتها الامبراطورية العثمانية انظري إلى ما آلت إليه حالتك ومصيرك » كان جمال باشا يفكر في نفسه ويردد هذه الكلمات .

وبينما كان مستغرقاً في تفكيره هذا ، قرع باب الغرفة ، ودخل الخادم وقال : مفتي الجيش السيد أسعد الشقيري يريد مقابلة شخصكم يا سعادة الباشا .

فرجع جمال باشا رأسه ، كمن كان يحلم وقال للخادم : فليتفضل ... فليتفضل ...

كان جمال باشا يحب المفتي الشقيري ويعتمد عليه كثيراً .
فاستقبل المفتي بوجه بشوش قائلاً :

- تعال إلي يا سيد شقيري ... لم يكن الشقيري قد قابل جمال باشا منذ هزيمة معركة غزة الغربية لقد أتى إليه ليواسيه قليلاً ، وليسمع منه أنباء وتفاصيل هذه الهزيمة التي مني بها الجيش التركي .
وجلس جمال باشا بالجهة المقابلة لمكان جلوس الشقيري .

- قل لي ، ما هي الأخبار ؟

فرد المفتي قائلاً : الأخبار سيئة جداً يا سعادة الباشا ، وإني لا أجروء على لفظها ، ولكن ، لمصلحة الوطن ، ومصالحكم ، لا بد لي من أن أذكرها لكم .

لقد انطلقت حركة الخلاص يا سعادة الباشا

إندهش جمال باشا قليلاً لما سمعه من المفتي ، وسأل نفسه ترى هل

هناك أخبار سيئة جديدة يحملها هذا الرجل ؟ على كل حال مهما كانت هذه الأخبار تعيسة فلن تكون أسوأ من خبر الهزيمة التي منينا بها . فقال المفتي :
- طبعاً بإمكانك أن تخبرني ما تريد يا مفتي ، قل كل ما عندك دون تردد ، أنت تعلم أنني أحبك وأثق بك وأعتمد عليك .

- شكراً يا سعادة الباشا ، إني أسعى دوماً لأن أكون أهلاً لثقتكم بي .
- قل لي ، ماذا حصل ؟

- سيدي ، لقد انطلقت حركة الخلاص العربية بشكل علني . فلقد اجتمع كافة الاصلاحيين ، وقرروا مساندة الانكليز والفرنسيين ، وعزموا على النضال في سبيل اجلاء الأتراك عن الأراضي العربية ، واتفقوا مع الانكليز والفرنسيين حول هذا الأمر .
- إن هذا يؤكد صحة شكوكنا ، علينا إذاً الحذر وعدم الوثوق بوعود هؤلاء العرب .

- مع الأسف ، الأمر كذلك يا سعادة الباشا .
لقد ذكر لي النائب كامل الأسعد بك ^(١) هذا الأمر ، وهو كما تعلمون في صيدا ، نائب سابق لمدينة بيروت .

كما ذكر أيضاً أن نائب بيروت رضا الصلح قد اتفق مع زعيم الاصلاحيين عبد الكريم الخليل ، قبل عدة أيام ، على أن يقوموا بجولة في صيدا وصور ويدعوان المواطنين فيها إلى الانضمام إلى حركة الخلاص العربية ، ولقد قاما فعلاً بزيارة هاتين المنطقتين ، قرية ، قرية ، بلدة ، بلدة ، دون استثناء .

(١) من كبار زعماء جبل عامل ، اتصل بجمال باشا وأفشى له أسراراً عن حركات ونشاط رضا الصلح وعبد الكريم الخليل ورفاقهم في جنوب لبنان ، والمعروف أن رضا الصلح من صيدا وعبد الكريم الخليل من صور . إن وشاية كامل الأسعد لم تكن سوى محاولة من قبله لإبعاد منافسيه السياسيين ، وبذلك يكون قد خان رفاقه العرب لصالح جمال باشا .

وفي سوريا ، انطلقت حركة ضد الاحتلال ، لذلك ، يجب اتخاذ التدابير اللازمة لحسم هذه الأمور ومحاصرتها يا سعادة الباشا .

انكم تعلمون مدى فعالية هذين الشخصين ، ومدى نفوذهما على الناس يا سعادة الباشا .

- أجل ... أجل ... سوف أمر بتوقيفهما حالاً .

- إن تقدير الموقف عائد إليكم يا سيدي !

ضغط جمال باشا على زر وقال للخادم الذي دخل الغرفة : ابرقوا فوراً إلى حاكم الشام خلوصي بك ، وإلى حاكم بيروت عزمي بك بما يلي : « نرجو منكم توقيف نائب مدينة بيروت رضا بك الصلح وعبد الكريم خليل وتسليمهما إلى ديوان محكمة الحرب في عاليه فوراً »

بعد أن كتب الخادم برقية جمال باشا كما أملاها عليه خرج من الغرفة ، والتفت الباشا إلى المفتي وقال :

- سيدي العزيز ، يجب توقيف كل هؤلاء ، وشنقهم لم يبق لنا حل سوى هذا .

- إنكم على حق يا سعادة الباشا ، أجب المفتي الشقيري .

فقال جمال باشا متابعاً كلامه :

- هؤلاء أناس لا يفهمون ، فكما كانت معاملتنا معهم حسنة قابلونا بالسوء . وأنت أدري الناس بحسن معاملتنا لهم . ولكن مع الأسف فإنهم لا يفهمون ذلك .

- معكم حق يا سعادة الباشا !

وما موقف الأمير فيصل من هذه الأحداث ؟

هل هو على علم بقرار هؤلاء السوريين ؟

- أجل يا سيدي .

- وهل ينوي العصيان هو أيضاً والانضمام إلى هؤلاء ؟

- لأستطيع أن أقول شيئاً في هذا الأمر يا سعادة الباشا ! إنما يمكنني القول أن الأمير فيصل عميق التفكير ويعرف كيف يتصرف في مثل هذه المواقف ، غير أنه حزينٌ قليلاً لاعتقالكم العديد من العرب الذين وجدتم أساءهم في القنصلية الفرنسية .

- إن كان حزيناً فليمنع هذه الاهانات !

- الأمير فيصل لا يستطيع أن يسيطر على الاصلاحيين في بيروت والشام ، فلا سلطة له عليهم .

- أنا أسيطر عليهم ، لاتقلق لهذا الشأن . سوف أشنقهم جميعاً وسوف يرون كيف يكون عقاب من يتعاون مع الانكليز والفرنسيين .
فلنرحل إلى الشام هذا الأسبوع يا سعادة المفتي ، أخبر الأمير فيصل بأننا سنتوجه إلى الشام هذا الأسبوع .

يطالبون بالعفو عن المعتقلين

عند وصوله إلى الشام بعد مضي أسبوع ، كان رجال الدين والعلماء والمشايع قد اجتمعوا وطلبوا من جمال باشا تحديد موعد للقاءهم . فطلب منهم اختيار ثلاثة شخصيات يمثلونهم ، ووافق على مقابلتهم .
كما أعلمهم بقراره بتقديم كل المعتقلين إلى المحاكمة ، ولكن ، رغم توسط الشيوخ ، ورؤساء القبائل والأمير فيصل بالذات لدى جمال باشا للعفو عن هؤلاء المعتقلين ، ورغم قرار أنور باشا بإعادة النظر في قائمة الموقوفين ، إلا أن جمال باشا ضرب بعرض الحائط كل هذه المساعي ونفذ أول اعدام في صباح الخامس من أيار عام ألف وتسعمائة وستة عشر^(١) .

(١) يوجد فرمان في متاحف استنبول يحمل تصديق الباب العالي على أحكام الاعدام التي صدرت عن محكمة عاليه العرفية مقروناً بتواقيع وأختام دار الفتوى في استنبول . ومن هنا ، يمكن القول إن المسؤولية لا تقع على جمال باشا وحده ، كما يفهم من قول الكاتب .

الجثث المعروضة

في السادس من أيار عام ألف وتسعمائة وستة عشر، كان القادمون من العراق يرون في ساحة المرجة في الشام وساحة اليرج في بيروت، جثث الذين نفذ جمال باشا حكم الاعدام فيهم ، وعرضهم من الصباح حتى المساء .
أحدث قرار الاعدام هذا، بلبلة كبيرة في صفوف المواطنين العرب .
ولم ترحب الدول الأجنبية ولا الحكومة العثمانية بقرار جمال باشا هذا ، الذي لم يميز أحداً ولم يكن قراراً منطقياً .

علاوة على ذلك ، فالذين أعدمهم جمال باشا كانوا ينتسبون إلى عائلات مرموقة ومعروفة في البلاد العربية ، أما الذين أعدمهم جمال باشا وبكاهم العالم العربي أياماً وشهوراً فكانوا: عبد الحميد زهراوي ، شفيق المؤيد العظم ، شكري العسلي ، عبد الغني العريسي ، سيف الدين الخطيب ، محمود الحمصاني ، محمد الحمصاني ، صالح حيدر ، عبد الوهاب الانكليزي، رفيق رزق سلوم ، عمر حمد ، الأمير عارف الشهابي ، عبد الكريم الخليل ، شيخ أحمد طيارة ، علي عمر النشاشيبي، حافظ السعيد ، محمود العجم ، نايف تلولو ، سليم الحمد ، سليم الجزايري ، أمين لطفي ، عبد القادر الحرسا ، محمد الشنطي ، جرجي حدّاد ، سعيد عقل ، بيترو باولي ، نور الدين القاضي ، توفيق البساط، الأمير عمر عبد القادر الجزايري ، عمر مصطفى ، رشدي الشمعة ، جلال سليم البخاري ، محمد حافظ .

أما الذين صدر بحقهم قرار الاعدام ولاذوا بالفرار فكان من بينهم :
رفيق العظم ، حقي العظم ، شيخ رشيد رضا ، داوود بركات ، فارس نمر ، دكتور شبلي شميل ، خليل المطران ، ابراهيم النجار، جورج عبد المسيح، جبرائيل ناصيف ، نجيب بك عازوري ، الفريد عازوري ، جورج بحري ، عزيز بحري ، الأمير خليل أبو اللمع ، خليل بولاد ، هنري سّتان ، نجيب قسّان ،

نجيب قريصاني ، جورج دوماني ، جورج قريصاني ، جورج خير ، أمين البستاني ،
رزق الله أرقش ، نعمة الله غانم ، يوسف صموئيل ، ميشيل لطف الله ،
الأمير أمين مجيد أرسلان ، شيخ يوسف الخازن ، رشيد خياط ، أدمون
ملحمة ، دكتور خليل مشاققة ، يوسف سمعان ، الياس حنين ، سليم شميل ،
ماريوس شميل ، يوسف حبيب زناني ، الياس زهار ، الفونس زينية ، فؤاد
الخطيب ، قسطنطين يتي ، حسن حمادة ، عبد الحفيظ بن محمود حسن ، رزق
الله أرقش ، سليم ثابت ، عزت العابد ، شكري غانم ، عزيز المصري ،
وآخرون معروفون في البلاد العربية وآخرون أيضاً غير معروفين كانوا من
بينهم .

وكان هناك حكاية آخر بإعدام ثلاثة وستين علاوة على الذين نفذ بهم
حكم الاعدام ، وكأنا بات جمال باشا يحارب العرب ، ونسي حربه مع الانكليز
والفرنسيين ، وفتح معهم جبهة قتال واسعة ، فكل من كان يُشتبه به ، كان
يُعدم نفسه في اليوم التالي موقوفاً .
وانتشر المجرع والمرض والسفالة في شوارع الشام وبيروت ، وكان جمال
باشا يرسل إلى الاعدام كل من يعتقله دون تردد أو تفكير .

سارة مسرورة

كانت سارة سعيدة جداً بما كان يحدث . فجبال باشا يصدر كل يوم قرار
إعدام جديد ، وفي المساء كان يأوي إلى فندق قصر الشام برفقة فتاته ليحضي
أجمل الليالي .

أما الأمير فيصل ، فلم يعد يتحمل قرارات الإعدام هذه ، فوجد
فرصة سانحة وهرب إلى مكة .

وعقد الشريف حسين وأولاده فيصل وعلي وعبد الله وزيد اجتماعاً
قرروا فيه على ملأ من الناس إعلان العصيان العام بوجه قائد الجيش الرابع

جمال باشا ورفعوا علم هذا العصيان عالياً .

الموة بين الأتراك والعرب تزداد عمقاً

بعد اعلان العصيان ، بدأ الشريف حسين بمهاجمة الأتراك في الأوساط الشعبية ، فراح يعلن أن حزب الاتحاد والترقي بعيد عن تطبيق مبادئ الإسلام وأن المسلمين منه براء ، لأن من يرضى بإعدام المسلمين ، ليس مسلماً ، بل هو سفاح .

وهكذا تجسدت الصداقة العربية الانكليزية بعد أعوام طويلة من الانتظار ، خاصة بعد إعدام جمال باشا للعرب الموقوفين .

وهكذا حققت سارة نصراً كبيراً في هذا المضمار . وإثر إعلان الشريف حسين العصيان قررت الحكومة العثمانية عزله وإحلال الشريف علي حيدر مكانه ، أميراً على مكة .

وبدأ الشريف حسين ، بمساعدة الجنود المسلمين القادمين من الهند والجناسوس لورانس ، الذي يعمل في البلاد ، بشن حرب داخلية ضد القوات العثمانية ومصالحها .

فبدأت الخطوط الحديدية التركية تتعرض لعمليات تخريب واسعة ، كما تعرضت شبكات الاتصالات الهاتفية والبرقية للنسف والتدمير ، وتعرضت أيضاً الدوريات التركية إلى هجمات وكائن عديدة .

مصطفى كمال يصل إلى الشام

وهكذا أصبحت الجبهة في حالة يرثى لها . وكان جمال باشا مندهشاً ومتوتراً من جراء ما يحدث هنا وهناك ، يقضي معظم أوقاته في التنقل من مدينة إلى أخرى ، فتراه يوماً في بيروت ويوماً في القدس ويوماً في الجبهة وتارة يعود إلى الشام .

في حين كانت سارة تحاول بمساعدة أعضاء شبكتها ، إنزال الضربات

الموجعة في صفوف الأتراك وتحضر لهم الهزائم والنكسات .
وكانت سارة تمنح الحماية والمال لكل الجنود الفارين من الجبهات عرباً
كانوا أم أتراكاً وتؤمن لهم كل وسائل الاستقرار والهرب من الجبهة .
في حين كان جمال باشا يعدم كل جندي فار من الجبهة يتم القاء القبض
عليه . لكن قرارات الإعدام هذه مع الأسف لم تكن تحم من مشكلة فرار
جنوده من الجبهات .
أثناء هذه الفترة ، وصل مصطفى كال باشا إلى الشام ، وكان وصوله
أشبه بوميض أمل ، فالكل كان ينتظر منه شيئاً جديداً ويترقب حدوث شيء
جديد على يديه .
زار مصطفى كال الجبهة في فلسطين وتفقد القوات العسكرية المتواجدة
هناك ، ودقق التفتيش في كل المناطق وتوقف في كل موقع على حده وأمعن
النظر في أحواله وتجهيزاته .
وكان ما شاهده على تلك الجبهات قد سبب الألم والحزن في داخله .
فالقوات متفرقة ، مفككة ، وقد تدنى مستوى تجهيزاتها وقناها .

مصطفى كمال يتعرف على سارة

في فندق قصر الشام التقت سارة بعلي فؤاد باشا وقالت : سيدي
الباشا ، أنا أيضاً أرغب في التعرف على مصطفى كال باشا .
- طلبك لا يُرد ، لقد دعوت اليوم مصطفى كال باشا لتناول العشاء ،
يمكنك الحضور وتناول العشاء معنا .
نزلت سارة إلى العشاء تلك الليلة مرتدية لباساً شفافاً وبراغاً ، لفت
انتباه كل الحاضرين .
وكان الصالون مضاًءً بالشموع لانقطاع التيار الكهربائي ، ومرت سارة
من الصالون باتزان ووقار من جانب إلى جانب آخر ، واقتربت من الطاولة

الذي يجلس عليها مصطفى كال باشا وعلي فؤاد باشا في زاوية الصالون .
فنهض علي فؤاد باشا لتحياتها حين رآها ، التفت إلى مصطفى كال
باشا : سيدي الباشا ، لوتكرمتم وسمحتم لي ، سأعرفكم على أجمل فتاة في
هذا العالم . فنهض مصطفى كال باشا ، وحدث النظر بعينيها ، وصافحها
قائلاً: أهلاً وسهلاً بك يا آنسة .

- أقدم إليك بطل جناق قلعة ، مصطفى كال باشا ، يا آنسة سارة .
- لقد سررت جداً يا سيدي ، إن جمال باشا يمدحكم طوال ذكره لكم
ولقد طلبت منه مراراً التعرف عليكم .
وكان مصطفى كال ينظر بدقة ويراقب تصرفات وكلام سارة .
فقال لها : أشكرك يا آنسة .

وشربت سارة نبیذاً كثيراً في تلك الليلة ، والتفتت إلى علي فؤاد باشا
بحركة أنثوية لينة وقالت : للأسف ، فإن القائد مصطفى كال سيغادرنا ويرحل
إلى مكة حيث البادية والصحراء ، هل يُعقل هذا ؟
فرد عليها مصطفى كال : إن كل شبر من وطننا أرض مقدسة
بالنسبة لنا يا آنسة .

- نعم ، أفهم قصدكم يا سعادة الباشا . فإن قائداً مثلكم يجد متعة في
التنقل من جهة إلى أخرى . أما وأنكم قائد ينتقل من نصر إلى آخر ، فكيف
لكم أن تقبلوا هذه المهمة ، اني لا أستطيع تخيل الأمر . فأننا أجدكم تهيئون
نفسكم بقبولكم الذهاب إلى مكة ، حيث الصحراء والجوع والمرض والجيش
المتقهقرة ، لكي تسحبوا هذه الجيوش وتعيدوها إلى الداخل .

شر مصطفى كال لسماعه هذا لكن هذا الموضوع بدأ يُشغل باله . فقال
لسارة : أرى أن الآنسة مامة بالأمر العسكري بشكل جيد .
كان مصطفى كال يعلم أن سارة عشيقة جمال باشا ، فقد أخبره علي
فؤاد باشا بذلك قبل دعوته له إلى العشاء .

لم تعر سارة لكلام مصطفى كال باشا أي اهتمام ، وتابعت تقول :
- سعادة الباشا ، لاتنسوا أنني أنا أيضاً أعمل إلى جانب جمال باشا ،
مثلي مثل ضباطه المساعدين . فأرجو معذرتي لتكلمي عن بعض الأمور
التي أعرفها منه .

كان مصطفى كال شاردأً في النظر إلى عيني سارة تحت ضوء الشموع
المتلألئة ، وبعد برهة سألها :

- يا آنسة ، إن التراجع والانسحاب يعتبر أحياناً نصراً ، أليس كذلك ؟
فقلت سارة مندفعة : كلا ، يا سيدي ، لا يمكن للانسحاب أن يحقق
للقائد أي نصر ، الانسحاب هو الانسحاب . والتراجع هزيمة ومصيبة . فإلى
أين ستقودون جيشكم الجائع ، العطشان ، المنهك ، يا سعادة الباشا ؟ ترى إلى
أي جهة ستسوقونه وهو في هذه الحالة المزرية ؟

وأود أن أذكركم أن قواداً مثل نابليون وقيصر كانوا ضحية مثل هذا
التراجع . انكم مؤهلون لقيادة حملة تنتصرون فيها وليس لتهزموا بها .
دهش علي فؤاد باشا لساعه حديث سارة بقدر ما دُهِش لها مصطفى
كال ، بل أكثر ، وفكر علي فؤاد باشا وقال في نفسه ، « ربما طلب جمال باشا
من سارة التحدث بهذا الشكل إلى مصطفى كال باشا » .

وكان علي فؤاد باشا يعلم بعدم رغبة وترحيب جمال باشا بقدوم
مصطفى كال إليه ، وفي تلك الآونة ، كان جمال باشا في مدينة القدس .

هل ترغب سارة الابقاء على مصطفى كال باشا إلى جانبها ، حتى
تحدث معه هكذا ؟ سأل علي فؤاد باشا نفسه .

ولم يستطع علي فؤاد باشا الوصول إلى نتيجة وقرار حول هذا الأمر .
في حين ، اقتنع مصطفى كال بكلام سارة ، وأخذ على محمل الجد ،
وأحاطه بالأهمية والجدية ، وكان يرى كلامها منطقيًا .

فسأل نفسه : ألا يوجد قائد آخر غيري يمكنه القيام بهذه المهمة التي

أوكلت إلي .

لقد أعلن الشريف حسين العصيان ، ورجاله يقتلون دورياتنا العسكرية ويهاجمونها في كل مكان : فكيف له أن يقود جيشاً جائعاً منهكاً، مهزوماً وسط صحراء تمتد مئات الكيلومترات من مدينة مكة إلى جبهة فلسطين أو جبهة الشام ؟ خصوصاً وأن الخطوط الحديدية لم تعد آمنة إطلاقاً. والأهم من ذلك كله ، لم يكن مصطفى كمال يرغب في أن يكون عدواً لحاملي راية الاسلام في مكة ، ولم يكن يرغب بالعمل تحت إمرة جمال باشا .
لجمال باشا قائد جيش ، ومصطفى كمال أيضاً قائد جيش ، فكيف لقائد جيش أن يعمل تحت إمرة قائد جيش آخر ؟

ومن ناحية أخرى لم يكن جمال باشا في وضع مُرضٍ مع حلفائه الألمان. باختصار ، لم يعد أحد يساند جمال باشا باستثناء سارة . حتى علي فؤاد باشا، شكى إليه أمر جمال باشا وتصرفاته عند حديثه معه الليلة ، لم ينم مصطفى كمال في تلك الليلة من شدة التفكير . فلقد كان متردداً في قبول منصب قائد مدينة مكة ، فبدأ يمضي وقته بتفحص التقارير القادمة إلى مكتب جمال باشا وقراءتها والإطلاع عليها . فهو من ناحية ، يدرس الأوضاع الراهنة ، ومن ناحية أخرى ينتظر قدوم أنور باشا إلى الشام .

أنور باشا في الشام

استقبل جمال باشا ، أنور باشا عند قدومه استقبال الفاتحين فهياً ألوف الرجال ، ونشرهم في الشوارع لتحيته والتهاتف له ، حتى رؤساء القبائل والعشائر جاؤوا جميعاً من حلب والشام وبيروت لاستقباله لأنهم يعلقون أهمية كبرى على لقاءهم به .
وكان جمال باشا قد أوكّل لسارة مهمة إعداد وليمة لأنور باشا ،

فسافرت إلى بيروت لإعداد الترتيبات اللازمة لتلك الولاية .

أنور باشا يستقبل جمال باشا ببرود

صحيح أن جمال باشا استقبل أنور باشا استقبال الملوك والسلاطين ولكن اللقاء بين الاثنين كان على قدر كبير من البرودة والجفاء ، فكل منهما ، كان يحذر الآخر ويراقب تحركاته وتصرفاته .

عقد اجتماع للضباط القادة في مقر قيادة جمال باشا ، وتم دراسة واستعراض أوضاع الجبهات كل على حده ، ووصولاً إلى موضوع الجلاء عن «المدينة» قال أنور باشا لجمال باشا :

- هل دققتم يا باشا في الوضع الراهن ؟ كيف سيتم تنفيذ هذه المهمة وكيف سيتم نقل الأمانات المقدسة إلى استنبول أرجو تبيان الأمر لي . لأن هذه الأمانات التي ورثناها عن أجدادنا ، لا يمكن التخلي عنها وتركها هنا ، أرجو أن تفكر في أمر إعداد الترتيبات اللازمة لنقلها .

وقال مصطفى كال الذي كان صامتاً :

- يا سعادة الباشا ، أرجوكم إعفائي من مهمة قيادة المدينة . وتعيين قائد غيري مكاني ، بديلاً عني .

غضب أنور باشا من كلام مصطفى كال الذي يعرفه باحتجاجاته الدائمة ، خاصة وأنه يتحدث بحضور جمال باشا . لكنه تمالك أعصابه ، رغم غضبه وقال : يا باشا ، يا باشا لقد أوكلت إليكم القيادة مهمة لتنفيذها ، وعليكم تنفيذ هذه المهمة ، تلك هي واجباتكم تجاه القيادة ، فهل تريد أن تنصح القيادة وتقرر بدلاً عنها ؟

- أستغفر الله يا سيدي ، فأنا لا أجرؤ ولا أفكر في تقديم النصح والقرار للقيادة ، ولكنني أردت أن أقول إن الشخص الذي قام بحماية المدينة عليه أيضاً إخلائها لأنه وحده القادر على ذلك .

عندها قطع أنور باشا الحديث قائلاً : مادام الأمر هكذا فالمدينة حالياً تحت إمرة القائد خير الدين باشا وعليه أن ينسحب منها ويخليها ، ويكون مسؤولاً عن إيصال الأمانات المقدسة إلى استنبول ثم التفت إلى جمال باشا وقال : عليك أن تصدر في الحال أمراً بذلك .

عودة مصطفى كمال

بعد الاجتماع ، قرر أنور باشا الذهاب بنفسه إلى المدينة . وأعطى الأوامر لمصطفى كمال بالعودة إلى استنبول . وهكذا ، ودون أن يستفيد مصطفى كمال من قرار تعيينه الأول ، عاد إلى استنبول . وبينما كانت سارة منشغلة بإعداد وترتيب وليمة الغداء على شرف أنور باشا ، كانت في الوقت نفسه تعد لعملية اغتياله . فرغم اعتراض الأمير فيصل على هذه العملية في البداية ، إلا أنه بعد إعلان عصيانته على الدولة العثمانية ، سيسره ذلك . دخل أنور باشا إلى بيروت دخول الأباطرة وتجول في أنحاء المدينة داخل سيارة مكشوفة برفقة جمال باشا ، وكانت الجموع تلهو وترقص حتى الصباح على شرف قدوم أنور باشا ، وكانت شوارع بيروت مزدانة بالورود والأزهار والصحافة منهمكة في الحديث عن حياة أنور باشا وعن أعماله وتسهب في مديحه ، بينما كانت الامبراطورية العثمانية في حقيقة الأمر تعاني سكرات الموت .

محاولة اغتيال أنور باشا

لم تفلح محاولة الاغتيال التي أعدت لأنور باشا في مدينة بيروت . إذ تمكن من القبض على الجاني بنفسه ، حين تسلل إلى غرفة نومه ليلاً وسلمه للحرس .

وعند ادلائه باعترافاته ، قال الجاني ، أنه كان يقصد سرقة أنور باشا وهذا ما دعاه للدخول إلى غرفته .
لكن جمال باشا أرسل الجاني إلى المحكمة العرفية العسكرية في عالية ، وتم اعدامه في اليوم التالي .
كان جمال باشا على علم بتحضير مثل هذه العملية مسبقاً من التير بالذات ، وهذا يعني أن التير كان يرسل أخباراً صحيحة وموثوقة ، قال جمال باشا في نفسه .

لورانس في المنطقة

علمت سارة بفشل عملية اغتيال أنور باشا فأصيبت بخيبة أمل وتوترت أعصابها . فرغ أن الجاني لم يتكلم قط ، إلا أنها قضت يومين متوترة الأعصاب .
من ناحية أخرى ، لم يقدم جمال باشا سارة إلى أنور باشا ، بل كان يحاول إبعادها عن مكان تواجد أنور باشا قدر الإمكان . ولم تكن سارة مرتاحة لهذا الأمر ، بل هي في الحقيقة حزينة ، إذ كانت ترغب بالتقرب من أنور باشا غير أن جمال باشا كان دائماً يعترض طريقها .
وبينا استقل جمال باشا وأنور باشا القطار متوجهين إلى عمان قاصدين المدينة المنورة ، كانت سارة قد توجهت إلى زمّارين^(١) ، مركز الاستخبارات الذي تعمل من خلاله .
ففي داخل المختبر كانت سارة تفكك شيفرة المعلومات الآتية إليها

(١) أقيمت على أراضي بلدة زمّارين العربية ، جنوبي حيفا ، مستعمرة صهيونية أُطلق عليها اسم (زخرون يعقوب) عام ١٨٩٣ ، وذلك تخليداً لذكرى والد البارون (إدمون روتشيلد) الذي تعهد بتقديم المال اللازم لذلك . واشترى الأراضي يهود رومان (من رومانية) من وكيل شركات السفن البريطانية في الموانئ السورية ، في بلاد الشام .

وترسلها من هناك إلى القيادة الانكليزية .
وقدم إليها لورانس ، برفقة رجل لزيارتها . واستضافتهما سارة لمدة أسبوع .
ثم حدثتها كيف رفض مصطفى كمال باشا الذهاب إلى المدينة واجلاء
الجيوش التركية بشكل مسهب ومفصل . ثم تكلمت عن بعض الأمور المتعلقة
بالالمان والأترك وقالت بعدها :
- أما الآن فعندي لكما مهمة عليكما بتنفيذها ، عليكما تدمير كافة
الطرق المؤدية إلى «المدينة» .
فضحك لورانس وقال :معك حق يا آنسة ، ولكن الشريف حسين ليس
راضياً عن هذا ، فهو يقول أن طرقهم تُحرب وخطوطهم الحديدية سوف
تتعطل وهو لا يريد أن تدمر هذه الخطوط ، فهي ملكهم .
- « يا لهم من حمقى هؤلاء الذين نتعامل معهم » .
فن جانب لدينا ذو التفكير الغليظ الجنرال اللنبي ومن جانب آخر
لدينا هؤلاء الجهلة الذين يهتمهم أمر الخطوط الحديدية ونحن في حالة حرب .
هل رأيت يا لورانس تحت أية ظروف أعمل ؟
- لا تسأليني يا سارة ، أنا أيضاً أعيش في مثل ظروفك ، ولا
أدري لمن أشتكي ، فإنني أجد صعوبة كبيرة في التفاهم مع الجنرال اللنبي
والأمير فيصل ووالده الشريف حسين ، وإخوته عبد الله وعلي . ولكن ذهب
الكثير وبقي القليل يا آنسة ، ولم يظهر بعد قوتنا الحقيقية .
- نعم سنظهر قوتنا الحقيقية ، وإلا لو تركنا الأمر بيد الجنرال اللنبي
والشريف حسين لطالت الحرب سنين عديدة أخرى .

سارة تعرف لورانس من زمن بعيد

كان لورانس قد زار سارة في زَمَارين قبل نشوب الحرب بسنين وعمل

بصفة منقّب عن الآثار وقام بحفريات بالجوار من تحتها وهكذا تم التعارف بين سارة ولورانس وأهلها .

زد على ذلك أن لورانس من أصل موسوي ، والاثنان يعملان من أجل هدف واحد مشترك .

وسألته سارة بعد برهة :

- هل تم توقيع الاتفاق المبرم بين وايزمان والشريف حسين ؟

- نعم ، لقد جعلناها يوقعان . ولكن أتدري ما حصل ، لقد وقعت بدلاً عن الحكومة الانكليزية .

فضحك الاثنان معاً وقالت سارة ساخرة : لم تقل لي أنك أصبحت الآن تتكلم باسم الحكومة الانكليزية وتعقد الاتفاقيات عنها ؟

- ماذا أفعل يا آنسة ، هؤلاء الانكليز صعب جداً التفاهم معهم .

فإلى أن أقنع القيادة الانكليزية بضرورة إرسال بعض البواريد وكيسين من الذهب إلى العرب ، أكون قد أصبت بالجنون . فهم لا يفهموني ولا يشقون بي .

- وهل يشق بك العرب ؟

إن إقناع العرب أسهل بكثير من اقناع الانكليز . يكفي أن تحملي إليهم بعض الذهب وبعض الأسلحة ، لتحصلين على ثقتهم . غير أن الانكليز يحدون مشقة في دفع مصاريف للذين يتعاونون معهم .

لورانس يعود محملاً بأنباء ومعلومات جديدة

استفاد لورانس كثيراً من الوثيقة التي أعطيت له من قبل سارة ، والمهورة بخاتم جمال باشا . فقد استطاع أن يذهب فيها إلى شبه الجزيرة العربية ، حيث قابل الأمير فيصل وخرج من عنده وهو يحمل أملاً كبيراً ومعلومات كثيرة ، ثم انطلق نحو القاهرة ليعطي كل المعلومات التي جمعها

للإنكليز الذين أرسلوه مرة ثانية إلى الصحراء ليقابل الأمير فيصل من جديد.

عند وصول أنور باشا إلى المدينة ، قام الشعب بأكله لاستقباله ، وشاركه رؤساء القبائل المجاورة لها . وأقيمت المراسم الرفيعة أمام مدخل قبر الرسول (ﷺ) ودخل أنور باشا بكل خشوع إلى غرفة القبر ولم يكن أحد يرفقته سوى جمال باشا ، وجلس هناك يدعو ربه وسط تلك الأجواء الدينية. وعند لقائه بفخر الدين باشا ، قائد المدينة ، طلب هذا الأخير من أنور باشا أن لا ينقله من المدينة وقال متوسلاً : إننا ، أنا وضباطي وجنودي لن نترك قبر سيدنا محمد (ﷺ) ونرحل ، أرجوكم أن تسمحوا لنا بالبقاء هنا ، فإننا سندافع عن المدينة حتى آخر رمق من حياتنا .

فالتفت أنور باشا إلى جمال باشا وسأله :

- ما رأيك يا باشا ؟

- يا سعادة الباشا ، أنا لا يمكنني إطعامهم إلا إذا تعهدتم بإرسال الأرزاق والأموال اللازمة هؤلاء ، فأنا عندها أشاطر فخر الدين باشا الرأي .

فكر أنور باشا ملياً ثم رد وقلبه مليء بالإيمان والحماس الديني وقال :

- معك حق يا باشا . لن أدع أحداً يقول إن الأتراك تخلوا عن قبر الرسول (ﷺ) وهربوا ، سوف أساعدكم حتى تدافعوا عن المدينة حتى آخر قطرة من دمائكم ، ولكن اعملوا على إرسال الأمانات المقدسة والشريف علي حيدر إلى استنبول في أسرع وقت ممكن أريد لسعادة الشريف الجديد أن يكون في مكان لائق .

فخر الدين باشا يبكي

فهم فخر الدين باشا ليقبل يدي أنور باشا وقال له وعيناه مملئتان بالدموع حفظكم الله لنا يا سعادة الباشا ، وليبارككم الله .

وعاد جمال باشا وأنور باشا بالقطار نفسه إلى الشام. ولم تكن مظاهر الاستياء التي شاهدها معاً تثير الفرح في قلوبها ، فالدفاع عن المدينة في وجه العرب ليس بالأمر السهل ، وخطوط الاتصال بمعظمها مقطوعة ، والجنود المقاتلون على الجبهة يعانون من الجوع والعطش والمرض ويماربون الأعداء بشراسة ويستشهدون كل يوم ، ولكن من أجل ماذا يماربون ؟ من أجل من ؟ لم يكن أحد يعرف جواباً لهذين السؤالين .

كان الجنود المسلمون ، على السواحل ، يقاتلون الانكليز من جهة والفرنسيين من جهة ثانية والعرب من جهة ثالثة . وأصبح كل جندي وكل مجموعة تحارب مستقلة عن الأخرى وكأن الأقدار هي التي ساقتهم لذلك ، وأصبح كل منهم يدافع عن نفسه وعن قدره المحتوم .

بارة تنتصر في الحتام بعد انكشاف أمرها

رغم كل ما حدث ، كان أنور باشا متفائلاً ، يرغب برفع معنويات جنوده . فأمر باعداد وترتيب احتفال كبير في القدس ، قدم في مستهله وسام « الفريق الأول » لجمال باشا وبهذه الالتفاتة من أنور باشا ، تكون المشاحنات القائمة بينه وبين جمال باشا قد زالت واندثرت .

وهل من فرصة أفضل من هذه الأيام الحرجة ، لتصفية مثل تلك الخلافات ، خاصة أنه لم يكن هناك أصلاً سبب لإبقائها . ورافق جمال باشا ، أنور باشا إلى مكتبه حيث جلسا يتحدثان عن أيامهما الماضية التي ذاقا فيها طعم المرارة ، خاصة وأنهما كانا صديقين في صف واحد وخريجي مدرسة واحدة ، واشتركا معاً في حركة التمرد الأولى مع نيازي حيث اختبأ في الجبال ، وكان جمال باشا وقتها برتبة نقيب واستطاع أن يقدم لها أكثر من مساعدة .

وعندما حقق أنور باشا حلمه وعاد بواسطة القطار إلى سلانيك كان جمال باشا في استقباله فبادره قائلاً :

- إنك اليوم مثل نابليون ...
ثم عمل جمال باشا مع أنور باشا ، جنباً إلى جنب ، وكانا الشخصيتين
اللامعتين اللتين عملتا على إعلان حزب الاتحاد والترقي .
وبعد ذلك ، نال كل منهما ترفيعات متتالية ، غير أن أنور باشا كان
دائماً في المقدمة ، يسبق جمال باشا في حصوله على الترفيعات والترقيات بعد
أن أصبح صهراً للقصر .
وهذا ما يجعلنا نقول أنها ، أي أنور باشا وجمال باشا ، رفيقا درب ،
رغم وجود بعض الاختلافات في وجهات النظر بينهما ، وهكذا كانت الأمور .
فعندما نال أنور باشا رتبة القائد العام بدلاً عن رتبته كوكيل
(نائب) للقائد العام ، ترفع جمال باشا أيضاً وأصبح قائداً عاماً للجيش
الرابع وحاكماً على كافة الأراضي العربية . وكان لدعم القصر أثر هام في ترفيع
أنور باشا إلى رتبة القائد العام للقوات زيادة عن جمال باشا .
وبعد أن رَفَعَ أنور باشا نفسه لرتبة فريق أول ، ها هو اليوم ، وبكلتا
يديه ، يضع وسام الفريق الأول على صدر صديقه جمال باشا ويمنحه تلك
الرتبة العالية .

يا باشا . هؤلاء أمانة في عنقكم

عندما غادر أنور باشا سوريا فإن جمال باشا ودعه بحفاوة بالغة لم
تكن ظاهرة عند مجيئه بقصد التفتيش على أعمال جمال باشا وإقالته من
منصبه ، ولكن بعد أن تصافت القلوب وكان تقرير التفتيش يشير إلى أن
الوضع جيد وكل شيء يسير وفق الخطة المرسومة ثم أوصاه خيراً بأهل المنطقة
وقال لجمال باشا : إني أضع بين يديك هؤلاء أمانة . ثم حضر مراسم الوداع
العسكرية الرسمية ، بكل وقار وعظمة وودع كما استقبل به ، بحفاوة وتكريم .

حين كان جمال باشا يخطط لمعاركه وتحركاته على جبهات القتال كانت سارة أيضاً من ناحيتها تخطط وتتحرك لضرب جمال باشا وإفشال خطته الحربية وتكبيده الخسائر الفادحة .

وبدأت سارة تعمل في مركزها بزمارين ، بكل ارتياح وطمأنينة . فلم يكن هناك ما تخشاه . إذ لم تكن أية دورية أو أي مأمور يجرؤ على الاقتراب من هذا المركز الذي تعمل فيه . كانت سارة على يقين باقتراب موعد تحرك الجيوش الانكليزية، وسقوط القدس بأيديهم .

غير أن القيادة الانكليزية كانت تلح على طلب خطط معارك القوات الالمانية والتركية من سارة .

وكان الانكليز يريدون معرفة الاتجاه الذي ستسحب منه القوات التركية وهي ترحل إلى الأناضول .

وكانت سارة ، بكل يسر وبكل ارتياح ، ترسل للانكليز المعلومات التي يطلبونها ، وتعلم الجنرال اللنبي بكل تلك الخطط والتحركات .

ومن ناحية أخرى ، كان أفراد جهاز الاستخبارات التركية والالمانية لا يعرفون نهائياً إلى أي وضع قد استقرت عليه الأمور ، غير مكترئين بالخطر الكبير المتربص بهم . حتى أن بعض أفراد جهاز الاستخبارات هذا ، كانوا يقضون ليالهم بين أحضان الموسويات .

حدث هام

في إحدى الأيام جرت حادثة هامة . حين قدم عدنان شوقي بك ، أحد الضباط الأتراك التابعين للفرقة الثالثة والأربعين ، إلى الناصرة ، بمهمة رسمية استطلاعية .

فكث شهراً تقريباً في إحدى مستشفيات القدس، وأراد قضاء فترة

نقاوته في مدينة الناصرة . لقد كان عدنان شوقي ابن عائلة غنية ، وكان يملك أموالاً كثيرة، وفي تلك الأثناء، كان الناس يرغبون في اقتناء القطع الذهبية بدلاً من الأوراق النقدية . لذلك ، كان عدنان شوقي يرغب في تحويل الأموال التي كان يملكها من الأوراق النقدية إلى قطع ذهبية، وتعرف في الناصرة على شخص يدعى أحمد ذهني، وأعلمه برغبته هذه.

قال عدنان شوقي لأحمد ذهني سائلاً :

- يا أحمد ، أريد استبدال الأوراق النقدية بقطع ذهبية هل هذا ممكن

يا ترى ؟

- يا سيدي ، إنني أعرف أحد المسيحيين يقوم بأعمال الصرافة ، كم تريدون أن أصرف لكم منه يا سيدي القائد .

- مئة وخمسون قطعة ذهبية .

- حسناً ، سأجهز لكم الأمر خلال ساعة تقريباً .

وبالفعل ، وبعد ساعة ، أحضر أحمد ذهني مئة وخمسين قطعة ذهبية لعدنان شوقي ، واستلم منه عدنان بك القطع الذهبية ، وأعطاه بدلاً عنها أوراقاً نقدية ، وانتهى الأمر بالنسبة لعدنان شوقي عند هذا الحد .

وعند المساء قام ، بعد القطع النقدية تلك لاختفائها منعاً من سرقتها . فراح يضعها في كيس من قماش ليلفها حول خصره .

وهنا كانت المفاجأة !

كان بين تلك القطع الذهبية، قطعتان تلمعان لمعاناً مميزاً، كانتا قطعتي ذهب انكليزية ، كتب عليها تاريخ صكها ، عام ألف وتسعمائة وستة عشر .

ولما كان عدنان شوقي ضابطاً ذكياً وبقظاً ، فقد بدأ يفكر كيف وصلت هذه القطع الذهبية الانكليزية إلى البلاد وخاصة إلى القدس ، فلقد بدأت الامبراطورية العثمانية الحرب عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر .

ومنذ ذلك التاريخ لم تبقَ أية علاقة مع الانكليز ولم تكن هناك أية

تجارة بينها ، من ناحية أخرى ، فالسواحل كلها محاصرة ، وبناءً على هذا ، كيف إذاً دخلت هاتان القطعتان الذهبيتان الحديثتان إلى القدس ؟ سأل عدنان شوقي نفسه ، لا بد من وجود أمر خلف هذا الموضوع ، ولكن ، لمن سيوجه سؤاله هذا ؟ فتبديل الأوراق النقدية بقطع ذهبية كان مجد ذاته أمراً مخالفاً يحاسب عليه .

هل سيواجه المسؤولين ويقول لهم أنه قام بعملية صرافة أو بورصة ؟ سيسأله « ما حاجة ضابط شاب مثلك إلى مئة وخمسين قطعة ذهبية ؟ » . خاصة وأن البلاد في حالة حرب ، فإذا سيكون جوابه ؟ هل سيتمكن من اقناعهم بأن هذه الأموال أتت إليه من أهله ؟ بقي عدنان شوقي طوال الليل يفكر في هذا الأمر . ولم يستطع النوم قط ، وكان ضميره يؤنبه قائلاً له « حتى ولو كان عقابك الموت ، عليك إعلام رؤسائك بالأمر » .

شوقي بك يتوجه إلى قائده

توجه عدنان شوقي بك في الصباح الباكر من اليوم التالي ، إلى مركز القيادة العسكرية في الناصرة ، وكان الحاكم العسكري يدعى يونس حيدر بك واستقبل الحاكم العسكري الضابط الشاب قائلاً :

- تفضلوا يا عدنان شوقي بك !

فأخرج شوقي بك قطعتي الذهب الانكليزيتين من جيبه وقدمهما للحاكم العسكري يونس حيدر قائلاً له :

- هل تعتقدون أن قطعتي الذهب هاتين قد تكون ذات فائدة لكم يا سيدي ؟

وفهم يونس بك قصد عدنان شوقي . وأخذ قطعتي الذهب بيده ووضعها على راحته وتمعن فيهما ، وبقية أطلق صيحة تعجب وقال :

- يا عدنان بك ، تاريخ الصك يعود إلى عام ألف وتسعمائة وستة عشر، ترى من أين أتت هاتان القطعتان ؟

- شخص يدعى أحمد ذهني من أصل عربي قام بتصرفهما لي بواسطة أحد الصرافين الذين يعرفهم، لقد أرسلت إليه أحد جنودي ليقوم بالتصريف.

وعلى الفور ضغط يونس حيدر على كبسة الجرس ، وقال للضابط الذي أتى إليه مليباً نداءه :

- اعثروا لي على المدعو أحمد ذهني واتوا به إلي .

وبعد بضعة دقائق ، كان أحمد ذهني واقفاً بين يدي يونس حيدر واستقبله يونس حيدر بكل لطف واحترام وقال له :

- يا أحمد ، لقد أمنت لعدنان بك قطعاً ذهبية من عند صرافك أرجوك ، يلزمي ألف قطعة ذهبية ، هل يمكنك تأمينها لي ؟

فتحمس أحمد وقال للحاكم :

طبعاً ، أجدها لكم يا سيدي الحاكم .

- حسناً ، كيف تحصل على هذه القطع الذهبية ؟

- من شخص يدعى حنا مرقص وهو صراف يا سيدي الحاكم .

- حسناً أحضر لي من عنده ألف قطعة ذهبية .

أسرع أحمد فرحاً ، فهو لم يصدق نفسه أنه يتعامل مع أحد أكبر ضباط الجيش وأنه سيسدي له خدمة كبيرة بتحويل أمواله من الأوراق النقدية . وأسرع أحمد إلى عند الصراف حنا وقال له : مسيو حنا حاكنا العسكري يونس حيدر يريد شراء ألف قطعة ذهبية!

لم يندهش حنا كثيراً من الأمر ، إذ أن معظم القواد كانوا يحولون أموالهم في تلك الفترة ، من الأوراق النقدية إلى قطع ذهبية ، وتصريف مبلغ كهذا للحاكم العسكري أمر سره جداً .

ألف قطعة ذهبية يتم تسليمها

خلال بضعة ساعات ، تمكن حنا الصراف من جمع ألف قطعة ذهبية .
قام بتسليمها ليونس حيدر . وأعطى الحاكم يونس حيدر له مقابل تلك
القطع الذهبية الألف ، قيمتها بالأوراق النقدية .

وبعد ذهاب الصراف حنا ، أفرغ الحاكم العسكري يونس محتوى الكيس
على طاولة مكتبه وبدأ يعاينها واحدة فواحدة ، غير أنه لم يجد أية قطعة
ذهبية انكليزية بينها .

وفي اليوم التالي ، تم استدعاء حنا مرقص إلى مركز الحاكم العسكري
وقادوه إلى غرفة مجاورة لمكتب الحاكم يونس وبعد أن مكث فيها حوالي الساعة
حاول حنا الخروج من الغرفة غير أن عسكرياً اعترضه قائلاً له :
- لا يمكنك الخروج ، ابق مكانك ...

ورغم تصريحه بأنه يريد مقابلة الحاكم العسكري إلا أن العسكري منعه
من الخروج واحتجزه داخل الغرفة فقال حنا للعسكري :
- كيف ذلك ، وقد دعاني الحاكم العسكري يونس حيدر إليه ،
فأنا ضيفه .

- مهما كانت صفتك ، فإنه ممنوع عليك الخروج من الغرفة .
- هل هذا يعني أنني موقوف ؟
- أجل ...

وكانت هذه الكلمة بمثابة طعنة خنجر في قلب حنا . فراح يتساءل
« ترى ماذا فعلت بحق الحاكم العسكري ؟ » .

وعند المساء ، قابل يونس حيدر ، حنا الصراف .
أثناء ذلك ، كان يونس حيدر قد أرسل ضابطاً برفقة بعض الجنود إلى
منزل حنا الصراف وقاموا بتفتيشه . غير أنهم لم يعثروا على شيء ، حتى ولا
إبرة .

قال يونس حيدر لحنا الصراف :

- هل تعرف ما هو ذنبك ؟

- كلا يا سيدي الحاكم ، ولكن إن كان لي ذنب فهو بيعي لكم القطع الذهبية .

فقال له يونس حيدر بك : كلا ، كلا . فالأمر ليس كما تظن . أنا لم أوقفك لبيعك لي قطعاً ذهبية.

فضغط يونس حيدر على الزر وقال للعسكري :

- استدعوا لي عدنان شوقي إلى مكنتي ، ثم قال لحنا :

- لقد بعث قطعاً ذهبية مزيفة لصديقي هذا .

دُهِش حنا لكلام الحاكم وقال :

أنا ؟ أنا ؟ قالها متأتناً . وتابع يقول : سيدي الحاكم أنا حقاً أبيع قطعاً ذهبية ، فأنا لا أنكر ذلك . إلا أنني لا أبيع قطعاً ذهبية مزيفة .

وعلى أثر ذلك ، التفت يونس حيدر إلى شوقي وقال له :

- حسناً ، أره إذاً تلك القطع المزيفة يا عدنان بك .

فاخرج عدنان شوقي من جيبه قطعتي الذهب الانكليزيتين وقدمهما لحنا .

ونظر حنا إلى القطعتين اللتين كانتا تلمعان لمعاناً ملفتاً ، ودقق فيهما

ثم قال بسرور واضح :

- سيدي الحاكم ، هذه القطع ليست مزيفة .

- إنها مزيفة ، انظر جيداً .

- كلا إنها ليست مزيفة ، ولو كانت كذلك ، فأنا مستعد لأن تقطعوا

رأسي .

- حسناً ، انظر إليها جيداً ، ...

أعاد النظر في القطعتين ملياً ، ولفت نظره التاريخ المكتوب عليهما

عام ألف وتسعمائة وستة عشر ، وفهم أن يونس حيدر ، يحقق معه لكون القطعتين تلك ، انكليزيتين ، وتاريخهما عام ألف وتسعمائة وستة عشر . فقال: الآن فهمت يا سيدي الحاكم .

- حسنًا ، في تلك الحالة ، قل لنا إذاً أين وجدت هذه القطع ، ومن أين جلبتها ؟

- أريد أن أقول يا سيدي إنها الحاجة ...

- قل بسرعة ، وإلا حولتك إلى المحكمة العرفية وهناك تعرف ماذا ينتظرك .

- أقسم أنني لا علاقة لي بالأمر يا سيدي . كما أن الذي أعطاني هذه القطع لا علاقة له بمثل هذه الأمور ، إنه إنسان شريف ونزيه .
- من هو هذا الرجل ، قل بسرعة ، وإلا أمرت جنودي بجلدك .
- كنت أريد أن أقول، إنني أخذت هذه القطع من الأب اغناطيوس، ولا علاقة له على الإطلاق مع الانكليز ، سيدي الحاكم .

إحضار الأب اغناطيوس

لم يمض وقت طويل حتى استدعي الأب اغناطيوس لعند يونس حيدر. في بادئ الأمر ، أنكر الأب اغناطيوس الأمر وقال :
- لا أعلم يا سيدي ، فأنا لم أعط أحداً هذه القطع الذهبية .
- اغناطيوس أفندي ، أنت رجل دين مؤمن ، ألا تهجّل من نفسك وأنت تكذب . إذا لم تقل لنا من أين أتيت بهذه القطع الذهبية ، فسوف أضطر لإرسالك إلى المحكمة العرفية .
كان الأب اغناطيوس يدرك ما معنى إرساله إلى المحكمة العرفية ، فهناك ، إما أن يحكم المرء بالإعدام بعد تحقيق صوري معه ، أو ينفونه إلى الأناضول . وعلى ضوء ذلك قال ليونس حيدر .

- سيدي ، حسب ما أذكر فإن هذه القطع الذهبية قد وصلت الي من السيدين يوسف الأسعد ، وحنا المهيري ، اللذين قدما لي قطعاً ذهبية لمساعدتي . في بناء الكنيسة وأنا بدوري قت بتبديل هذه القطع الذهبية عند الصراف حنا بأوراق نقدية . وأنا أعرف هذين الرجلين منذ زمن بعيد . ولا يمكن أن يكونا جاسوسين ، ولقد دخلا البلاد بطريقة مشروعة .

القبض على يوسف الأسعد وحنا المهيري

وعلى الفور أرسل يونس حيدر دورية للقبض على يوسف الأسعد وحنا المهيري وجلبهما إليه ، وبعد أقل من ساعة كان يوسف وحنا يقفان أمام يونس حيدر .

وبدأ يونس حيدر مباشرة التحقيق معها .

- من أين أتيتما بهذه القطع الذهبية ؟

- إذا وعدتنا بعدم ارسالنا إلى المحكمة العرفية ، فإننا مستعدان لأن

نقول لكم كل شيء ، وأن نعتزف لكم بكل ما حدث .

- إن لم تخفيا عني أي شيء ، ووعدتماني بأن تعترفا بكل ما حدث ،

أقسم بشرفي بأنني سوف أطلق سراحكما . وفي حال أخفيتا عني كلمة واحدة فإنني سوف أعدمكما .

- سوف نعتزف لكم بكل حقيقة الأمر ، وكما حصلت الأمور بدقّة .

- قولاً إذاً ما عندكما .

- سيدي ، نحن ، وقبل نشوب الحرب ، رحلنا إلى مصر للعمل هناك .

ولكن وبعد فترة قصيرة بدأت الحرب واضطربنا للبقاء هناك .

وكيف قدمتا إلى هنا ؟

- لقد أوصلتنا غواصة بحرية إلى شواطئ عتليت .

- من أين ركبنا هذه الغواصة ؟

- من بور سعيد وعلى بعد ثلاثة أميال من شواطئ عتليت تركنا هذه الغواصة ، بعد أن طفت على وجه الماء ، وساعدنا ضابط انكليزي في الصعود على ظهرها بواسطة سلم متدلي منها
هل كان هناك أحد بانتظار هذا الضابط على شواطئ عتليت ؟
- نعم يا سيدي ، كان هناك شخصان بانتظاره ، أعطياه حقيبة مملوءة بالأوراق ، وبمجرد استلامه لهذه الحقيبة ، غادر الضابط الانكليزي الشاطئ..

- هل تأتي هذه الغواصة غالباً إلى شواطئ عتليت ؟
- إنها تأتي مرتين في الشهر وتقرب من شواطئ زمارين عتليت حسب ما سمعنا . فهي صلة الوصل بين الجواسيس الذين يعملون هنا والقيادة العسكرية الانكليزية .

- ما هو هدف إرسالكم إلى هنا ، وكيف التقى بكم أولئك الانكليز ؟
- في بادئ الأمر ، كنا نرغب في القدوم ولكن عندما علمنا بالأوضاع المتردية هنا ، من جوع وفقر ، قررنا البقاء مدة اضافية .
فنحن عائلة كبيرة ، ولو ذهبنا إلى القدس فإننا لن نتمكن من العيش باطمئنان ولكن بعد فترة ، سمعنا أن الحكومة قررت إرسال المواطنين من أصل عربي إلى الجبهات للقتال ضد القوات العثمانية . وعلى أثر هذا راجعنا المسؤولين الانكليز في مصر ، وعرضنا عليهم العمل لصالحهم في منطقة فلسطين . وهكذا أرسلونا إلى الناصرة ، بلدتنا ومسقط رأسنا .

- وما هي الأمور التي طلبوا منكم أن تنفذوها ؟
- أول تلك الأمور ، توطيد الصداقة بين العرب الذين يمثلهم الشريف حسين والانكليز في مواجهة العثمانيين .

فكان علينا إقناع العرب بأن تعاونهم مع الانكليز سيخلصهم من الحكم العثماني ، وأنه ، عند انتهاء هذه الحرب ، ستقوم دولة عربية كبيرة

مستقلة . كان علينا إفهام هذا الأمر لسكان القرى وكافة المناطق في فلسطين.
الأمر الثاني ، حث الضباط والجنود المتواجدين على جبهات القتال في فلسطين على الفرار وترك سلاحهم .

الأمر الثالث ، توزيع المنشورات التي يرسلها الانكليز من مصر في فلسطين ، وفي هذا الصدد ، سيقوم الجواسيس العاملون هنا لحساب الانكليز بمراقبتنا ومراقبة حسن تنفيذنا لهذه الأوامر ، وتوزيعنا لهذه المنشورات وارسال تقارير عنا إلى القيادة العسكرية الانكليزية .

أما الأمر الرابع والأخير، كان علينا تجميع كافة المعلومات العسكرية والسياسية ووضعها تحت إمرة وتصرف القوات الانكليزية .

- منذ متى أتيتما ؟

- لقد مضى عشرون يوماً على قدومنا .

- وهل زاركأ أحد ؟

كلا ، ولكن منذ يومين ، وضع تحت باب بيتنا منشورات مع بطاقة كُتب عليها ، « وزعوا هذه المنشورات على أصدقائكم »

- وهل وزعتم تلك المنشورات ؟

- كلا لم نوزعها قط .

وطلب يونس حيدر إحضار تلك المنشورات ودقق في محتواها ، فكانت هذه المنشورات الموقعة بإمضاء الشريف الحسين تطلب من العرب القيام بالعصيان بوجه العثمانيين ومساعدة الانكليز .

يونس حيدر على علم بكل شيء

علم يونس حيدر الآن بكل شيء ، وإثر ذلك أطلق سراح حنا الصراف والأب اغناطيوس وحنا المهيري ويوسف الأسعد دون قيد أو شرط .

لقد كان لقطعتي الذهب اللتين قدمتا للكنيسة بشكل هبة بمثابة رأس الحيط للكشف عن أشياء حيوية ومهمة وخاصة بالنسبة لحياة المقاتلين

العثمانيين المتواجدين على جبهات القتال في فلسطين .
وتوجه يونس حيدر حاكم الناصرة إلى القدس ليطلع متصرف القدس
مدحت بك على الأوضاع المستجدة .
وفي الوقت نفسه ، كان مدحت بك بمعاونة جمال باشا المرسيني وتنفيذاً
لأوامر القائد العام علي فؤاد ، قد بدأ حملة تفتيش ومراقبة مدعوماً بفرقة
من الخبيرين بلغ عددهم أربعين محبراً .
كانت هذه الفرقة حديثة العهد . لذلك ، طلب مدحت بك من مدير
الأمين عارف ابراهيم التعاون معه واستدعاه إلى مكتبه وأخبره بما علمه من
يونس حيدر .

فقال عارف ابراهيم بك لمدحت بك :
- يا سعادة المتصرف ، يجب أن نتعاون مع يونس حيدر .
فقال يونس حيدر : بكل ممنونية نحن كجنود سنقوم بمساعدتكم بقدر
المستطاع فنحن من جهة وأنتم من جهة سنضع كل مناطق فلسطين تحت
المراقبة .

وعند إبلاغ القائد العام علي فؤاد بمجريات الأحداث ، توجه هذا
الأخير فوراً من الشام إلى القدس ليتولى بنفسه قيادة التحقيقات اللازمة .
كما عقد المجلس العسكري والأمني اجتماعاً قرر فيه إلقاء القبض على
الجنود الفارين وتوقيف المشتبه بهم ، ومراقبة السواحل والتحقق من صحة
قدوم الغواصة الانكليزية مرتين في الشهر إلى الشواطئ الفلسطينية، ومن ثم
الأشخاص الذين يتم الاتصال بهم .

وبينما يقوم يونس حيدر بمهمة مراقبة هذه السواحل في منطقة
الناصرة، كان على عارف ابراهيم القيام بالمهمة ذاتها في منطقة زمارين
وعتليت .

وباقتراب موعد قدوم الغواصة الانكليزية ، لم يكن هناك ما يشير

الشبهة ، كما رأى عارف حكمت بك ، فلقد كانت الترتيبات والتحضيرات قائمة في منزل سارة لإقامة حفل ساهر كبير . وكانت المنطقة مزدحمة بالفتيات الحسنات ، ومؤن الخمر والمأكولات تصل تباعاً إلى المنزل ، وكان هناك حفل زفاف سيقام . وأثناء قيامه بالتجول على شواطئ عتليت لم يلاحظ عارف ابراهيم وجود أي جندي ، وقام عارف ابراهيم باتخاذ كافة التدابير اللازمة لمراقبة سواحل عتليت .

وبعد يومين لوحظ قدوم ضباط السواحل ومعاونهم وبعض المسؤولين في عتليت إلى منزل سارة . وكان عارف ابراهيم يتوقع وصول الغوصة في تلك الليلة . وهكذا ، وضع منزل سارة تحت المراقبة السرية . فقد أقامت سارة في تلك الليلة ، سهرة رومانية^(١) دعت إليها كل ضباط ومسؤولي المنطقة .

وكانت الفتيات الموسويات تترامين في أحضان الضباط ، وكل الحاضرين في حالة السكر الشديد وفقدان وعي . ولفت هذا الأمر انتباه عارف بك . فتربص برفقة بعض ضباطه في أعلى التل وراحوا يراقبون منزل سارة . وعند منتصف الليل ، خرجت سارة برفقة شاب وتوجهت إلى الشاطئ . وغابت قرابة الساعة ثم عادت إلى المنزل .

هل سارة جاسوسة ؟

بدأت شكوك عارف بك تحوم حول سارة . ترى هل سارة جاسوسة كبيرة ؟ ولكنه لم يجرؤ على التحدث في هذا الأمر مع أحد . كما أنه لم يتأكد

(١) لأن الذين حضروها هم يهود من أصل روماني . وفي الحقيقة ، جاء المهاجرون الذين أقاموا مستعمرتين : عتليت و (زخرون يعقوب) - زمارين ، الواقعتين جنوبي حيفا ، من رومانية .

من وصول الغواصة الانكليزية إلى شاطئ عتليت .
وعند الصباح قدم رئيس الدرك عثمان أفندي وأعلم عارف بك بقدوم الغواصة الانكليزية في تلك الليلة ، وأنها أعطت اشارات إلى الشاطئ .
عندها فكر عارف بك وقال في نفسه : « إذا سارة دعت كل الضباط والمسؤولين في المنطقة وجعلتهم يسكرون ثم خرجت في منتصف الليل لملاقاة الغواصة والاتصال بها » ، وهكذا ثبتت شكوك عارف بك حول سارة ، فوضع منزلها ومختبرها ومصنع النبيذ الذي يملكه أهلها تحت المراقبة .
وعاد عارف بك إلى القدس للاجتماع مع مدحت بك متصرف المدينة .
ولم يستطع عارف بك اخبار مدحت بك بشكوكه حول سارة ، فقد كان يعلم أنها صديقة حمية لجمال باشا .

الجاوس ليتسانيسكي يزور منزل سارة

كيف سيتمكن عارف بك من أن يعلم مدحت بك بشكوكه تلك حول سارة . وليس لديه أية وثيقة وأي دليل يثبت صحة شكوكه .
فقال عارف بك للمتصرف مدحت بك :
- سيدي مدحت بك ، أرجو أن تسمحوا لي بإعداد مفرزة من الجنود ، وبدء حملة تفتيش عامة في المنطقة ، لقد ثبت وصول الغواصة الانكليزية مرتين كل شهر إلى الشاطئ ، وهذا ما يثبت ارتباط الانكليز ببعض الأشخاص المتواجدين في هذه المنطقة . لذلك أرجو أن تسمحوا لي بالقيام بحملة تفتيش عامة في المنطقة .
- حسناً حسناً يا عارف بك ، مرحى لك . سوف أقوم بالاتصال ببيونس حيدر بك ، لإرسال مفرزة من قواته في الناصرة لوضعها تحت امرتك .
شّر عارف بك لهذا الوضع ، وانطلق بمحمله بادئاً بمنزل ومختبر سارة .
فأحاط بالجنود كل منطقة عتليت وبدأ بالتفتيش العام .

ودام هذا الحصار عشر ساعات ، راقب أثناءها القادمين والمغادرين من منزل سارة دون التجرؤ على الدخول إليه وتفتيشه .
ولفت انتباه عارف بك ، أحد القادمين إلى منزل سارة كان هذا القادم هو الجاسوس ليتسانيسكي الشهير ، برفقة خمسة رجال بزيارة سارة ، وبعد مضي ساعة تقريباً غادرها ثانية .
وكانت سارة متوترة الأعصاب ومضطربة ، وهي تلاحظ اشتداد الحصار والتفافه حول منزلها يوماً بعد يوم ، ولكنها لم تكن خائفة أبداً . كانت على يقين وثقة بأن لأحد يجرؤ على اجتياز عتبة منزل حبيبة جمال باشا ، وحتى لو حصل ذلك ، فإنهم لن يجدوا شيئاً . لقد أخفت سارة كل ما لديها ودمرته .

وعند زيارته لها قال ليتسانيسكي منبهاً :

- يا آنسة ، عليك بالفرار ، فقد يتمكنون من القبض عليك .
- لا تقلقوا بشأني ، فلا أحد من الأتراك يجرؤ على الاقتراب مني .
أعلموا القيادة بالوضع الراهن في المنطقة وبلغوها بالغاء رحلات الغواصة إلى هنا ، سوف نقوم بترتيب قناة اتصال أخرى .
- لاتقلقي يا آنسة سارة ، فلدى القيادة عدة أجنبية للاتصال معكم ،
إننا قلقون على وضعك الراهن ، ليس إلا ونريد تأمين سلامتك .
سرت سارة لهذا الأمر ، ولكنها لم تشأ مغادرة منزلها ، وقررت الذهاب إلى الشام لعند جمال باشا .

وبدأت بتحضير أمتعتها استعداداً للرحيل إلى الشام ، فأعدت حقيبتها واتصلت بمركز الدرك في عتليت لتحصل على موافقة جمال باشا في التوجه إليه .

ووصلت برقية من جمال باشا مفادها: يرجى تأمين سفر الأنسة سارة إلى الشام واتخاذ التدابير اللازمة لسفرها ، وتقديم المساعدة لها .

لم يستطع عارف بك مواجهة سارة ، ولم يشأ إرباكها ، وكان يدعي قيامه بمهمة عسكرية في المنطقة تبريراً لتصرفاته ، ولكن ، عندما لاحظ عارف بك أن سارة تقوم باعداد نفسها للسفر والحرب لعند الباشا ، جن جنونه ، وبينما هو يفكر حائراً في أمره ، وكيف سيتمكن من منع سارة من السفر ، قدم إليه أحد جنوده حاملاً بيده حماماً زاجلاً مقتولاً :

- سيدي ، لقد اصطدت هذا الحمام بعد أن شاهدته يطير من سطح مختبر سارة آرونسون ووجدت في قدمه رسالة مشفرة مربوطة فيه .
فأخذ عارف بك الرسالة ، وفتحها وحاول قراءتها ولكنه لم يفهم منها شيئاً .

- كيف حصل هذا ؟

سيدي ، بعد وصولنا إلى هذه المنطقة لاحظنا طيران حمامتين كل يوم من جهة الشاطئ ، إلى منزل سارة . وبعد ذلك لاحظنا أن حمامات أخرى كانت ترسل إلى الشاطئ ، ثانية وفكرت ، لعل هذه الطيور قناة اتصال بين مجموعتين من الناس ، فاصطدت أحدها للتأكد من صحة شكوكي ، وكما تشاهدون سيدي فهذه الطيور تحمل رسائل سرية بين جهتين تقومان بالاتصال فيما بينهما . ولقد أكد لنا المركز أن مصنع الخمر الذي تأوي إليه هذه الطيور عائد لسارة آرونسون .

وعلى الفور ، قام عارف بك بإبلاغ القيادة العسكرية في القدس بالأمر واتصل بالمتصرف مدحت بك وأبلغه الأمر بمخافيره .

فقال عارف : سيدي مدحت بك ، سأقتحم منزل سارة آرونسون .

فقال له مدحت بك :

- هل جرى لعقلك شيء يا عارف بك ؟ هل جُننت ، ألا تعرف من

تكون سارة آرونسون هذه ؟

- أعرف يا سيدي أجاب عارف بك ، ولكن للأسف فإن كل الدلائل

تشير إلى منزل سارة آرونسون والأدلة كلها تحوم حولها .
لقد اصطدنا اليوم حماماً زاجلاً قادماً إلى مختبرها وفي قدمه رسالة سرية ، ثم شرح لمدحت بك ملابسات الموضوع وسير التحقيقات في المنطقة ثم أضاف يقول :

- والآن ، ها هي تهرب إلى جمال باشا ، يا سيدي ، فإنها سوف ترحل اليوم أو غداً إلى الشام .

- فقال له مدحت بك :عارف بك ... عارف بك ... لا تواخذي فيما سأقوله لك ولكن أنا لا أحق نفسي في هذا الأمر . فأنا لا أستطيع أن أعطيك أي تصريح ولا أي أمر بتوقيف أو اقتحام منزل سارة آرونسون ، أرجوكم ، انقلوا نشاطكم إلى مكان آخر غير منزل سارة .

لا يمكن أن تكون سارة جاسوسة مطلقاً . وحتى لو كانت فإننا لا نستطيع كشف ذلك ولا نجرؤ على إعلانه ، إن هذا الأمر شائك جداً . فأنا لا أريد التعرض لغضب جمال باشا .

من ناحية أخرى ، علينا مناقشة هذا الموضوع بروية مع علي فؤاد باشا . لنرى رأيه في هذا الأمر . وبعد ذلك نقوم بتفتيش منزل سارة آرونسون.

فرد عليه عارف بك بحزم وعصبية :

- سيدي المتصرف ، لما كنتم تثقون بي فقد منحتوني مركزي ورتبتي العسكرية هذه ، والآن أرى أنني لست أهلاً لهذه الثقة ، لذلك أرجو قبول استقالتي . فلو كان جمال باشا وطنياً حقاً ، فلن يتوانى عن إعدام الخائن ولو كانت والدته .

فأنا لا أرى أي مبرر لحماية فتاة موسوية جاسوسة تخرب بلادنا .
ففكر مدحت بك قليلاً ، ثم قال وهو يضرب يده على طاولة مكتبه :
حسنًا يا عارف بك ، إنني أصرح لك بما تريد ، ولكن فلتعلم أنك

وحدك تتحمل كل المسؤولية . ففي حالة حدوث أي شيء ، فأنا لا أعرف شيئاً
ولست على علم بشيء ! هل هذا مفهوم !
فأسرع عارف بك ، تكاد عيناه تدمعان ، وانكب على يد مدحت بك
ليقبلها ، ثم قال :
- سلمك الله يا سيدي ، فأنا أتحمّل كل المسؤولية سأقوم بتطهير هذه
البلاد من هؤلاء الجواسيس الموسويين وسوف أقودهم إلى جمال باشا .

مدحت بك يبحث عن علي فؤاد بك

عاد عارف بك بسرعة إلى عتليت واتصل بالمتصرف مدحت بك الذي
كان قد اتصل هاتفياً بعلي فؤاد بك وأعلمه بمجريات الأوضاع ، وتلقى عارف
بك من مدحت بك آخر التعليقات حول الأمر . ولأهمية الموضوع اتجه علي فؤاد
بك مباشرة إلى عتليت دون تأخير .
كما اتصل المتصرف مدحت بك بجمال باشا المرسيني ويونس حيدر
وياسين بك وأعلمهم بالأمر .
وفي تلك الأثناء ، تحركت إلى عتليت قوة عسكرية من الجيش الرابع .

معمل الخمر يتم اقتحامه

في تلك الليلة وخلال اقتحام معمل الخمر ، تم العثور على جهاز
لاسلكي كان محبباً تحت التراب . في حين كانت سارة تنام نوماً هنيئاً وهادئاً .
فاعتقل عارف بك العاملين في المعمل ، واحداً واحداً .
وفي الصباح الباكر ، كان عارف بك قد اعتقل الجميع ولم يبق سوى
سارة آرونسون .
وفي تلك الأثناء كانت الأمور قد وضحت أمام أعين علي فؤاد بك
والمتصرف مدحت بك ، وكان لابد من القيام بالخطوة التالية : اعتقال سارة

فالمسألة أصبحت واضحة وانكشفت كل الأمور .

فقام عارف بك بشرح الموقف للباشاوات مطولاً ، وتقرر إحضار سارة إلى المركز لاستجوابها على الأقل ، فتوجه علي فؤاد باشا برفقة ابراهيم بك ، وعشرين من عناصر الدرك إلى منزل سارة ، التي كانت مشغولة بمديقتها ، تنسق الزهور وترتبها . فأعلموها بضرورة مرافقتهم إلى مركز الدرك بناءً على أوامر علي فؤاد .

فقالت سارة : لا يليق بالباشا أن أذهب إليه هكذا ، فإن سمحت لي ، سأرتدي ملابس الرسمية وبعدها سنذهب إليه .
فأبلغ الملازم الخبر إلى علي فؤاد باشا ، الذي رد قائلاً : دعوها ترتب نفسها وتأتي إلي بعد ذلك .

وصعدت سارة إلى غرفتها بغطى ثقيلة وهمت بالدخول إلى غرفة نومها ، ولكن الملازم ابراهيم بك أسرع ودخل معها إلى الغرفة .

فقالت : سيدي الملازم ، إن الأتراك أناس ذوو شرف وتعليات دينكم تمنعكم من دخول غرفة امرأة تنزع ثيابها أم أنني مخطئة ؟
- إنني أؤدي واجبي يا آنسة ، لا تنس ذلك .

فنظرت إليه نظرة ازدراء . وقالت :

- هل تعلم أن جمال باشا مولع بي يا سيدي الملازم ؟

- نعم أعلم ذلك .

- وتعلم أنني أستطيع أن أجعلك غنياً ، وأستطيع أن أريقك وأستطيع

أن أؤمن لك مركزاً في الداخل ، بعيداً عن الجبهة ، أليس كذلك ؟

- كنتِ تستطيعين ذلك يا آنسة ، أما الآن فلا أعتقد أن ذلك ممكناً .

- حسناً ، ما رأيك لو أعطيتك ألف دولار ، فهل تطلق سراحى ؟

- إن منزلك محاصر يا آنسة سارة ، حتى لو أطلقت سراحك وجعلتك

تفري ، إلى أين تعتقدين أنه يمكنك الذهاب ؟

- ما عليك، أطلق سراحى ودع الباقي لي، أستطيع أن أتدير أمري بنفسي .

- لايمكنني أن أفعل ذلك يا آنسة .

- حسناً، ألا ترغب في مضاجعتي ولو للمرة الأخيرة ، فأنا أرغب في مضاجعة شاب وسيم مثلك .

- لقد تكلمت كثيراً يا آنسة ، أرجوك ارتدي ملابسك فالباشاوات جميعاً بانتظارك .

- من هم الذين قتم باعتقالهم ؟

- لم يبق سواك يا آنسة سارة . إنكن خائنات للوطن .

- كلا يا ملازم ، أنا لست خائنة للوطن ، بالعكس ، أنا ناضلت من أجل وطني وقت بالتجسس لصالحه .

- في تلك الحالة أنت تعترفين بذنبك .

- طبعاً ، لا يهكم الأمر ، إن كنت أعترف لك بذلك ، سوف أرافقك

الآن ولكن كما قلت لك ، لقد أعجبتني ، وكنت أريد أن ...

- أرجو ان لا تنكري ما قلته لي الآن في مركز الدرك .

- لا ، لا ... لا يهكم الأمر لقد عملت بالتعاون مع أخي الكسي

وأهارون مع الانكليز لكي نحصل مقابل ذلك على وطن للموسويين في فلسطين.

إنما كنت أريد أن أذكركم أن أخواتي ربييكا وسام ليس لهما علاقة بعملنا هذا وهما خارج هذا الموضوع .

- تستطيعين قول هذا أمام المحكمة يا آنسة سارة .

- حسناً ، سوف نفعل ذلك .

صمتت سارة طويلاً وقامت بتجميل وجهها ووضعت أحمر الشفاه

على شفتيها ثم قالت : أريد أن أظهر أمام الباشاوات بمظهر جذاب ولائق .

وبعد أن ارتدت كل ملابسها توجهت إلى باب الغرفة لكنها وقفت

ثم تراجعتم إلى داخل الغرفة وفتحت أحد الأدراج فأخذت منه قطعة قطن وقالت للملازم :

- أرجو أن تسمحوا لي بالدخول إلى الحمام قليلاً .
- حسناً .

عند قدوم الباشاوات ، كانت سارة قد ماتت

بعد مضي دقيقتين ، سمع صوت طلق ناري قادم من الحمام فاندھش الجنود والضباط الذين كانوا ينتظرون في الخارج حول الحديقة وتوجهوا إلى مصدر صوت الطلقة ، فوجدوا سارة ملقاة على الأرض وسط بركة من الدماء ، حمل الجنود سارة إلى غرفتها وذهب أحدهم ليخبر الباشاوات بما حدث .

وعند قدوم فؤاد علي باشا وباقي المسؤولين ، كانت سارة قد فارقت الحياة منذ وقت طويل ، وحزن جمال باشا المرسييني وعلي فؤاد باشا لما حدث . وعادا إلى القدس ، وهما يتساءلان هل هذا أمر ممكن ؟ سارة ، التي كانت كل ليلة تنام في أحضان جمال باشا ، سارة التي كان يحترمها كل الباشاوات ويقبلون يدها ، جاسوسة انكليزية ؟

وفوق ذلك ، كانت تعمل على انشاء دولة موسوية على أرض فلسطين بالتعاون مع أجهزة الاستخبارات الانكليزية وترأس شبكة تجسس كبرى ؟ كانت سارة تعلم الكثير . كانت على علم بكل تحركات جمال باشا ، وتطلع على كافة خططه الحربية ، وتنقل إلى القيادة الانكليزية المعلومات يوماً بعد يوم ، وكانت وراء تسرب خطط حملة القناة الأولى ، ومعارك الجبهات المختلفة .

فقال علي فؤاد باشا لجمال باشا المرسييني :

- سعادة الباشا ، لقد منينا بضربة موجعة .

- لم تكن معرفة الأمر ، شيئاً صعباً .

لقد أشرت إلى خطورة تواجد تلك الموسويات في القدس ، غير أن جمال باشا كان يتذرع بأنه لا يريد أن يشردهن رغم أنني رجوته في إرسالهن إلى الشام .

- كنت أنا أيضاً مقتنعاً بذلك يا باشا .

- علينا إبلاغ جمال باشا بالأمر .

- نعم ، علينا إبلاغ جمال باشا بالأمر . ولكن علينا أولاً إعلامه بما حدث لسارة ، فكيف سيكفينا ذلك ؟ هل سيتقبل جمال باشا حقيقة أنها كانت جاسوسة انكليزية ؟

هل تريد أن نقول له إن الملازم ابراهيم بك هو الذي قتل سارة ، أو إن أجهزة الأمن في القدس قد نفذت هذا الحادث بناءً على أوامر عارف ابراهيم بك وعندها سيقوم الباشا بإعدامه .

- كلا يا باشا ، هذا أمر لا يمكن تحقيقه ، لم يكن بعد جمال باشا على كل حال علينا أن نمسك ببسببنا كل الأدلة الثابتة ، بناءً على ما قُت به من تحقیقات فأني سأقوم بإبلاغ جمال باشا بنفسي .
- ماذا لو أبلغناه بالأمر بالهاتف .

- كلا ، إن ذلك سيسبب له ارتباكاً وقد يدفعه إلى اتخاذ قرارات مفاجئة خاطئة ، سأقوم بإبلاغه بنفسي عند ذهابي إليه في الشام .

- حسناً يا سعادة الباشا . وفي تلك الأثناء سأقوم بتوجيه تقرير حول ما حدث إلى القيادة العسكرية وسوف أمر بنقل كل الموسويين المتواجدين هنا ، إلى الشام .

- أجل ، أوافقك الرأي .

- سوف اتصل بحاكم الشام خلوصي بك ، وأرجوه أن يجهز أماكن

للموسويين المبعدين من هنا إلى الشام .

وأنتم قدّموا تعازي لجمال باشا يا سعادة الباشا .

- كما تشاؤون يا سعادة الباشا .

كيف سيتمكن من إخبار الباشا الكبير بما حدث لسارة

تاركا جمال باشا المرسيني في القدس ، توجه فؤاد علي باشا إلى الشام والحزن يملؤ قلبه ، وكان طوال الطريق يفكر كيف سيجد طريقة لإخبار جمال باشا بما حدث لسارة .

وفي الصباح الباكر ، وعند دخوله إلى فندق قصر الشام كان قلب فؤاد علي بك يخفق خوفاً وهلعاً من قرب مقابلته لجمال باشا ، وكان تفكيره محصوراً في : هل سيبيدي جمال باشا أسفه لما حدث ؟
أخذ فؤاد علي باشا الملفات ودخل مكتب جمال باشا .

كان الباشا الكبير جالساً خلف مكتبه يلهو بخنجر صغير في يده ويقلبه يمنة ويساراً دون توقف . وعند رؤية علي فؤاد باشا نهض قليلاً من مقعده ثم جلس وقال :

- تعال يا سيدي الباشا ، تفضلوا بالجلوس من فضلكم ، فجلس فؤاد علي باشا على أحد المقاعد وسأله جمال باشا كيف حالك ؟
- بصحة جيدة . اشكركم يا سيدي .

وهز جمال باشا رأسه وسأل فؤاد علي باشا وصوته يخفي بعض الألم :
قل لي ، كيف حدث ذلك . هل تؤمنون وهل تصدقون أن سارة كانت جاسوسة ؟.

كان علي فؤاد باشا حائراً لسأله هذه الكلمات . ذلك يعني أن جمال باشا على علم بما حدث . فأجابه قائلاً :
- مع الأسف ، الأمر حقيقي .

لقد أجريت التحقيقات بنفسني . سارة جاسوسة فوق ما تتصور ، وأكثر مما توقعناه . لا أعرف من أبلغكم بالأمر ، وكيف وصف لكم الحادث .
- لقد أجريت اتصالاً بالقدس ، وتحدثت إلى متصرف القدس مدحت بك حول الأوضاع الراهنة هناك ، فأبلغني بما حدث .

قال إن سارة انتحرت ولاعطائك المزيد من التفاصيل حول الحادث
توجه إليكم علي فؤاد باشا لشرح ملابسات الموضوع .
- أجل ، لقد فهمت يا سيدي .
- حسناً ، ماذا ترون أن نفعل ؟
- إذا سمح الباشا ، فسأمر باخلاء جميع الموسويين من مدينة القدس
وارسالهم إلى الشام .
- ولكن ماذا ستكون ردود الفعل العالمية تجاه هذا القرار .
- إن أمن بلادنا أهم من ردود الفعل العالمية ، يا سعادة الباشا . إن
الأحداث التي مرت منذ شهرين ، وأعمال التجسس التي واجهناها في بلادنا
من قبل الموسويين قد سببت لدولتنا خسائر كبيرة .
علاوة على ذلك فالموسويون كانوا يخططون لبناء دولة لهم على
أراضيها في فلسطين بعد اجلائنا عنها : لقد كان هناك اتفاق قائم بينهم وبين
الانكليز بهذا الصدد .

أعدكم بعدم أعدامهم

- إذاً فالصهيونية كشرت عن أنيابها !
- إن هذا قرارٌ تم اتخاذه في الماضي وليس قراراً جديداً ، والاتفاق المبرم
بين الموسويين والانكليز أمر واقع وحقيقي مثله مثل الاتفاق المبرم بين الشريف
حسين والانكليز حول انشاء دولة عربية كبرى .
وأثناء حديثها ، رن جرس الهاتف فتكلم جمال باشا وقال :
آلو نعم ، أنا قائد الجيش الرابع جمال باشا .
وسمع صوت خافت على الجانب الآخر من ساعة الهاتف .
وأنصت جمال باشا إلى المتكلم ثم قال :
- حسناً ، أعدكم بأنني لن أعدمهم بشرط أن يعترفوا بكامل الحقيقة .

وبمجرد أخذ افادتهم أرجو ابلاغي ذلك .

أغلق الباشا الهاتف والتفت إلى علي فؤاد باشا قائلاً :

- كان المتحدث ، قائد منطقة يافا . لقد تم اعتقال جاسوسين صرحا
بأنني إذا وعدت بالعفو عنها فسوف يعترفان بالحقيقة الكاملة . ولقد
أعطيتهما الأمان لنرى ما سيدليان لنا من معلومات .

- ولكني لا أفهم يا سعادة الباشا ، ماذا تفعل أجهزة استخباراتنا .
فئات النسوة تندس في قيادتنا ، ولا أحد يتعرف على هوياتهنّ ، ولا أحد
يعلم إن كنّ جاسوسات أم لا ، والعديد من قطاراتنا تنقلب بالمئات من
الناس ، ويهبطون خطة لاغتيالي ، والفارون حدث ولا حرج ، والاهانات
والخيانات تتوالى الواحدة تلو الأخرى ، ونحن واقفون دون حراك ، ولدينا
أجهزة استخبارات تعمل لدينا . هؤلاء مهرجون يا باشا ، هؤلاء
مهرجون...

صاح جمال باشا وقد أصابه الغضب :

- انظر إلى هذه السفالة ، في يافا يعتقل جاسوسان ، ولا يخشيان من
مفاوضات ومساومتي ، والقائد العسكري هناك ، يطلب الأمان لهما ، دون
مخجل ويهدف معرفة شيء منها قبلت طلبهما ، ووافقت على اعطائهما الأمان .

قل لي بحق السماء ، هل هذا أمر ممكن ؟ هل هذا أمر معقول !

الدولة العثمانية محاصرة من جميع الأطراف ، ونحن نقاتل على كل
الجبهات مع أعدائنا ، وأقرب الناس إلينا يطعنوننا من الخلف ، والبلاد في
حالة هيجان والنار مشتعلة فيها ، ونحن قابعون لا نأتي بأية حركة ، لماذا ؟
لأننا لا نعلم شيئاً عن أعدائنا . في حين أن أعداءنا يعلمون كل شيء
عنا ، إنهم يعرفون ما نأكل وما نشرب يا باشا !

لم يعد بوسعك الاعتماد على جهاز استخباراتك ولا على العاملين في
مكتب التحقيقات الأول ، هل تفهمني ؟

يجب استبدالهم جميعاً . جنودنا المسمومون في الجبهات ، ينتظرون جياً مرضى مشردين . وأجهزة استخباراتنا لا تفعل شيئاً . عليك بالبحث عن الشرفاء والأمناء يا باشا إنك قائد وحاكم هذه المنطقة والقائد الأعلى للجيش . إنك أنت المسؤول إن كانت سارة جاسوسة ، فقد كان على أجهزة استخباراتك معرفة ذلك قبلي ، وليس أنا .

اعتقال الجواسيس الموسويين

لم يكن علي فؤاد باشا يقول شيئاً . كان فقط يستمع إلى جمال باشا بإمعان ، ينتظر زوال العاصفة .

وبعد قليل ، رن جرس الهاتف من جديد .

- آلو ... يافا ... نعم أسمعكم ...

وعندما أقفل جمال باشا الهاتف قال لعللي فؤاد باشا :

- عليك بإخلاء يافا منهم يا باشا ، لأريد أن أرى أي موسوي

هناك . عليك بنقلهم جميعاً إلى الشام . ولكن لا تتعرض إلى كرامتهم ولا إلى أموالهم وممتلكاتهم . دع كل واحد منهم يحمل ما يشاء من ممتلكاته .

- هل هناك أنباء سيئة من يافا يا سعادة الباشا ؟

- نعم ، إنها أنباء سيئة ولكنها متوقعة . لقد اعترف الجاسوسان

الذان تم اعتقالهما ، بأنها كانا يعملان في شبكة سارة للتجسس في سبيل تجسيد حلم روتشيلد الذي جندت سارة كل الموسويين لتحقيقه .

فقد قرر الانكليز بالتعاون مع الموسويين والعرب اجلاءنا من هذه

البلاد ولكن قبل أن يطردوننا منها سنطردهم نحن . فإن لزم الأمر ، اطردها الموسويين من كافة القرى والمناطق والمستوطنات التي يعيشون فيها .

- كما تشاؤون يا سعادة الباشا . كنت سأطلب منكم ذلك بنفسني . لقد

تحدثت مع جمال باشا المرسيني في القدس وسيوجه إليكم خطاباً بهذا الخصوص ، فهو يريد اخلاء القدس أيضاً من الموسويين .

- حسنًا ، أخلوا القدس أيضاً . لأريد أن يبقى في القدس موسوياً واحداً . هؤلاء الذين رعيناهم وساعدناهم إنظر ماذا فعلوا بنا اليوم !
اتخذوا فوراً الاجراءات المناسبة ... واستفيدوا من الأبنية الحالية والشكنات وإذا لزم الأمر أسكنوهم المساجد ريثما نجد لهم المأوى المناسب .
- كما تأمرون يا سعادة الباشا . سأتصل حالاً بالحاكم خلوصي بك ليجهز الأبنية والمنازل الحالية لإيواء الموسويين الذين سيتم اجلاؤهم من المناطق المختلفة في البلاد .
- عليك بإنجاز هذا الأمر في أسرع وقت ممكن ولندعو إلى الله أن لا يكون قد فات الأوان .
- إن شاء الله يا سيدي سأسخر كل القطارات لهذه الغاية وفي أسرع وقت ممكن سيتم نقل أولئك الموسويين .
- اتصل أيضاً بالالمان في الشام والقدس وبيروت ، عليهم أيضاً استبدال ضباطهم في القيادة العسكرية ، وإعادة النظر في تنظيم أجهزة استخباراتهم ، وضبط عناصرها الذين يلهون كل ليلة مع الفتيات الموسويات ، للالتفات قليلاً إلى أعمالهم ومهاتهم ، فلا يقعون فيما وقعنا فيه .
- كما تأمرون سيدي ، سوف أقابل الالمان ، وسوف نتبادل الحوار فيما بيننا ، ونقوم باستبدال عناصرنا أيضاً في أجهزة الاستخبارات .

جمال باشا في موقف صعب

بعد رحيل علي فؤاد باشا ، بقي جمال باشا وحيداً في مكتبه ، وهز رأسه حزناً ثم قال :
- سارة ... سارة ... كيف فعلتِ هذا بي ؟ كيف يمكن أن تكوني جاسوسة ؟ وتذكر السنين الثلاث التي قضتها سارة بجانبه ، ساعة بساعة ، يوماً بيوم ، لحظة بلحظة ، كشريط سينائي .

كان جمال باشا يعشق سارة ، ويحبها كثيراً ، غير أن هذه الخيانة ، لا يمكن تحملها ولا يمكن غفرانها . لقد كانا كل ليلة معاً ، وكانت تقول له : « أنا خادمك يا سيدي » فتطلق بذلك العنان لمشاعره العميقة ... كانت تغمره بكل الشفقة والحنان كأنها الأم الحنون ، فينام في عينيها ويستيقظ في قلبها ، لقد أذاقته أجمل طعم للحب في العالم ، وكانت إلى جانبه الرفيقة المواسية والمداوية للكثير من المشاكل والتعب . كيف لهذه الفتاة الرقيقة أن تكون جاسوسة ؟

لم يستطع جمال باشا تقبل الأمر ، ولم يستطع هضمه ، وعلاوة على ذلك ، ماذا سيكون موقفه أمام تساؤلات الباب العالي؟ كل ذلك أصاب غروره في الصميم .

الموقف الراهن سيء جداً . السواحل محاصرة ، وقوات النبي لا تكف عن الاستيلاء على مناطق جديدة بعد تحريرها من القوات التركية ، وبقي جمال باشا وحيداً لا يعرف كيف سيتعامل مع هذا الموقف وكيف سيتصرف؟

في تلك الأثناء ، توجه مصطفى كال باشا إلى استنبول ليعزز من ترابط الباشاوات ويسوي خلافاتهم ، ثم توجه بعدها إلى المانيا للتنسيق مع القيادة الألمانية ، وعاد إلى فلسطين ليتم تعيينه قائداً لجهتها .

كان مصطفى كال وفوزي باشا (جقمق) وعلي فؤاد باشا (جيبسوي) وعلي فؤاد (أرديم) وكاظم باشا وعصمت إينونو يحاولون جاهدين العمل على استعادة ثقة الألمان بهم.

ومن جانبهم ، قام الألمان بإجراء تعديلات وتبديلات في صفوف قادتهم العسكريين بقصد الإعداد لهجوم ساحق ، وبدأت اللقاءات والاجتماعات تدور بين الألمان والأتراك .

فات الاوان

غير أن الاوان كان قد فات ، فالجيوش المرابطة على الجبهات تتقهقر تحت وطأة الجوع والمرض والتشرد .

ووصل الجنود المسلمون ، بعد أربع سنوات من الحرب الطاحنة ، إلى حالة الإنهاك . فالسنوات الأربع التي مضت لم تكن سهلة ، إذ لا يمكن لأي إنسان بعد أربع سنوات من الصمود في مثل تلك الظروف أن يستطيع الاستمرار.

ولكن ومع ذلك ، فقد كانت العقيدة الاسلامية القائلة « إن قُتِلَ فأنْتَ شهيد وإن لم تمت فأنْتَ غازٍ » تدفع هؤلاء الجنود إلى الاستمرار في قتالهم مع الانكليز .

من ناحية أخرى ، وأمام نقص الامدادات والمساعدات للجيوش التركية ، بدأت هذه القوات بالتقهقر عن العديد من الأراضي التي كانت قد استولت عليها وحررتها .

تقارير سينة

كانت التقارير اليومية الواردة إلى جمال باشا أشبه بالكوابيس ، لقد تم اجلاء معظم الموسويين من القدس. ولكن والي وحاكم الشام بدأ بتقديم الشكوى إلى جمال باشا المرسيني حاكم القدس .
- « أرجوكم كّفوا عن ارسال المزيد من الموسويين إلى هنا ، لم يبق لدي مكان لإيواء موسوي واحد » .

وفي حين كان يتم القاء القبض كل يوم على جاسوس موسوي جديد في القدس ، بدأ الموسويون يعملون علناً على اسقاط الحكم التركي . فتم اعتقال ستين بالئة ممن كانوا يعملون ضمن شبكة سارة التجسسية وإبادتهم .
كما تم اعتقال التير وزجه بالسجن ، وتم اعدام ليديا وكباس والآنسة

سيمون والعديد من الموسويين الآخرين.
وكان أكثرهم يدفع الأموال الطائلة لينجو بعنقه من حبل المشنقة
ويهرب من المشول أمام المحاكم العرفية .
لم يكن جمال باشا يعرف ماذا يفعل وهو يواجه كل هذه الأحداث في
بلادته ، لقد استجر ما يقارب سبعة ملايين قطعة ذهبية سنوياً من خزانة
الدولة العثمانية لإدارة أموره في هذه المنطقة ، فقد كان حامياً وراعياً للمصالح
العربية في بلادته .

ودفع كل هذه المبالغ لتأمين حماية هؤلاء العرب والدفاع عنهم .
غير أنه فشل في تحقيق مآرب الدولة التركية وعلى العكس فقد خلق
نتيجة لأعماله ، عدواً جديداً داخل بلادته ، وهو عصيان العرب اضافة إلى
هذه الضربة المؤلمة التي تلقاها جمال باشا من الموسويين ولم تكن بالحسبان .
لم يتلق حزب الاتحاد والترقي ، من الموسويين إلا المساعدة والدعم . لقد
عمل عمانوئيل قره صو ، ورئيس الحاخامات نعوم أفندي بجد ونشاط على
مساعدة الحزب وقدما له خدمات جلّى . وعملاً أيضاً على ولادته بكل أمانة
واخلاص حتى وصوله إلى سدة الحكم بعد الإحاطة بعرش عبد الحميد ،
وبأيديهم صنعوا التشكيلات الاتحادية وهم يريدون الآن أن يطيحوا بنا كما
فعلوا بالسلطان عبد الحميد ؟ فأين خبأوا هذا اللؤم كل هذا الوقت ؟ وهل
يمكن من أجل حفنة تراب في فلسطين لكي يقيموا عليها الدولة اليهودية أن
ينقلبوا ضدنا إلى هذا الحد سعياً لتهديم كيان الإمبراطورية .

كان جمال باشا يفكر بكل هذا متأملاً ما حدث ، وقال في نفسه : لو
أن هؤلاء العرب وهؤلاء الموسويين طلبوا منا الاستقلال ، ألم نكن نمنحه
لهم ؟ ألم نكن نساعدهم على بناء دولة مستقلة لهم ترتبط بدولتنا العثمانية ؟
لقد أهمل طلعت باشا وأنور باشا فكرة الاعتراف بحقوق تلك
الأقليات ، العربية والموسوية وكان هدفهما التعاون مع الحلفاء في حربهم ليس

إلا ، ففكر جمال باشا بدعم فكرتهم هذه للخروج من محنته تلك ، ولكن الأوان مرة أخرى قد فات .

جمال باشا يقرر مغادرة الشام

عين جمال باشا في ١٢ كانون الثاني ١٩١٧ جمال المرسيني وكيلاً عنه وقرر أن يترك الشام ، وكأنه قد أعطى لنفسه إجازة أمام الآخرين ، لقد كان قراراً مؤلماً حزناً في نفسه كثيراً .

وهكذا عندما همّ بالصعود إلى القطار أحس بالذل الذي أحاط به ، تاركاً وراءه ذكريات أليمة ، وأخذ يتذكر استشهاد الآلاف من جنوده البواسل ، الذين ضحوا بأنفسهم لحماية هذه الأراضي ، وها هو اليوم يتركها مكرهاً ، رغم أنه عمل على رقيها وتمدها ، وتساءل ألم يكن هو الذي أقام المدارس والمعاهد ، وعهد للسيدة خالدة أديب وإخوتها بإدارتها لينشروا العلم والأدب .

وأقام علاقات صداقة عديدة مع الكثير من العائلات في الشام . وكان له اسماً مرموقاً بينهم . فبقدر ما كان قاسياً ، كان طريفاً وليناً ، علاوة على أنه كان من رجال الصالونات والبروتوكولات الاجتماعية . لقد كان نبأ انتحار سارة ، ونكسة الجبهات ضربتين قويتين أثقلتا كاهله .

لم يكن جمال باشا متفاءلاً بعد ما حدث ، نتيجة الحرب القائمة . فقرار الخامس من نيسان عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر ، الذي اتخذته أمريكا وتحالفت مع الانكليز على أثره ، كان حقيقة لا بد له من مواجهتها .

فتحالف أميركا مع الانكليز في وجه الألمان ، كان يعرفه جمال باشا ويحاول نسيانه وعدم تذكره ، إلا أن الحقيقة كانت دائماً أمامه ، أما اليوم ،

وهو يتخلى عن مسؤولياته ، وعن المهات الملقاة على عاتقه وما يحمله من رتب عسكرية ومكانة ومنصب عسكري فعليه أن يكون المسؤول الأول في مواجهة هذه الحقيقة .

أراد جمال باشا التملص من هذه المسؤوليات بأن يهرب من الشام تاركاً وراءه كل تلك الأزمات ، فغادر الشام وعيناه تذرغان دمعاً على ما ترك وراءه .

وعند وصوله إلى الأناضول ومشاهدته لحالتها المتردية المزرية من الخراب والدمار ، ازداد حزناً وهماً . وأحس بحرقه في حلقه وقال في نفسه ، « لو أننا صرفنا كل تلك الأموال التي بذلناها للعرب ، على هذه الأراضي لكان أفضل لنا » ولكن الآن في أبهى حلتها مليئة بالخيرات الوفرة . بدلاً من رؤيتها هكذا صفراء يابسة .

أقر جمال باشا بأخطائه التي ارتكبها ، ولم يعد يرى الأراضي الأناضولية من نافذة القطار ، فذاكرته حملته من جديد إلى الماضي ، إلى الشام ، إلى الجبهات ، حيث ترك أولاده الجنود تكفهم تلك الأراضي الجرداء الحارة ، تحت وطأة الجوع والتشرد والمرض ، لقد نجل مما صنعت واقترفت يدها هناك ، وهنا. هناك بتركه لأبنائه الذين ينتظرون دعمه ومساعدته ، وهنا لإهماله هذه الأراضي ، فبدلاً من بذل الأموال لزرعها وبناءها ، راح يبذل الأموال على العرب لكسب ودهم ومحبتهم، وما زاده حزناً وتألماً موقف العرب في ردمه للمعروف والخير الذي أعطاهم إياه .

نجل جمال باشا من نفسه عندما تذكر هؤلاء الجنود المساكين ، الذين أرسلهم إلى القناة ، حفاة عراة ليقعوا في أسر الانكليز دون شفقة ولا رحمة . كان الحزن يأكله كلما تذكر أعماله التي قام بها في الشام وهذه المنطقة . وقرر تقديم استقالته عند وصوله إلى استنبول . بعد رحيل جمال باشا لم تصمد الجيوش أكثر من عام . إذ أن القائدين

التركي والألماني ، جمال باشا وفالكنهاين ، انسحبوا من مناصبها العسكرية .
وكان الجنرال ليمان فان ساندروز قد استلم وتولى قيادة الجيوش الألمانية
المقاتلة ، لكنه عند رؤيته أوضاع هذا الجيش والوضع العام بهذا السوء ،
قدم هو الآخر استقالته لاحقاً .

تولى بعد ذلك مصطفى كمال باشا الأمور في البلاد ، لكنه سرعان ما
قرر انسحاب الجيوش التركية من سوريا ، نظراً للوضع المتدهور في الداخل .
فبدأ ينسحب شيئاً فشيئاً ، بادئاً بالقرى والمناطق وصولاً إلى حلب
حيث دارت فيها حرب شوارع دامية كبذته خسائر فادحة لكنه استطاع
انقاذ ألوف الجنود المسلمين ورد الموت عنهم بإنسحابه هذا .

وفي عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر ، وفي الأسبوع الأول من شهر
تشرين الأول دخلت القوات الانكليزية إلى الشام بقيادة الجنرال اللنبي الذي
نحى الحكومة العربية التي كانت قد تشكلت في المناطق المحررة من البلاد بعد
رحيل الأتراك عنها .

وهكذا سيطرت القوات الانكليزية والفرنسية على هذه المنطقة .
وبعد استقبال المواطنين للجنرال اللنبي ، بعضهم بالفرح وبعضهم
بالدموع ، توجه إلى الجامع الأموي في آخر سوق الحميدية قاصداً قبر صلاح
الدين الأيوبي ، هناك بجانب المسجد حيث قال :

عليك أن تذكر بأن النصر لن يكون إلّا لنا ، وأن أكبر دولة إسلامية
مع حلفائها قد انهارت وركعت عند أقدامنا . وسوف لن تقوم للإسلام قائمة
ما دمنا نحن الصليبيين أحياء .

هذا الكلام الذي قاله اللنبي عند مدفن صلاح الدين الأيوبي أيقظ
العرب من سباتهم فعملوا بعمق الفاجعة التي أصابتهم .
كان عليهم بالأمرس حمل السلاح لطرد الأفندية الأتراك من البلاد .
واليوم عليهم حمل سلاحهم ثانية لطرد السادة الجدد الذين وطئت أرجلهم

بلادهم ، وداست كل القيم الاسلامية فيها . فبات الشرق العربي المسلم مهاناً ومداساً ، الآن فقط ، علم العرب وعرفوا كبر الفاجعة التي أصابتهم .
وبسقوط دولة سوريا ، قررت الدولة التركية توقيع معاهدة الصلح مع الانكليز . وكان في الجانب الانكليزي المفاوض النائب عمانوئيل قره صو والحاخام نعمون أفندي وهما أصحاب المراكز في تركيا ومن زعماء الصهيونية بالوقت ذاته والليذان منحتها الحكومة الانكليزية صلاحيات وامكانيات التفاوض مع الأتراك .

ووقعت الحكومة التركية على معاهدة صلح مع الحكومة الانكليزية بشروط مجحفة . ولدى اعتراض بعض السياسيين الانكليز على تعيين نعمون أفندي وعمانوئيل قره صو في لجنة توقيع المعاهدة ، ردت الحكومة عليهم بأنها سيقدمان دعماً مالياً كبيراً للحكومة .

لكن الحقيقة مختلفة تماماً فنعمون أفندي ، كبير الحاخامات وعمانوئيل قره صو كانا جاسوسين عملاً لحساب القوات الانكليزية أثناء تواجد القوات التركية على أراضي سوريا ولبنان .

تم توقيع المعاهدة وسميت معاهدة مندروس . فأجبرت بنود هذه المعاهدة الحكومة التركية على الانسحاب من الجبهات الأربع القتالية .

إلا أن الجنود الأتراك والضباط المتواجدين على كافة الجبهات رفضوا الانصياع لأوامر الباب العالي بالانسحاب ، ورفضوا الاعتراف بهذه المعاهدة . حتى حاكم المدينة غفر الدين باشا لم ينصع لأوامر الباب العالي ، ورفض الاعتراف بالمعاهدة التركية - الانكليزية . وظل يحارب القوات الانكليزية فيها حتى آخر رجل ، رافضاً استقبال وفد يضم الانكليز وبعض العرب لتسليم المدينة وأمر بنقل قيادته إلى جوار قبر الرسول الكريم واستبسل في الدفاع عنه حتى أسر واقتيد إلى مصر .

اقتسام الدولة العثمانية

وبدأت الامبراطورية العثمانية تتجزأ ، فالفرنسيون يريدون الحصول على سوريا ولبنان .

ولما كان فيصل قد أُصيب بضربة مؤلمة من الانكليز فقد أبعد عن سوريا ، وتم تعيينه ملكاً على العراق .

أما الشريف حسين فبقي مدة في الحجاز يحكمها حتى تم استدعاء ابن سعود من النجف وتم تسليمه الحكم في الحجاز . واستطاع الشريف حسين بالكاد النجاة بروحه غير أن الانكليز تمكنوا من القبض عليه ، وحكموا عليه بالنفي إلى قبرص .

وقد رافقه خلال رحلته إلى المنفى ابنه فيصل وعندما وصلوا إلى سواحل قبرص قال الشريف حسين لابنه :

« لقد خُنا الدولة العثمانية ، وتسببنا بمقتل الألوف من الجنود المسلمين ، فليغفر الله لنا . »

ورد الأمير فيصل على والده مواسياً :

كلا يا أبي ، نحن لم نحن أحداً ، نحن نريد إقامة دولة عربية كبرى على هذه الأراضي . فبعد اليوم ، لن يكون للعرب المسلمين إلا علم واحد في مسيرتهم نحو التقدم والازدهار والحرية والاستقلال وسلطة عربية واحدة تحكم البلاد فسأله الشريف حسين .

ومن سيكون ملك هذه الدولة العربية الكبرى؟

فأجاب فيصل :

- أنا يا والدي ، أنا سأكون حاكم هذه البلاد .

وابتسم الشريف حسين بمرارة وقال :

إذا أصبحت تلك الدولة تحت إدارتك فأنا منذ الساعة أتألم لمصير

هذا الشعب ، يا لهم من مساكين هؤلاء العرب !

الله وحده يعلم ، كم ستراق دماء نتيجة تخيلاتك وأحلامك .
وفعلًا ، وبعد عدة سنوات قتل فيصل مسمومًا . وجاء إلى الحكم
مكانه ، ابنه غازي الذي أعدت له فيما بعد عملية اغتيال فذهبت ضحية حادث
سيارة مفتعلة في العراق .

وشهد العالم بعد ذلك انهيار العائلة الحاكمة في العراق التي ترأسها
فيصل الثاني حفيد فيصل وابن غازي ، بشكل لم يسبق له مثيل على أيدي
نوري السعيد باشا^(١) .

فلم يتركوا أحداً من العائلة إلا وقتلوه : طفلاً وامرأة وشاباً وشيخاً .
أما عبد الله بن الحسين ، الذي تم تعيينه قائداً للقوات العربية فقد تم
اغتياله طعنًا بالخنجر عند مدخل باب مسجد عمر في القدس .

في حين أصيب ابنه طلال ، الذي خلفه بالجنون ونقل إلى استنبول
وأدخل إلى المشفى العسكري للأمراض العقلية فيها للمعالجة التي دامت عدة
سنين واستلم ابنه حسين الحكم في شرق الأردن

وهكذا كان الانكليز يمزقون العرب الذين ساندوهم ضد الأتراك ،
ويغتالونهم ويعملون على تصفيتهم ، والعبث بأفكارهم وزرع الانشقاقات بينهم
والتأكيد على أن كل المصائب التي حلت بهم كانت بسبب الأتراك ، وفي
فلسطين أقيمت دولة فلسطين بحماية الانكليز . وسكن فيها أغلبية الموسويين
القادمين من كافة أنحاء العالم .

ومع الزمن ، سيستوطن الموسويون فلسطين وفي نهايات الحرب
العالمية الثانية ، ستنشأ لهم دولة تسمى اسرائيل .

(١) لا شك في أن الكاتب أراد أن يقول أن نوري السعيد قد ألحق الضرر بالعائلة الهاشمية
الحاكمة في العراق ، لأن ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، هي التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب وقضت
على رموز الحكم البائد وعلى رأسهم نوري السعيد والأمير عبد الله وفيصل الثاني . ابن الملك
غازي بن فيصل الأول .

وهكذا ، نجد الانكليز والعرب والموسويين الذين تكاتفوا ، خلال الحرب العالمية الأولى ، يتناحرون ويتقاتلون في الحرب العالمية الثانية وغرقت المنطقة (منطقة الشرق الأوسط) ببحر من الدماء .

وأثناء الحرب العالمية الأولى ، لو لم يرتكب العرب هذا الخطأ ولو أنهم حاربوا الانكليز والموسويين ، لو فعلوا ذلك ، لما سجل التاريخ سلسلة الحروب التي جرت بينهم وبين الاسرائيليين .

وبناءً على هذه الاعتبارات، ومع انهيار الامبراطورية العثمانية ، تم تقسيم الشرق الأوسط بين العديد من الدول .

ولم يكن الانكليز قد وضعوا في حساباتهم مطامع الدول في هذه المنطقة ، فقد انحصر همهم في إفناء العرب بعد انتصارهم على الأتراك لتفريغ الساحة لهم، ولكنهم لم يواجهوا حقيقة وجود مطامع دولية حول هذه المنطقة. أما حزب الاتحاد والترقي ، فقد تمت تصفية كل أعضائه من قبل الانكليز بعد انهيار العثمانيين ، هرب جمال باشا وأنور باشا وطلعت باشا ، في إحدى الليالي على متن غواصة المانية ، إلى روسيا ثم إلى المانيا .

وبعد أن أمضى بضعة أشهر في بلاد الغربية بالمانيا، طرح أحد الأرمن طلعت باشا أرضاً برصاص مسدسه، وأطلق أرمني آخر رصاصة على جمال باشا عام ألف وتسعمائة واثنين وعشرين في مدينة تفليس^(١) في منتصف إحدى الليالي ، وأرداه قتيلاً .

وأخيراً قتل أنور باشا على يد أحد الشيوعيين في المجر بعد أن فر من روسيا إلى أفغانستان ومنها إلى المجر .

كما اغتيل معظم أعضاء حزب الاتحاد والترقي وأعوانه ، وحكم على بعضهم الآخر بالإعدام .

(١) تفليس (تبليسي) ، عاصمة بلاد الكرج . كانت جمهورية سوفياتية واليوم هي الجمهورية الكرجية المستقلة .

لقد كتب التاريخ في صفحاته كيف تمت تصفية أولئك الذين خانوا أمتهم وإسلامهم ، وتسببوا في مقتل الآلاف منهم دون سبب أو مبرر . بدءاً من سلالة الشريف حسين وصولاً إلى أعضاء حزب الاتحاد والترقي ، وقد أوضحن لكم بإيجاز كيف نالوا عقابهم .
أما الآن ، دعونا نرى ما حصل للموسويين الذين طعنوا الأتراك العثمانيين من الخلف .

لقد قرأتم كيف كانت نهاية سارة المفجعة وكيف أنها انتحرت ، فبعد انتحار سارة ، سقطت مدينة القدس على أيدي الانكليز ، وعاد آهارون والكسي إلى القدس ، وفي رحلة إلى لندن ، للانضمام إلى مؤتمر للموسويين ، سقطت الطائرة . وقتل آهارون ، أما الكسي فقد قتل بانفجار محرك سفينة مع خمس وستين مهاجراً كانوا متجهين إلى حيفا إثر عاصفة هوجاء .
أما ربيكا ، فقد أصيبت بالجنون بعد سماعها نبأ انتحار أختها سارة وتوفيت بعد مدة طويلة قضتها في مشفى للأمراض العقلية .
في حين أن سام ، أحد أخوة سارة ، مات متأثراً بالحروق التي أصابته لدى نشوب حريق في إحدى الخنازات التي كان فيها ، حين خرج والنار تلتهمه .
وانتحرت والدة سارة ، بإلقاء نفسها من القطار أثناء إجلاء الموسويين من القدس بناءً على أوامر جمال باشا .

أما الجاسوس لورانس^(١) ، الذي قام بتخريب معظم الخطوط الحديدية وتسبب في مقتل آلاف من المجاهدين المسلمين ، فقد قتل إثر حادث دراجة نارية مفجع تهمش فيها رأسه وانهرس دماغه ، كما أن العديد من الذين تعاونوا مع لورانس وسارة لقوا مصرعهم إما قتلاً ، أو حكم عليهم بالإعدام ،

(١) لورانس ، الذي أطلق البعض عليه لهماقتهم . اسم « لورانس العرب » عميل بريطاني من أصل يهودي ، اتصل بشريف مكة الحسين وأبنائه . صاحب كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » (١٨٨٨ - ١٩٣٥) .

فأولئك الذي لعبوا بقدر أمة ، أولئك الذين دمروا هذه الأمة ، هكذا كانت نهايتهم .

لقد شاهدتم كيف استشهد الآلاف من المجاهدين الأبرياء وكيف قتل مئات الألوف من الناس ، نتيجة خيانة شرذمة من الجواسيس وإدارة كتلة من القادة اللامبالين ، وأخطائهم ، ورأيتم كيف دُمّرت الامبراطورية العثمانية.

وأريد أن أذكركم وانبهكم بضرورة الاحتراس من الطامعين ببلادنا ، وبناء على هذه الاعتبارات وما شاهدناه من أحداث مؤلمة فإن على الذين يحملون مسؤولية أمن واستقرار شعوبهم ، ويقومون برسم سياستهم وخططهم الحياتية أن يتصرفوا بشكل لائق وحكيم يعود بالفائدة والخير على الأمة كلها .

النهاية المؤلمة

مع بداية عام ألف وتسعمائة وثمانية عشر ، بدأت الامبراطورية العثمانية التي دخلت الحرب عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر بالتزق . وفي بداية عام ألف وثمانمئة وثمان وثمانون كانت الجهات الصهيونية قد باشرت اتصالاتها ومناقشاتهما مع أطراف عديدة لتأسيس دولة موسوية لهم.

وهكذا ، تم تسخير سارة آرونسون في بداية عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر ، لتجسيد هذا الحلم الصهيوني ، ولكنها ، أي الجهات الصهيونية لم تتمكن من تحقيق مآربها في المدة التي كانت تتوقع تحقيقها .

وفي عام ألف وتسعمائة وثمان وأربعون ، أنشأت دولة اسرائيل ، وبعد تأسيس هذه الدولة ، دخل الموسويون مع العرب في ثلاثة حروب دامية ، ومازالوا في حالة حرب فيما بينهم . فهذان الطرفان ، اللذان كانا في إحدى الأيام في جبهة واحدة ، لم يستطيعا اقتسام ميراث الامبراطورية العثمانية .

فالعرب ، الذين كانوا يحملون «بدولة سوريا الكبرى» «والامبراطورية العربية الكبرى» بقيت هذه الأحلام في خيالهم دون أن يستطيعوا تجسيدها على أرض الواقع. والقادة العرب الذين كانوا يحكمون العرب في سنوات الألف وتسعمائة ، قضوا أصابعهم ندماً على دورهم الفعّال في اسقاط وتدمير الامبراطورية العثمانية .

وهكذا أصبح العرب فيما بعد ولمدة ثلاثين أو أربعين عاماً تقريباً ، مرغنين على مواجهة الموسويين^(١) من جهة والدول الأخرى مثل انكلترا وفرنسا من جهة ثانية ودامت هذه الحروب حتى أعوام ألف وتسعمائة وستون

(١) من الأمور التي تسترعي الانتباه ، أن كاتباً مثل (غيب عازوري) قد انتبه إلى أمر ، غاب عن أذهان بعض الزعماء العرب (من ملوك ورؤساء دول) ومفكرين ، منذ مطلع هذا القرن =

و ألف وتسعمائة وسبعون .
أما في الشرق الأوسط ، أي على أراضي الميراث العثماني ، فلقد استمرت الحروب الدامية سنين عديدة .
وتم انشاء الدول التالية في الأراضي التي كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر عليها :
١ - مصر ، ٢ - العربية السعودية ، ٣ - اليمن الجنوبية ، ٤ - اليمن الشمالية ،
٥ - عُمان ، ٦ - الامارات العربية المتحدة ، ٧ - الكويت ،
٨ - البحرين ٩ - قطر ، ١٠ - العراق ، ١١ - سوريا ، ١٢ - الأردن ،
١٣ - لبنان ، ١٤ - اسرائيل ، ١٥ - ... وفي النهاية دولة فلسطين التي أُعلنت في المنفى في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني عام ألف وتسعمائة وثمان وثمانين في الجزائر .

= وحتى يومنا هذا . فهي هو يقول في كتابه : يقظة الأمة العربية ، في عام ١٩٠٥ .
« إن ظاهرتين هامتين ، متشابهتي الطبيعة بيد أنها متعارضتان لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن تتضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية أعني : يقظة الأمة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع » . ومصير هاتين « الحركتين هو أن تتعاركا باستمرار حتى تنتصر احدهما على الأخرى وبالنسبة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعيين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه . وليس للمرة الأولى على كل حال تناقش في الأقطار العربية مصالح أوروبا في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحاً لأحداثٍ سياسية أو دينية قلبت مصير العالم بأسره . »

كاتب هذه الرؤى السياسية الصائبة - والتي لم يدركها حتى يومنا هذا بعض العرب - هو (نجيب عازوري) ، المولود في عازور ، قرية صغيرة في قضاء جزين اللبناني . شغل منصب مساعد حاكم القدس ما بين ١٨٩٨ - ١٩٠٤ ، قبل اعتزاله المنصب واللجوء إلى مصر ، هرباً من بطش الحكام الأتراك . انظر لتفاصيل أوسع الترجمة العربية عن الأصل الفرنسي ، الصادر في باريس عام ١٩٠٥ : (نجيب عازوري ، يقظة الأمة العربية ، تعريب وتقديم . الدكتور أحمد بوملحم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

كلمة أخيرة

بعد أن قرأتكم هذا الكتاب ، بقلم صحفي حاول جاهداً ، أن يقدم كتاباً ، ليس بالقصة التي تسرد أحداثاً تاريخية ، ولا هو مجرد تكديس للمعلومات ، إنما يمكنكم اعتباره شيئاً من هذا وذاك ، فالأساء الواردة فيه حقيقية تماماً والأحداث بكل مجرياتها متطابقة مع الواقع فهل ألام على ذلك ؟ إن مسؤوليتي تنحصر في مجانبتي الحقيقية والواقع ، وأبتهادي عن معايير العمل الصحفي وأمانته .

أنا في كتابي هذا ، لم أشأ ايذاء أحد ولا تحقير أحد ، ولا تعظيمه ، إن ما كتبته ، هو حصيلة عمل صحفي دام خمسة وثلاثين عاماً ، ولما كنت أرغب في تقديم واجبي الوطني ، أخذت القلم بيدي وبدأت الكتابة. ولو أي لم أكتب هذا الكتاب ولم أفرغ ما في ذاكرتي من أحداث ، لعذبني ضميري طويلاً ، ولعشت في هذا العذاب مدة طويلة .

الآن ، وقد قرأتكم هذا الكتاب وعلمتم ما جرى من أحداث ، وشاهدتم كيف دمرت الامبراطورية العثمانية . فإن معرفة العدو القديم يساعدنا على التعرف على أعدائنا القادمين ، أليس كذلك ؟ إنما لا نستطيع أن نملي على المسؤولين الذين يديرون بلادنا وعلى الشخصيات التي تخطط لمستقبل بلادنا ، ما عليهم القيام به ، كما أنهم لا يستطيعون التنبؤ بكل ما قد يحصل في المستقبل ، وإلاً لكانوا من أولياء الله ... وجهلهم لما سيحدث في المستقبل يعرضهم لارتكاب الأخطاء ولعذاب الله لهم ، وهؤلاء سموتون يوماً ما أليس كذلك إن التاريخ هو الذي يقول لنا ، وهو الذي يظهر لنا تلك الأحداث كما حصلت ، وهكذا نرى من خلاله الأشياء ، ومنها نستطيع أن نحكم عليها .

إني أقدر حزنكم وتأثركم بما قرأتموه ، كنت حزيناً ومتأثراً لوحدي كل تلك السنين الماضية ، واليوم جعلت منكم شركائي في حزني وتأثري هذا .

ولكن أرجوكم ، أن لا يذهب البعض إلى محاربة هذه الحقائق وهذا التاريخ ويعتبر نفسه أصدق منه ويقف في وجه هذه الحقائق التاريخية ، فلنعتبر ولننتخذ دروساً من هذا التاريخ ومن أخطائه فكل واحد عليه أن يعين النظر ويتأمل ملياً في هذا التاريخ . ويتخذ منه عبرة ويعمل من أخطائه دروساً له .

والآ فإننا بارتكاب مثل تلك الأخطاء ، ومحكمة التاريخ ثانية لن نخرج من وسط هذه الجمعجة ، فالعمر سوف ينتهي والأخطاء لن تنتهي . علينا أن نأخذ عبرة من صفحات التاريخ المغبرة هذه ، ولنترك الأحداث التي جرت فيها ، تنام بهدوء بين صفحاته .

ولا تنسوا ، هذا ليس مجرد سرد تاريخي وليس سرداً للأحداث ، وليس أيضاً بصورة أو أخرى رواية ... !
الثلاثون من شهر تشرين الأول عام ألف وتسعمائة وثمان وثمانون

ينيكوي

مع تحياتي
لطفي أكدوغان .

شهادات ملوكية

للطفي أكدوغان

عاش صاحب اللقب الصحفي والسياسي ، بين زملائه الصحفيين ولم يكن غريباً عنهم أبداً . فاهتم بالأمور الانسانية وشرح لعبة «القدر» وكان من بين الذين يؤمنون به ويسلمون .

والمصادفات التي واجهها أكدوغان عام ألف وتسعمائة وخمسين ، في انطاكية مسقط رأسه كان لها دور كبير في حياته المهنية .

عندما بدأ لطفي أكدوغان يمارس مهنة الصحافة ، عام ألف وتسعمائة وخمسين ، كان يتكلم اللغة العربية بالاضافة إلى لغته التركية ، ولامتميازه بهذه الامكانية ، أصبح أكدوغان من الصحفيين البارزين .

ذلك الصحفي ، الذي لم يكن يعرف بعد ، كيف يجمع الأنباء من هنا وهناك ، غير أن معرفته للغة العربية كانت مساعداً في تقدم مهنته وشهرته . كان أكدوغان صلة وصل بين أبناء بلده والدول العربية ، حيث كانت الأنباء ترد إلى الصحافة التركية باللغة الانكليزية ، وغالباً ما كانت لا تصل إلى الأتراك لصعوبة نقلها من اللغة العربية .

ففي ربورتاجه الأول عن العالم العربي عام ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين حصل أكدوغان على اهتمام جماهيري وحتى على اهتمام رئيس الجمهورية التركية آنذاك جلال بيبايار .

وكانت نقلته النوعية ، تغطية لأحداث قناة السويس عام ألف وتسعمائة وست وخمسين ، فاستفاد أكدوغان من علاقته بأصدقائه في القناة لتغطية أبناء الأحداث هناك . وكان ينقل إلى القارىء التركي مجريات الأحداث

داخل الدول العربية المجاورة ، وكونه صحفياً ، فكان ينقل صوراً حية لهم .
بعد ذلك ، وبين عامي ١٩٦٧ - ١٩٧٣ تمكن أكدوغان ، لكونه مراسلاً
حريباً ، من تغطية كل الأحداث وأظهر في ذلك براعة فائقة في كشمير ، وفي
الهند ، واستطاع أكدوغان في اليمن ، نقل الأحداث الجارية بين الملكيين
والجمهوريين .

وأثناء فترة الاحتلال الأجنبي ، لسوريا والعراق والجزائر كان أكدوغان
يعيش الأحداث كاملة .

لقد استطاع أكدوغان التقرب من رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزراء
في تلك الجمهوريات والدول في منطقة الشرق الأوسط وأقام علاقات صداقة
معهم بالإضافة إلى مهنته الصحفية .

وخلال أعوام الخمسينات ، بدأ أكدوغان نشاطه داخل الحكومة
التركية بصفته أحد الخبراء لمنطقة الشرق الأوسط وعمل في سبيل توطيد
أواصر الصداقة بين تركيا والدول المجاورة .

فكان ، علاوة على ذلك ، يقوم بإجراء اتصالات مع الأطراف المعنية
لتحقيق ذلك . وهكذا بدأت حملة الصداقة التركية - العربية تسير في مسارها
الصحيح والحقيقي .

وفي عام ألف وتسعمائة وخمسة وستين رشحه «حزب العدالة» لشغل
منصب نائب في مجلس الشعب ولم يتخلى رغم مسؤولياته الجديدة تلك عن
مهمته كصحفي .

فكان لطيفي أكدوغان يواجه زملاءه الصحفيين ، من خلال وجوده في
البرلمان التركي . وأجرى أكدوغان تحولات وتعديلات كبيرة وهامة في مسار
الدولة التركية نحو المستقبل الأفضل والمشرق .

وساعد لطيفي أكدوغان دولته وبلاده على الانفتاح على العالم
الاسلامي وكان اكدوغان صلة وصل وجسر تفاهم بين حكومته التي كان

يترأسها سليمان ديميريل رئيس الوزراء التركي ، حيث نقل رسائل شفوية ومكتوبة بين حكومته وبعض رؤساء الدول العربية المجاورة ، ولعب دوراً هاماً في توطيداً أواصر الصداقة بين دولته والدول العربية الأخرى .
وأقام لطفي أكدوغان علاقات صداقة وتعارف مع العديد من رؤساء وملوك الدول العربية من بينهم :

الزعيم المصري جمال عبد الناصر والرئيس المصري أنور السادات والملك فيصل الثاني والملك سعود ، وأمراء الكويت ، والبحرين وقطر والامارات ، ورئيس ليبيا القذافي وعلي عبد الله صالح في اليمن ، وكذلك في الصومال والجزائر وسوريا ، ولبنان والعراق والباكستان وغيرهم من رؤساء الدول العربية والاسلامية . لطفي أكدوغان ، منذ الخمسينات وحتى يومنا هذا عمل خلال ستة وثلاثين عاماً بالأحداث والمواقف المشيرة .

وكان يجمع في مكتبه أرشيف كل هذه الأحداث .
واليوم ، يملك أكدوغان أرشيفاً من الصور والمقالات والبيانات التاريخية عن الدول العربية ويعتبر أحد الصحفيين النادرين الذين يحوزتهم مثل هذا الأرشيف .

ويقدر أرشيف لطفي أكدوغان اليوم بخمسة ملايين دولار وأكثر .

- السابع من تموز عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين .

يانكي

الطريق إلى الملايين

العام : ألف وتسعمائة وخمسين .
المكان : استنبول .

لطفي أكدوغان ، محرر زاوية الأحداث في صحيفة الصباح الجديدة يأتي كل يوم من اكسراي إلى دار الصحيفة مشياً على الأقدام .
وحسب ما صرح به ، فإن طعامه اليومي كان بعد اثنين وثلاثين عاماً من الجهد والعمل ، مؤلفاً من السميد والشاي وشورية العدس .
كان أكدوغان ، الصحفي التركي الوحيد ، الذي غطى أحداث القناة في مصر . وحاز على اهتمام الزعيم المصري جمال عبد الناصر لكل أعماله وكتاباته .

العام : ألف وتسعمائة وثلاثة وستين
المكان : أنقرة

لطفي أكدوغان يضع جانباً مهنته الصحفية ، ويقوم بدور المراسل الدبلوماسي بين اينونو والرؤساء العرب في سلسلة من اللقاءات معهم على طريق الانفتاح بين بلدة وتلك الحكومات .

العام : ألف وتسعمائة وخمسة وستين

المكان : أنقرة

محرر زاوية الأحداث في صحيفة الصباح الجديدة وبعد خمسة عشر عاماً من العمل ينضم إلى حزب العدالة التركي ويعمل على تأسيس مجلس وطني كبير في البلاد .

العام : ألف وتسعمائة وسبعين وما بعده

المكان : لبنان

صحفي الخمسينات وسياسي الستينات ، لطفي أكدوغان يقوم بدور المفاوض بين رئيس الجمهورية المصرية ، عبد الناصر والملك سعود ملك العربية السعودية ، لاعادة الوفاق بينها ونال ثقة الطرفين في سياق مهمته تلك .

العام : ألف وتسعمائة واثنين وثمانين

المكان : استنبول

لطفي أكدوغان ، يصبح رجل أعمال ملياردير يعيش وسط خدمه وحشمه وسكرتيراته في قصر بناه صدر الزمان سعيد حليم باشا ، وكأنه أمير . قالوا : « حتى لو أصبح المرء ديكاً تبقى عينه تفتش عن القش . » فإزال أكدوغان يمارس هوايته ، فأينما توجه ، يمارس هوايته الصحفية ، فلا يبالي بهوية من يقع بين يديه ، أكان وزيراً أم رئيس وزراء فإنه يدور في

النطرو ويتجول ثم يعود ثانية إلى قصر الباب العالي .
ويفكر أكدوغان باستثمار بعض الملايين من ثروته لإنشاء دار لجريدة
يومية بجانب مقره اليومي في أجمل منطقة من الشواطىء التركية .

باب العالي - باب العادي شمسي بللي استنبول
عام ألف وتسعمائة وثمان وثمانون .

المحتوى

المقدمة.....	٧
عبرة من التاريخ القريب.....	٢١
من هو جمال باشا.....	٢٣

الفصل الأول

الوضع في الشام وبيروت خلال الحرب العالمية الأولى.....	٢٥
---	----

الفصل الثاني

قوى خفية أثناء الحرب العالمية الأولى.....	٦٧
---	----

الفصل الثالث

الروس أيضًا يريدون إسقاط الإمبراطورية.....	١٠٧
--	-----

الفصل الرابع

جمال باشا يأمر بإقامة منصات الإعدام.....	١٣٥
--	-----

الفصل الخامس

حلم بناء الدولة الموسوية.....	١٦١
-------------------------------	-----

الفصل السادس

نحو إعلان حركة الخلاص العربية.....	٢٥٣
------------------------------------	-----

الفصل السابع

سارة تنتحر في الحمام بعد انكشاف أمرها.....	٢٧٣
--	-----

- كلمة أخيرة..... ٣١٥
- شهادات سلوكية..... ٣١٧
- الطريق إلى الملايين..... ٣٢٠

سارة المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية = / Imparatorluyu yihan
Kadin Sara لطفى أكدوغان . ترجمة دار طلاس، مراجعة وتقديم
محمد محفل دمشق : دار طلاس . ١٩٩٥ . ٣٢٣ ص ، ٢٠ سم .

١ - ٩٥٦,٠٨١ أ ك د س ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي
٤ - أكدوغان ٥ - دار طلاس
مكتبة الأسد

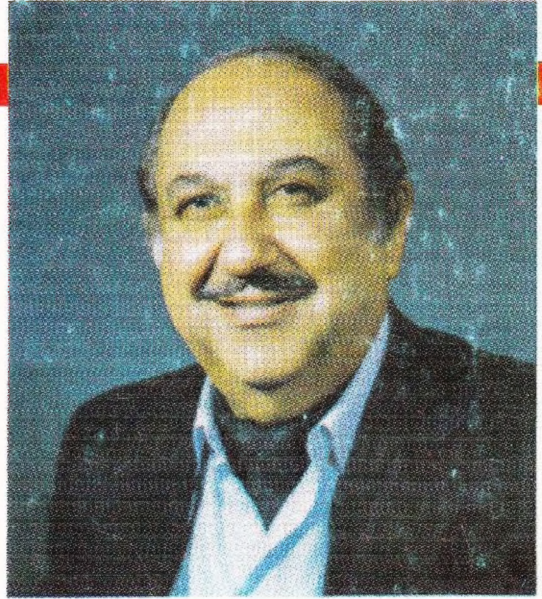
رقم الإصدار ٦٥٥

رقم الإيداع - ١٩٩٥/٢/١٢٥

موافقة وزارة الإعلام

رقم : ٢٤٦٠٧

تاريخ : ١٩٩٤/١٢/٢



لطفی آكدوغان

لطفی آكدوغان ، «خبير الشرق الأوسط» والصحفي المشهور صاحب الأسلوب السهل الممتع ، ستعرفون عليه عند قراءتكم للصفحات الأولى لكتابه .

ولد **لطفی آكدوغان** في انطاكية ، التي كانت تحتلها القوات الفرنسية عام ألف وتسعمائة وثلاثين وعاش خمسة وثلاثين عاماً من الإثارة في عمله الصحفي ومقالاته وكتبه .

وفي كتابه هذا ، يصف لنا **آكدوغان** كيف اندثرت أكبر امبراطوريات العالم ، الامبراطورية العثمانية وكيف عاش العرب بعد ذلك حالة الأسف والندم على ما فعلوه بها ، وما جناه عليهم فعلهم هذا .